



وارد بدر السالم

عجائب بغداد

رواية

عجائب بغداد

رواية

وارد بدر السالم



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-9948-446-25-5

ثقافة THAQAFA

للنشر والتوزيع ذ.م.م.

Publishing & Distribution L.L.C.

الإمارات U.A.E.

أبوظبي هاتف: 6345404 (2-971+) فاكس: 6345407 (2-971+)

دبي هاتف: 2651623 (4-971+) فاكس: 2653661 (4-971+)

بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

المحتويات

بعد أطوار بهجت 9

أوطان للأصابع 25

الغريب.. أعمى 34

حروب مرتجلة 42

فاصلة المشرحة 47

فاصلة للوثيقة 49

سيف الزرقاوي 52

شبهة الوطن المحتل 56

الكف وما بعدها 59

سرداب مايكل 67

فاصلة لورا (2) 73

أخي الإصبع 75

فاصلة أشرف 81

فاصلة لورا (2) 83

مؤخرة المدينة 85

غواط الوطن 88

قرية الأستاذ 92

الوقت السياسي 103

الرأس الأميركي 109
المعرفة والسلطة 113
بيت القارورة 117
المخطوف 128
المستنير 136
سنّارة القرية 140
رؤساء الصيف والشتاء 146
مزار مسرحي 150
صياد الجثث 153
هذه قضيتك يا ولدي 161
أقزام العنف 165
مريم.. اكتشاف النهر 180
الأميركي المبصوق عليه 185
زينب الشعثاء 197
صحف بغداد 199
بول الكلاب 204
أم.... 208
يد الصياد.. 218

إلى الغائبين عني مرة واحدة..

إلى والدي..

إلى والدتي..

اللذين عاشا قصة حب عجيبة

واتفقا على الموت معاً..

- من هم الناس الذين تكرههم أشد الكره؟

- أولئك الذين ساعدوني على احتلال بلدانهم.

"هتلر"

بعد أطوار بهجت

عدتُ من دبي بعد مقتل أطوار بهجت[1].

لم يكن بوسعي الرفض المطلق. كنتُ لحظتها كمن يقبض، بشكلٍ خاطف، على ذاتٍ متلبسة بإعصارٍ جارف خلخل صفاءها. هيمنتْ عليّ حالة من السكون الغريب خالطها تأملٌ مشوش لم يكن مفهوماً لي على وجه الدقة. وقتها أدركتُ أني سأمضي وأطرق أبواباً لا مفاتيح لأقفالها.

احتشدتْ في رأسي صورة واحدة افترَعتْها.. المغامرة. وفي رأسي جثة أطوار بهجت وجسدها الممزق تحت جاكيتها الأخضر الملطخ بدماء يابسة، والذي يغطس فيه سربٌ من ذباب بلون بلوزتها المجروحة.

يومها أدركتُ أن الفجيعة لا تُحتمل، تلك الصورة الفجائعية جعلتني أقف بين عالمين، أحدهما تحميه السماء وتمطر عليه عطراً وشذىً وسلاماً، وتغذيه بالسواحل والأشرعة والسفر؛ والآخر تعزله البنادق عن أنفاسه وتضعه في حاضنات البارود والرصاص، كي يبقى في محبس العمائم وأعشاش البارود.

عندما قال "بوحمد" بطريقته الجدية: **"نسعى لبلوغ درجة مقبولة من تعاملنا مع صور الحياة في أقسى لحظاتها وأكثرها ألماً، وأنت مراسلنا الحر في كل مكان"** أحصيتُ دقات الوقت الحرج، مسحوباً

---

(1) إعلامية عراقية. عملت في قناة الجزيرة الفضائية غير أنها استقالت منها لضغوط دينية مختلفة. فانتقلت للعمل في قناة العربية الفضائية كمراسلة. اختطفت واغتيلت مع طاقم العمل أثناء تغطيتها أحداث تفجير مقام الإمام علي الهادي في سامراء. وجدت جثتها صباح يوم الأربعاء الموافق 22 من فبراير 2006 في مدينة سامراء مسقط رأسها.

لنـداء غامـض مـؤرق فَلَـق رأسـي زمناً طويلاً، فوجـدتُ أن ما تبقى من الوقت لم يعد كافياً للتخفي، وصورة الانتظار التي رافقتني منذ الولادة الغامضـة حتـى اليـوم كانـت صـورة من ضبـاب وضعوا إطارهـا خلفها وتركوها وراء الجدران؛ ولن اعفي البحّار العتيد؛ أبي؛ من هذا التشويش المفرط؛ حينما أمسكت ذات يوم غيمة من مدينتي ونزعت البارود منها وخبأتها في حقيبتي كي لا تطير، غير أن عينيّ أطوار بهجت المنطفأتين وجسـدها الممزق بالسـكاكين والدريلات قلبَ المشهد أمامي، وجعلني أكتـب خطاطـات موجوعـة وأودعهـا هنـا وهناك لأعيـد تركيب الصورة مـن جديـد، لكـن على نحوٍ يكتنفه الكثير من الغموض، فما زال الوقت ينضغط في رأسي ويحملني إلى المجهول.

- أنت أفضل من يفهم خطأ الوطن الذي لم تره!

"بوحمـد" أفضـل مـن يهـب الكلمـات مغزاهـا ويضع فيهـا ألغاماً مشـحونة! فهـو شـاعر يتفنن بجملته ويُحيي مواجـع طفولية يعرفها حق المعرفة. أيقنتُ أني اذهب في الوقت الخطأ إلى المكان الخطأ والحالة الخطأ والوطن الـ محتمل. أن أكون في لجة فوضى اجتماعية وسياسية تنذر بالكثير من السوء. فالحروب جبانة والمتحاربون جوقة من الأشقياء والمجانين والمخانيث وهلافيت العصر الجديد.

وجدت نفسي محاصراً في العاصمة من الجهات كلها. افتقدتُ إلى بوصلـة صحيحة تشـير إلى منافذ الخـلاص الممكنة، فالغريب غريب يا بوحمد. كان كل شيء معطلاً عن الحياة. حتى صورة الضباب في رأسي مسـحتها الحرب الأهلية وقتال الشـوارع وصراع الناس مع الميليشـيات المتكاثرة كالحشرات في أجواف الأحياء الصغيرة.

قبلهـا بليلـة أخبـرت ميريـام بأن رجلاً أعمـى كان دليلي في مكان قفـر وبعيـد. كان حلمـاً غريبـاً كأنـي قرأتـه في كتاب أو رأيتـه في فيلم. قالت ميريام إن العمى في الحلم غنى. سـأقرأ لك كل ليلة في الكتاب

المقدس كي تكون في مأمن من الشرور ليحل السلام عليك أينما تكن.

في بغداد وجدت "**خميس الأسود**" متأبطاً حقيبة صغيرة تحتشد بعدسات التصوير ذات الزومات البعيدة التي تشبه المراقب العسكرية. مصادفة صحفية جمعتنا في فندق محصن بالكونكريت وجنود المارينز كما جمعتنا ذات مرة في دبي في فندق ريستنانس قبل سنة واحدة في مؤتمر أدبي. ومن ثم في أماكن شتى من الإمارات وكلكتا ومسقط ومانيلا وكازبلانكا. لكن كنا تحت سماء تمطر عطراً وشذى وتغرد فها الحياة على نحو لا ينتهي.

كان الأسود يثري جريدته الكويتية بصور ومشاهدات وريبورتاجات متواصلة منذ فترة غير قليلة، حتى كاد يستنفذ عطاءه بسبب الملل والخوف وقتال الشوارع في العاصمة المحبوسة بالسيطرات وانفجارات المفخخات التي تفاجئ الناس في أرجائها الميتة. ولم يكن مقتله - لاحقاً- مفاجأة لي، لكن المفاجأة أني نجوت من التباس بين لونين في عينين أفترضهما لا تريان من بغداد غير الظلام الداكن. كانت خديعة فيها مرارة قاتلة. فكان عليّ أن أفتح عينيّ وبصيرتي وحواس المغامر الذي يصنع لحظته من كل عابر يترك أو لا يترك شكاً ولا ريبة.

مراسلة الـ BBC كانت أكرمَ من خميس الأسود، الذي حسّسني أن للصداقة عمراً كحبة الدواء لا تعمّر طويلاً. تظل عيناه تدوران مسرعتين كعيني غراب حينما أتحدث إليه ليشعرني بأهميته الآنية وانه على موعد سياسي ووقته ليس له والعالم ينتظر تقاريره عن بلاء الحرب الأهلية.

امّحتْ في رأسه لقاءاتنا البعيدة وتشظت ذاكرته في أمكنة جديدة لا أعرفها، لكنه أدمن صور الخراب في العاصمة وظل يغيب مثل الصل المسموم في بطون الهمرات نهاراتٍ طويلة حتى يأتي بأبشع الصور وأكثرها دموية وفي مناطق مختارة يحددها له الطرف الآخر.

السيدة البيبيسية أنيقة بالجينز الصحراوي والشعر المعقود خلف

قبعة عسكرية مضغوطة على رأسها كمحاربة تشي طلعتها بالنشاط والحيوية والحركة الدؤوب، وعادة ما تتطلع عيناها إلى الآخرين، كأنما لديها فراسة حكيمة في فهم الآخرين. وكأنها حدست غربتي واكتشفتني في لحظة كنت أريد فيها أن أحتمي بالآخرين وأتعرف على جغرافية المكان ووجوه الناس. ولسبب يخصها أعجبها أن تمد لي يد العون السريع. تناقضتْ لحظتي الأليفة مع نفسي بسبب الأسود زميل المهنة الذي يترك الشك وراءه غير عابئ. فأسجل لنفسي أول لحظة قلق أواجهها. ربما هي لحظة تمويه غير منضبطة من الأسود. أو لأقَل لحظة كشف سريعة، فالسفر في غالب الأوقات مفتاح سري لكشف الأخطار قبل وقوعها كما تعلمت هذا من أبٍ مرتحل لا يثبت على أرض ولا سماء. أبٌ لا وطن له.

قالت صاحبة الجينز الصحراوي بظرافة: **أنت عاشق وسائح ولا خبرة لك بالحروب. صح!**

في عينيها ذكاءٌ مفرط. لم أقل لها أني في وطني! فأنا غريب الملامح والنظرات والهيئة. غريب العطر والأنفاس والثياب. تريثتُ قليلاً. الفاصلة عميقة بيني وبينه ولاحقاً سأشرح لها حكاية بحار وتاجر تشاجر مع وطنه وتاه في بطون البحار سنوات طويلة حتى أنجبني على ساحل غريب وعمّدني بمياهه وقال لي هذا وطنك، فتشاكلت السواحلُ المتشابهة عليّ وصارت الأوطان لي ماء يجري في عروقي.

تحيط بي كآبة مسافر افتقدَ الطريق الموصِل إلى دالته. لم أقل لها أن الانتماء ليس علامة مدرسية نحملها بالشطارة الطفولية، وحتى هذه العلامة لا أحملها. كانت تنظر إلى شرودي وتضع إصبعها على حيرتي في هذا العراك الصحفي الذي وضعني فيه بوحمد..

ربما أنا أقل منها عمراً بسنتين أو ثلاث، لكن الأربعين عاماً فيها لم تكن كافية لتغطية أنوثتها المتوهجة على ما يبدو فهي أفتى وأكثر شباباً

مـن هـذا العمر، وخبرتي في تغطية الحروب تفضحها ملابسـي المكوية وعطري الخليجي الذي أدمنتُ عليه بلا أسباب.

النهـارات ملغومـة بالشـكوك. ثمـة أكثـر من سـواد يغطـي المدينة وأصـوات فـزع كثيـرة يمكـن سـماعها أو تخيلها. ينقبـض قلبي في كل مرة. من الشـرفة أتطلع وارتجف بصورة لا إرادية، وفي رأسـي تتجول الحياة الثانية حيّة ومزهرة، لكنها أمست الآن بعيدة.

ظلـت الليالـي الكئيبـة عبئاً على روحي. طويلة ومملة وغريبة على غريـب مثلـي لـم يتجـرأ بعد على اكتشـاف خطواته علـى هذه الأرض. الغريب أعمى سيدتي حتى تنتشله يدٌ عذراء. لكن أنثى الـ BBC تخلق الأجواء المقبولة لها ولغيرها فتفتح عيون الغريب وتنظّم له ضربات قلبه شيئاً فشيئاً، فينتعش ليل الشيراتون بمصابيحَ متحركةٍ بأيادي المراسلين، ومصابيح ثابتة تنوء بضوئها الشحيح خلف حُجُب سميكة وشموع كأنها دموع متعسرة.

تحولـت الغـرف إلى ملاذات جماعية لا سـبيل إلـى تركها. كانت بـارات صغيـرة ومقاهيَ تصلح للتزاور والتعارف بين جموع المراسـلين الأجانـب وخلطائهـم العـرب. تصلـح للقصـص والحكايـات والأخبـار واجترار ما حدث بأكثر من عين ولسان. فليل العاصمة مظلم لا يُحتمل والخديعـة متربصـة والغـدر يتحول إلـى قصص في بلد فقد هواءه النقي وظل يستنشق الغبار طيلة فصوله.

همـرات ومارينـز وصحفيـون ومراسـلون ووجـوه عراقيـة متلبسـة بالغمـوض والبـلادة والحـزن وأطيـاف من الأسـئلة. هـذه أول مرة أرى وجوهاً عراقية بهذا التكرار؛ نسـاء متشـحات بعباءات سـود، شـاردات الأنظار، محجبات. وجوه قلقة. ورجال محاصرون يفترسهم الهم والغد المقبل بالوعود، يحملون فايلات ملونة ويلوحون بها كأنهم سـيدخلون الجنة من بوابة الشيراتون بحماية جنود المارينز!

قالـت المراسـلة[1]: هـؤلاء يجـدون في وسـائل الإعـلام فرصهم للشـكاوى والتجـارة أيضـاً، بعضهـم يحمـل وثائـق مهمة ومسـكوكات تاريخيـة سُـرقت مـن الدوائـر الحكوميـة والحزبيـة أثناء احتـلال بغداد. وخُبّئـت منـذ ذلـك الوقت وهذه فرصة لبيعها على الشـبكات الإعلامية والأجنبيـة والعربيـة. شـاهدت مـن هـؤلاء كثيريـن على مدار السـنوات الأولـى. لكـن يمكنـك ملاطفتهم. بؤسـاء وفقراء إلى حـد لا تتصوره.. وهـا هـي سـت سـنوات مرت والحال تغلي مع شـقاوات رجـال الدين وميليشياتهم، وتسوء مع هذه الحرب..

تقول أيضاً من باب إيضاح الحال: ستجد أيضاً مخطوفين عائدين من الخطف بعد دفع فدىً مالية لهم، وهؤلاء عائدون من موت حقيقي لا يسـتطيعون التحدث حتى مع أنفسـهم بسـبب الأهوال التي واجهتهم مع مختطفيهم. الجميع الآن كشفوا لعبة الوهم الديموقراطي التي نادى بها الرئيس بوش؛ معظمهم يتصور أن الديموقراطية ستفتح أفخاذها بعد قليل وتبول عليهم لبناً وعسلاً!

أقـول لهـا بجهـل مطبق: وهـل الديموقراطية بعيـدة عنهم إلى حد هذا الوصف المقرف!

أشـركتني مراسـلة الـ BBC الأربعينية في ليل الشـيراتون. وفتحت لي حاسبتها الصغيرة وهي تتمتم بأذني:

(1) سـتكون هـذه المـرأة رفيقتـي في هذا النـص حتى لحظة النهاية، لكـن قبل الكارثة الأخيرة. اختارتني بمصادفة أو بحس أنثوي أو بقرار آخر. وسأختارها زميلة مهنة. نتبادل المعرفة والمساعدة والرأي والمشورة؛ وصديقة سفر لكنه سفرٌ مقلوب هذه المرة بالنسبة لي.. الدخول إلى عنق الزجاجة بمغامرة غير محسوبة قد تكون مجدية أو لا تكون؛ فالمرأة تمنح الرجل الكثير من الطمأنينة ما يجعله دائم البحث عنها. ربما هو الفقدان أو شيء آخر. أغوتها لغتي الإنكليزية المتقنة إلى حد بدوت أمامها كأني جارها الأليف في نوتنكهام. وأغواها عطر لا شك أنّ أنف الأنثى فيها يعرف أسراره.

- اكتب لصديقتكَ من خط النار ولكن لا تُخِفْها، فالنساء أكثر شعوراً بالخطر من الرجال.

كنت أسمع بخط النار ولا أعرفه. ابن الدلال والعشق والسفر والسواحل المفتوحة على آخر الدنيا. لم تكن مثل هذه الخطوط المستعرة في حياتي الصغيرة، وهذه أول مرة أرى فيها قتلاً وقتالاً ولعلعة رصاص ودماء منسكبة من باب إلى باب ومن بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع. كان مرأى الجثث المطروحة على الأرض يريني أفلاماً مروّعة شاهدتها تلفزيونياً في قتال المدن الصومالية والسودانية التي اعتادت الموت البائس على طرقاتها وأرصفتها وبيوتها. بدت سينما الكاوبوي وأفلام الأكشن واسترجاع الحروب العالمية والأهلية محض أكاذيب يضحكون فيها على مدمني السينمات الشعبية.

عجنتني فكرة الندم إلى حدها الأقصى، وجدتُ نفسي في غابة مروّعة من الكواسر غير المنظورة، فرفّ قلبي رفيف الطائر المحاصَر. وحينما تكون في دائرة الخطر تستدعي بقوة مشاهد الحرية التي كنتَها وتعيد تمثلها بأية طريقة كي تكون قريباً منها وأنفاسها لتمهّد لك فكرة التراجع والعودة. غير أن نفسي الأمّارة بالبقاء ظلت تقودني من ظن إلى ظن ومن رؤية إلى رؤية ومن احتمالٍ إلى آخر، وفي رأسي حكاية طفولية تحضر بمرارة. أبعدها كي أكون على مقربة منها باحثاً عنها في ملفات المدينة التي لم أعتد عليها بعد. مرتهناً بين فندق الشيراتون والسيدة البيبيسية ذات القبعة الخاكية وهي تطوف بي في بغداد اليتيمة، فظل أمل صغير يتصادى في داخلي شككت فيه كثيراً، هو أن أحب المدينة وأعشقها وأنام في بيوتها مطمئناً، كما عشقت مدناً غريبة حول العالم ونمتُ في بيوتها وتماهيت مع كينونتها الدافئة، عندما كانت الطائرات السياحية تحط بي بين المطارات، وتتنقل بي الأيام بين بطون القرى والأرياف والشواطئ سائحاً جوالاً أتجدد مع الطبيعة والحياة.

كانت عيناي تتجهان إلى هذه المراسلة الأنيقة التي انتشلتني لفورها من قلق تركه "الأسود" بداخلي، في حين كانت الانفجارات توشّح المدينة بدخان أسود متفرق وتتفرقع فيها الأصوات المضخّمة. لتكون بغداد جسداً مشرّعاً لتشريط دموي عبثي على مدار الوقت. كانت الحالُ فيها باعثة على الرهبة، فكنتُ في الواقعة البغدادية كفراشة تدور حول لهبها صامتة ومتخاذلة من دون أن تدرك فيها خديعة النيران الصديقة.

من يراني أحدق بالوجوه سيعرفني غريباً عن المدينة. وجوه العراقيين تثيرني كثيراً، وعيونهم المسبلة تستفزني. شيء ما يعتلج في داخلي ويختلج عندما أكون بمواجهة هذه الوجوه السمراء المحبطة. لا أجد مفراً من النظر إليها ومعاينتها بروح الطفل الذي فقد أهله ذات يوم لسبب لا يعرفه ولا يدركه حتى الآن.

تتغير الوجوه في كل منعطف وزاوية وشارع. وكنت بلا دراية أتمثلها وأتلون بها كلما زاد رصيد الموت هنا أو هناك، فتختفي من رأسي مدنٌ بعيدة ووجوهٌ أخرى وأيام نبتت عنوة في داخلي فصيّرتني رغماً عني.

سحنات البشر هنا تتشابه إلى حد الانطباق؛ لكنها تتغير كل يوم أيضاً!

هذا انطباع أول قد يكون الأخير في مستقبل هذا النص وقد لا يكون.

تلقفني رجل شابَ رأسه أكثر مما يجب. كان يرتدي بدلة مخططة كشفت نحوله وهزاله. بدا كأنه معلم متقاعد وهذه آخر بدلة نهارية اشتراها منذ سنوات خلت. عرض عليّ بضاعة ورقية ملفوفة بعناية قال إنها وثائق سرية صادرة من جهاز المخابرات في عهد النظام السابق وقد احتفظ بها منذ ست سنوات.

لم أشأ توريط نفسي بعمولات دولارية وصفقات لا أعرف أهميتها وخطورتها. قمعت الفضول في داخلي بقوة، لذلك أوصلته إلى سيدة الجينز الصحراوي التي تصفحت الأوراق، ثم أخذته معها إلى الطابق السادس فهناك من يترجم لها في غرفة البث وكان المعلم المتقاعد

يحجل وراءها مثل العصا المكسورة.

شابٌ آخر - أكمل الدراسة في كلية الفنون الجميلة قسم المسرح - تجاذبت معه أطراف حديث عابر قال أنه يستطيع أن يمثل دور صدام في فيلم طوله 34 سنة. كان يضحك بالرغم منه ويكبح أشياء تريد أن تخرج لكنه يطمرها بضحك مضطر إليه، عيناه تخفيان ألماً يمكنني استشفافه بسهولة. قال بطريقة مبتكرة فيها تشويق مسرحي أنه يقبض على معجزاتٍ إلهية في قرية مبتكرة ببغداد لا تشابهها قرية فالحرب تصنع أحياءها كما يصنع السلام أحياءه ولكن بين قوسين!

قلت له أنا غريب هنا وقد أصدّق أي شيء والغريب يمشي بعيون الآخرين. لم يثر فضولي كثيراً، لكنني اقتنصت عينيه ففيهما حزنٌ كأني سألمسه بعد قليل. قلت في نفسي أن هذا التعاطف جزء من لعبة التشويق التي جاء بها هذا الشاب.. أقلقتني لورا بتوصيات لا لزوم لها، فأنا عفوي في حياتي، قليل الأخطاء وأحب الناس.

قال الشاب بمرح يخالطه أسف أن بغداد اعتادت الحروب وتغيّرت أخلاقها بمقياس ريختر وانكشف القاع المطمور عن جيفة وطنية وستجد الكثير من الناس خارج نظام الآلهة. ابتكروا حرية فريدة وبنوا واقعاً موازياً لواقع هذه الحياة المسكونة بالقتال الهمجي.

وافقته أن الحروب تبدّل شكل الحياة وجوهرها في أحيان كثيرة وتبتكر مفرداتها وطريقتها في ابتكار واقع آخر يوازي الواقع الحقيقي لكن أقل شأناً منه. في الحروب المحلية يتكاثر المجانين والهواة والسحرة كما هو الحال في البلدان الفقيرة.

قلتُ:

- عشت في بلدان فقيرة لكنها ثرية بحياتها وتاريخها وحضاراتها. لذلك فالإنسان فيها يبتكر كل يوم وسيلته التي تفاجئك للعيش المقنع حتى لو كان في أدنى مستوياته.

وأضفتُ:

- **الفقر والحرب يتشابهان بين الشعوب ويؤديان إلى الغرض نفسه.**

قال:

- **المعجزات تظهر في الحروب ولا تظهر في غيرها.. البلدان الفقيرة يشيع فيها السحر وألاعيب الحواة والمهرجين..**

وشدد بحسم:

- **المعجزات للحروب..**

قلت:

- **الحس الشعبي يهوّل كثيراً منها.. الحاجة الشعبية تتخلى عن أسرارها أحياناً.. تتخلى عن سرية المقدس فيها، لمواجهة ضغط الحروب الفجائعي.**

قال بثقة:

- **سنلتقي ذات مرة، وقتها ربما ستغيّر رأيك..**

قطعتِ الحديثَ قنبرةُ هاون سقطت قبل النهر، كنا ننظر إلى انفلاق دخانها الأسود الذي يتصاعد ببطء كالفتيلة. استأذن الشاب ولم يخفِ قلقه. صافحني وهو ينظر لي بعينين تحيط بهما هالة من السواد.

تفرقت شابتان صغيرتان بيني وبين أحد المراسلين في حديقة الفندق. صغيرتي ملفوفة الرأس بحجاب كحلي داكن يكشف مقدمة شعرها كثيراً كأنه وُضع على رأسها من دون أن تدري. كانت ابتسامتها مرتبكة وعيناها المشعتان بالسواد تتلصصان إلى جنود المارينز الداخلين والخارجين من الفندق. كانت اجمل لو أنها خلعت الحجاب الكحلي. كان هذا انطباعاً سريعاً مني.

صوّتت سيارة إسعاف قبل أن تسكت سلسلة من أمشاط الرصاص خلف البيوت المجاورة قبل النهر أعقبت انفلاق القنبرة، كان زعيقها

مقرفاً. لم أسمع مثل هذا الزعيق زمناً طويلاً[1].

تموت بغداد بين أمامي. كان شتاؤها صنبوراً من دماء. ودليلي الأعمى يراودني في أحلام متكررة. والأيام مثقلة بما لا يسر.

من شرفة الطابق السادس تلتم بغداد على نفسها. أمام الفندق متسولون ينتظرون صدقات المراسلين من فوائض خردة دولارية صغيرة. فقراء الحرب يتكاثرون عادة في مثل هذه الأماكن. جنود المارينز يطاردونهم بقسوة ومترجمون يبالغون في شتيمتهم **"قد يكون بعضهم عيوناً للقاعدة"** حدث مثل هذا قبل مجيئي حينما فجّر أحدهم نفسه على تجمع لجنود المارينز في مدخل الفندق. حكايات كثيرة يمكن التقاطها من الناس والمراسلين تكشف مدى الفوضى السائدة هنا. وأعجب في داخلي كيف يمكن أن يتحول لباس الفقر إلى وسيلة من وسائل القتل! ستجيبني لورا لاحقاً: **سترى العجب وستطلب من مجلتك أن تبعث لك برميل عطر كي لا تخنقك رائحة الموت!**

في كل مرة تحتبس أنفاسي للعاصمة المهجورة والجثث المبعثرة وأصوات الإطلاقات التي لا تنقطع مع الوقت. كانت يدي ترتجف

(1) منذ حادثة ساحل "گوّا" الهندية، حينما غرق أحد السياح الثملين. فكانت النجدة متأخرة رغم عويلها المتصل الذي كنا نسمعه من مسافة بعيدة، وكان الرجل مات مختنقاً. وعندما تلاشى زعيق سيارة الإسعاف كلياً حلّ صمت اضطراري لا أستطيع تفسيره.
اعتراني هاجس مباشر من أن الموت هو عبارة عن انتهاء صخب في مكان محدد وزمن محدد وجسد محدد. كفّ الرجل عن الحياة ومات. بقي البحر مسترسلاً في امتداده. وظلت بقعة موته المسحورة لا يطأها أحد ذلك اليوم.
كتبت إلى ميريام في ليلة الغرق أن موت الرجل الثمل بتلك السرعة الغريبة يشبه جفاف برعم يمد رأسه من أرض صغيرة لكنه يكتفي برؤية الشمس ويقف في الحد الذي وصل إليه.
كفت عجلة الإسعاف عن العويل كأنها عرفت أن الرجل غاص في الأفق الغامض ليخلف وراءه السكون المخيف.

وأنا أصوّر جثة لشاب صغير انكفأ على وجهه الذي يغرق في بقعة دم يابسة. تأخذني رجفة الموت معه إلى ذلك الجسد المقتول الهامد همدته الأخيرة. صاحبي الأسـود يستعين بالهمرات الأميركية بباج خاص لديه حينمـا يتجـول بيـن قصص الخراب. وفـي المرتين كنت معه أرى بغداد مـن نافـذة الهمـر المضلّعة مهجورة كأنما الطاعون تسـرب بين مفاصلها وأن حريقاً سماوياً قضى على الحياة فيها[1].

في الفندق أفتح شاشة اللابتوب وأدمن النظر بالأجساد الميتة. كل جسد له قصة وذكرى وحياة. كل جسد مات بطريقة ألم لا تشبه غيره. انطفاء مشترك بين الجميع، لكن العذاب يختلف بين العيون التي غمرها الرماد. أمطار بغداد غارقة بالرماد ذاته وشتاء المدينة لا يكف عن الغبار! مفارقة غريبة تجعل المرء يصدق ما قالته الأسـلاف عن نبوءة الشـيطان ودعاء الإمام الميت عطشاً.

تركت في دبي أشيائي البسيطة وراتبي الذي ستحوله لي صديقتي المسـيحية ميريـام بانتظـام. ميريـام تحثنـي كل يـوم على إكمـال روايتي الأولـى التـي أخـذت وقتـاً طويـلاً مني لـم أتوقعه.. **هناك شـيء ناقص فـي الروايـة.. هويـة الروايـة غير واضحة حتى الآن.. سـطور مجنّحة في الفضـاء.. أريدهـا أن تقف على أرض ليسـت مـن اختراعي..** ترد ميريام الجميلـة.. **اختـرع أرضـك وقف عليها وتـوازن. كل الروائيين يخترعون حياة ويصدقونها..**

---

(1) خرجت مع خميس الأسـود مرتين على خريطة خوف مشـتركة؛ أزعجني أنه يكثر من اتصالاته في هاتفه الثريا ويبتعد عني بأنانية لم تعد خافية عليّ. جريدته الكويتية تريـد منـه صـور الخـراب وقصص المـوت العراقي في كل مـكان. رئيس تحريرها يريد صوراً للموت خاصة بجريدته وتصريحات لسياسيين معينين. دائماً يهز رأسه ولا يعارض. كنت أسمع منه أسماء بعض السياسيين وبعض الأمكنة التي عليه أن يصورهـا. سـمعته مـرة بوضوح: **طال عمرك سـمّوها مدينة الصـدر من زمان... أنا** زرت الفلوجة مرتين.. حاضر طال عمرك..

طفلة ذكية يمتلئ فمها بالفراشات ورأسها بالجنون والقصائد وجسدها بالصبا الدائم. لم تكن ميريام مرتبكة. كانت أشجع مني. لكن وجهها اكتسى بلون شاحب انسحب من وجنتيها وانتشر على وجهها الجميل. أدركت أن بوصلتي تغيرت مكرهاً وعلا وجهي احتدامٌ غريب لم تلحظه من قبل. ربما كان **بوحمد** يعي ما يفعل وهو يسحب قلمي ومزاجي من جنات آسيوية اعتدت الكتابة عن جمالها غير المرئي ويلقي بي في تجربة مضادة عسيرة في الأحوال كلها. نقيض الجمال بلا شك.

قلت لميريام:

- وجهكِ يقلقني.

هذه أول مرة لم يشعرني لسانها بطعم الفراولة. كان فيه خيطٌ ناعم مُر. تحسسته روحي قبل لساني.

وجهُ بوحمد يعبّر عن شيء ما. قال بمهنية:

- كان قبلك صحفي عراقي بارع تفنن في التقاط ما يجذب الانتباه في حروبكم الكثيرة، وقتها لم تكن أنت بيننا ومعنا. لا أدري أين كنت! كنتَ صغيراً على ما أظن. أو ربما كنت نطفة في ظهر تاجر جوّال..

يضحك غامزاً بود. تعرّف على أبي مرتين، وفيهما قال لي أن أباك سندباد لا وطن له فلا تكن على شاكلته.. في قبرص على ظهر سفينة قادمة من بيروت التقاه مخموراً تحيط به صبيتان فاتنتان قال عنهما بوحمد انهما حوريتان، وفي الصين على مقاعد رجال الأعمال في طائرة "الاتحاد" الإماراتية كأي تاجر محترم التقاه ثانية.

كان بوحمد يتصفح كتاباً وُضع في بريده اليومي. عرفت أنه أحد إصدارات دار رياض الريس من حجمه وشكل تصميمه. لم يُثِر فضولي كما في كل مرة أتسلل إلى بريده وأقتنص كتباً حديثة تصدرها الدار على مدار السنة.

كنت أنظر إلى وجهه الذكي كعادتي حين استمع إليه وهو يوجهني

بخبرة لافتة إلى كيفية استنطاق المغمور من المكان في جزر آسيا المزينة بالجمال والمدن الناطقة بالفتنة والمناطق السياحية والأثرية الموشحة بالتاريخ، لكنه فاجأني هذه المرة كما لو يريد تغيير بوصلتي من أمكنة الجمال إلى أمكنة الخراب:

- الزمن تغير كما ترى. صحفيّنا القديم هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية. استحصل لجوءاً إنسانياً ومضى إلى حال سبيله بعدما يئس من العودة إلى وطنه.

حاولت استباق أي احتمال لشعوري أن هناك ما لا يريحني. فقلتُ كما لو أريد دفع تهمة جاهزة عني:

- المجلة لا تحتاج إلى قصص حرب مقرفة وبشعة عن همج يتقاتلون من أجل لا شيء.

ترك كتاب دار رياض الريس ودفع بإضبارة البريد إلى جانبه ونظر بإشفاق إلي:

- لسنا مجلة سياسية ولا طرفاً في نزاع طائفي..

زم شفتيه ونظر عبر نظارته الشفافة:

- الحال تغيرت. لك رؤيا تختلف عن مواطنك السابق. أعرفك مجتهداً وبارعاً في التقاط ما يجب التقاطه.

غيّبتُ عني كل المدن التي مشيت في شوارعها المغسولة بالأمطار الاستوائية وحدائقها الموشاة بالورود وقصورها القديمة العظيمة.

قال الرجل وهو يطلق حُكمَه من دون موارَبة:

- لكن ثقتنا بقلمك محسومة منذ أول تجربة لك في تايلاند... أتتذكر؟ كنتَ في أول الشباب لكنك أثبتَ أن الشباب هو الروح لا القلم. وإن حسك الصحفي لا يمكن التفريط به.

انقلبت الصورة إلى نقيضها. وكطائر سعيد ذي جناحين عملاقين

حطت أمامي جزيرة "بوكيت" الساحرة. كانت طوافاً غريباً في جمال الطبيعة وسحرها الخلاق ومعابدها البوذية ومساجدها الأخاذة ومبانيها القديمة المشيدة على الطراز البرتغالي. أشجار المطاط الفارعة والأوربيات شبه العاريات والفيلة التي ترسم بخراطيمها لوحات تباع بأثمان عالية.

- **أتتذكر؟**

أعاد لي التساؤل متقصداً. نقر في رأسي كالمسمار. كما لو يحثني على الذكرى والنص معاً. أعادني إلى جزر **بوكيت وكوفاي وباتايا في** مهرجان الطبيعة الخالد، بين الأشجار المتسامقة والغابات المكتظة والفيلة الضخمة والطيور القزحية التي أنتجتها طبيعة غير معروفة، والأمواج المصطدمة بالرمال والبشر الذين يتخاطرون بأجسادهم العارية، كإنما العري هو لحظة ولادة ثانية بين الطبيعة العذراء.

وقتها كتبتُ لميريام: **الناس تتعرى لتولد من جديد.. الشواطئ حاضنة للعري وتغري إليه. أتعرفين! لقد توصلت إلى أن العري هو ولادة غير واعية يلجأ إليها الإنسان كلما شعر بثقل الحياة ووطأتها.. يبدو لي أن السفر محاولة للولادة الثانية في مكان ما!**

ظل بحر "**أندمان**" على مقدار شباك غرفتي. أنظر إليه كلما طلبت الاسترخاء. سفن بعيدة تعبر مع خط بعيد وأصوات غامضة تتدرج مع الرياح الرطبة. فتصدمها أشجار المطاط المتطاولة. تتشتت وتندغم مع صدى وشيش الشاطئ وصيحات المسافرين إليه. وقتها لم يكن قلمي قادراً على استباحة هذه العذرية الفاتنة. كان جامداً لا يتحرك كأنما أصيب بغيبوبة، هي غيبوبة ساحرة حينما تختلج فيها صور الجمال بطريقة مفاجئة؛ لأقول مع نفسي كم من المراسلين في العالم كتبوا عن هذا المكان ووصفوه وكم من المصورين خلدوا هذه الطبيعة بذاكرة القراء فماذا أكتب بعدهم! كان شعور باللاجدوى أن أكتب إنشاء مدرسياً

عن فتنة المكان وسـحره وجماله. فتدبيج الصفحات ليس من هوايتي. **أنا لا أكتب. أنا أرى.**

لـم أكتـب عـن مهرجـان الطبيعـة الصاخـب؛ غير أننـي كتبت عن الأصابع بوصفها رحلة جزء من الجسد إلى عالم المحسوسات، منطلقاً مـن مصادفـة علميـة أولاً وبالتالي من ثقافة ومعرفة وقراءات متعددة في الجسـد وعناصـره الحيـة فـي رحلـة الحياة. شـدتني أصابع الآسـيويات المبرومة. كانت تلك الأصابع هي الأمهر في التعامل مع عناصر المكان، يحركها حس جمالي من داخل الجسد. لم تلفتني جزيرة باتايا في نهاية الأمر، مع أنها مَحج للجمال وقِبلة سياح العالم، بل لفتتني أصابع نادلة رشيقة وتلك لها حكاية[1].

اصطدمت ببطل "الغثيان" لجان بول سـارتر حينما كان ينظر إلى يديه وأصابعه ليكتشف أنها ليست جميلة ولكنه يقر بأنها مصدر الإبداع، غير أن «ابن طفيل» قبل سارتر قال أن الحضارة أصابع عاقلة عندما نظر إلى يديه وراح يحرك أصابعه من أنها آلة منتجة.

استدركتُ هذه المعارف بعد عودتي إلى دبي. وأخذتني المصادر إلى ما كان يجب أن تأخذني إليه[2].

---

(1) حينما قرأ بوحمد مقال الأصابع قال لي: بدأت أفهم الآن أيها الشـاب أن كتابتك ضامنة للبقاء في الحياة إلى مشوار طويل بلا شك.

(2) كما لو بدأتُ أكتشف أن الكتابة هي جزء من كيان الجسد تقع بين الرأس والأصابع والعين في مثلث متوازي الأضلاع. في رأس السطر ورأس القلم ورأس الورقة في مثلث موازٍ له. مثلثان يتحدان لمواجهة العالم.

أوطان للأصابع

على وقع انفجارات قريبة تركت صالة الفندق. البارحة دخل خمسة ملتحين وسادسهم يرتدي ملابس عسكرية مكشوف الرأس. اتسعت عليه بدلته كثيراً، يبحثون عن طاقم إحدى المحطات الفضائية، غير أن جنود المارينز المنتشرين على محيط الفندق دخلوا بفجاجة والتقطوا الملتحين كالسحالي. كانوا شباباً لكن وجوههم ارتدت قسوة لم أرها في مثل هذه الأعمار في أي مكان. لم يبدُ الخوفُ عليهم كثيراً، كما لو أنهم سيُبعدون عن الفندق حسب كي يعودوا إليه ثانية في وقت أكثر ملائمة. وتطرق إلى سمعي مثل هذه اللعبة بين المارينز وعناصر الجيوش السرية التي تطحن بغداد.

وجدت ورقة صغيرة ملصقة بشريط لاصق على باب غرفتي. ترددت أولاً. هذه طريقة للتهديد بالقتل يتكلم عنها الناس والمراسلون هنا. غير أني كنت اشعر بالطمأنينة لسبب ما: **"أيها العاشق.. إن كنت تشعر بالقرف التحق بنا على الغرفة 603.. لورا"** لم أتردد. نفس الطابق. وجدت خميس الأسود يحتسي البيرة على عجالة. كان منشغلاً بالرد من هاتفه الثريا على طرف كويتي يثني عليه كما يبدو.

هذه أول مرة أعرف أن اسمها لورا. عرّفتني بالحاضرين.. صحفي كندي منهمك مع حاسبته الدفترية مطأطئ الرأس. مصورة أسترالية ببشرة برتقالية كأنها مسلوخة، مراسل اسكتلندي منمش الوجه أحمر الشعر، رندة مراسلة لبنانية. عبدو المصري مراسل قناة روسية. صحفي عراقي لإحدى الصحف المحلية يثرثر كثيراً. وآخرون سأتعرف عليهم تباعاً في هذا الجو في أي وقت يضمن لي البقاء معهم من دون مفاجآت

غير محتملة.

كان ليل بغداد من النافذة أسود وبارداً. كف المطر والغبار منذ أول المساء. غير أن المدينة كانت تشي بالكآبة. قدمت لي لورا كأس نبيذ أحمر. وألقت حاسبتها في حضني.

وجدتُ في إيميلي رسالة من ميريام[1] قرأتها بحب كما في كل مرة. وتركت الإجابة إلى وقت آخر ومزاج آخر.

يدفع بي بوحمد كما يتمنى:

- هذه فرصتك أن تحقق ذاتك في وطن اجتذبتك عنه مدن وبحار وشواطئ غريبة وابتعدتَ قسراً عنه عمرك كله. كن على قدر المهمة. ستكون في مكان متناقض. أنا واثق أنك ستستوعب المكان كما تستوعب القوقعة خوذتها الثقيلة.

ثقل رأسي بالصور التلفازية واحتشدت صنوف المشاهد التي كنت أراها قلقاً أو خائفاً من شيء مجهول يقود الحياة إلى خوانق مقبلة. وكي تعود أنفاسي إلى انتظامها تتقاطر صور مضادة ومشاهد أكثر جمالاً في ثرائها الروحي والطبيعي، تلك التي منحتني قوة مضافة كي أثق بنفسي وأبني رؤياي باجتهاد منفرداً عن غيري. ولكني كما في كل مرة أتساءل: **حتى القوقعة لها وطن تمشي به ويمشي بها..!**

كنت حائراً في منتجع ماليسا في بوكيت بعد أن جبتُ شارعاً مزدهراً بالأشجار العملاقة على ظهر فيل ضخم كأني أركب قلعة متحركة تشرف على الحياة. المعابد البوذية معمار هندسي يكتظ

(1) قلقت عليك. بدأت بغداد تحاصرني بنشرات الأخبار. تخيفني "الجزيرة" جداً. أهرع إلى غيرها لعلي أجد بغداد بلا حروب. لعل الزمن تغيّر في فضائية أخرى. اكتب لي كل لحظة تعيشها. أخاف عليك من الميليشيات المسلحة. أشكالهم مقرفة ووحشية. بدأتُ أفرزهم بين نشرات الأخبار. الزرقاوي مجرم وذبّاح. ومثله آخرون ستكتشفهم تلقائياً.. حاول أن تعود بأسرع ما يمكنك. أحبك. ميريام.

بالألوان ويغري بالتقاط صور متتالية. رجعت إلى الشاطئ أترقب سرب نوارس زاعقا يشوش أمامي خطوطاً وهمية لسفينة بعيدة تشق عباب البحر. تتخاطف أمامي أجساد نحاسية عارية لوّحتها الشمس الاستوائية. عندها نبهتني النادلة الرشيقة إلى طلبي من كأس شيفاز مزدوج. وضعتْ ورقة الحساب أمامي وابتسامة متطامنة على كل وجهها. لفتتني أصابعها المذيلة بصبغ زهري غامق وربما اللون الزهري هو ما لفت نظري.

مجلة بريطانية قديمة متروكة على طاولتي ضمن نشرات دعائية ومينيو وإعلانات ملفوفة متناسقة بأشرطة ملونة استغرقتني وقتاً قصيراً قبل أن أعثر على عنوان علمي، جذبتني صورة كبيرة له عبارة عن يد تتفرع منها أعداد لا حصر لها من الأصابع، كشجرة غريبة تنبت فيها الأصابع من كل مكان. تركيب الفوتوشوب جعلها مثيرة إلى حد أجبرني على قراءة المقال.

قال محرر المجلة على ما أتذكر أن بعض الباحثين ينبّهون إلى أن أطوال الأصابع عند الرجل والمرأة تعطي فكرة عن شخصيتيهما وقدرتيهما النفسية والمرضية والاجتماعية والعاطفية. وبعض الحياة تكمن في الأصابع. بمعنى أن جزءاً ما من الحياة تحركه الأصابع، وبالذات الجزء الذهني من الإنسان.

مصادفة غريبة جعلتني أعيد النظر بأصابع النادلة حينما طلبتُ منها كأس شيفاز مفرداً هذه المرة. أغرتني الفكرة. الرجال والنساء يتخاطفون في نزهات موصولة لا تنتهي. والأصابع متوفرة في هذا الخليط السياحي.

نهضتُ من الطاولة تاركاً كأس الشيفاز الوحيد تحت ظل شجرة مطاط متأملاً أصابع الآخرين. كنت أقول لنفسي كم من الأشياء اليومية تعيش معنا ولا ننتبه لها؟ أحكمتْ فكرة الأصابع طوقها عليّ بطريقة لم أجد لها تفسيراً أول الأمر، غير أنني قضيت بقية أيامي منشغلاً

بأصابع النساء والرجال وأجول بين المعارف المتوفرة عبر الانترنيت حتى عودتي إلى دبي. وقتها كنت أرفع أصابع رئيس التحرير وأتأملها مبتسماً، فيما كان بوحمد مندهشاً ينظر إلي: **هل تريد أن تأكلها!**

تأملت أصابع النساء والرجال في الرقص والطبخ والشرب والمأكل والوصال والتأمل. كنت أنحني طيلة سفري لأرى كيف تتحرك الأصابع وكيف تعمل وكيف تجتهد وكيف تلوي الزمن لتحقق انتصارها الشخصي في منظومة الجسد المعقدة. أطابقها مع العيون الشاردة والرؤوس الصافنة. متى تموت ومتى تحيا ومتى تفز من غفلتها.

كتبت نصاً خارج السياق من رحلة تايلندية أثيرة في "بوكيت" و"باتايا". رأيت الأصابع تكتب وتعزف وتنحت وترسم وتحنّط وتصنع وتبصم وتلوّح للجمال وتمسح الدموع وتمسك الرياح وتقطف الغيوم وتؤلّف سمفونيات الأفراح وتبكي وتحزن وتضحك وتمرح وتغني وتتجلى وتسمو وتطير وتتلاشى وتكتشف، فالأصابع في رحلة الجسد الطويلة هي شخصية فريدة من نوعها في تجليات الجسد المختلفة. الحضارات العظيمة دونتها الأصابع. الأصابع كائنات حية متداخلة مع منظومة جسدية دقيقة. والجسد هذه الآلة الغريبة يتحرك وفقاً لنظام معد سلفاً بوظائف مختلفة عسيرة الفهم في أحيان كثيرة.

استنطقتُ الأصابع وتوصلت إلى خيالها وطقوسها. حاورتها ورحلت معها أياماً طويلة في سفر مرجاني تحف به الطبيعة الخلاقة وأشجار الخلجان الطويلة وموج البحار المتناهي الزرقة. وتركت معابد بوذا لبوذييها ومساجد المسلمين لمسلميها ومغاطس السياح الباحثين عن سفن الحرب الفيتنامية الغارقة في باتايا.

من المؤكد أن رئيس التحرير تقصّدني وهو شاعر معروف ذائع الصيت في بلاده، وثقت من أنه يعرف ما يختلج في رأسي هذه اللحظة. كتم شيئاً من انفعالاته في محاولة امتصاص شرودي:

- هنـاك حـربٌ أهليـة - طائفية، نحتاج إلـى ريبورتاجات صحفية وفيجـرات قصصيـة ورؤى غير مسـبوقة عن تلـك الحرب... وأنت خير من سيفهم التداخلات الطائفية التي أثمرت عن حرب غامضة بعد حادثة سامراء.

حزم أمره بانفعال واثق:

- اكتب روايتك أيها الفتى[1].

شعرتُ أن أصابعي تلتف على قلمي السوفت وقد تكسره في أية لحظـة لمجـرد التفكيـر بالعـودة إلى بغداد. سـحبت أنظـاري من صورة لمجسـم برج دبي معلق وراءه. أقلقني هذا التحدي الذي يضيفه رئيس التحرير إلى مجد موهوم جعلوني فيه لمجرد أني كتبت شيئاً خرج عن مألـوف الكتابـة فـي المجلـة. فالأصابـع فكـرة أودعتها في رأسـي نادلة جميلـة، والنهـد، فيمـا بعد، حصيلة مصادفة علـى رمال بيضاء، والعيون المسحوبة انتصرت على سور الصين في لحظة الكتابة وظاهرة مؤخرات الأفريقيـات البـارزة مقـال اعتـرض عليه رئيس التحرير لأسـباب تخص الإمارة!

برزت سحنة بوحمد السمراء أكثر مما يجب:

- يمكنك من الآن أن تسميها بـ الحرب المرتجلة.. بلدكم غريب. انـه محتـل وتنشـب فيـه حرب! هـذا غير معقول أن تكـون حرب داخل حرب! هذه حروب مرتجلة..

ضحك لهذه التسـمية الظريفة. كان كأنه يواسـيني. اختلفت نظرته إلى الموضوع، اشعر بهذا الاختلاف بطريقة واضحة، بدا أنه غير مقتنع

(1) اختارتك هيئة التحرير أن تكون هناك لبعض الوقت. وسـائل الاتصال متوفرة بعد سقوط صدام. ابعث لنا ما تراه جديراً بإلفات الأنظار.. اكتب كعادتك في النادر في المكان والمفارق في الحروب.. كما كنت تفعل وأنت تجوب الغابات الاستوائية وجزر النساء وأرخبيلات الجمال في آسيا..

بتفريطي إلى مكان حربي مرتجل تقوده ميليشيات وعصابات وجيوش احتلال بمسميات مختلفة. المهمة مفاجئة لي، عكس أسفاري الماضيات التي جبتُ فيها شرق آسيا وغربها ورأيت من الحياة ما يزيدني إشراقاً والتماعاً في ما أفكر به من سرود مفتوحة على الحياة. ففي جعبتي رؤى وأفكار وصور وجمل ومعارف. **فالكتابة جزء من جمالي**.. هكذا تقول لي ميريام دائماً.

ربما أخذتني وقتها اضطرابات شتّى متخيلاً نفسي وسط النيران. لا أعرف بغداد إلا من خلال أبٍ هجرها منذ طفولته وأم غابت في ذاكرة طليقة ليست لي صلة بما حدث. تعددت أمهاتي لأب مزواج ومطلّق ومسافر. تعددت أمهاتي الهنديات والفلبينيات والمغربيات، فكنتُ أبتعد عن فساد الأمومة المكرر الذي أراه أمامي. هذا الأب الذي رسم لي تلك الصورة القبيحة هو من جعلني لا أرى الأم إلا بتلك الصور المتداخلة والانتماءات المختلفة والشهوات الفاسدة.

لم أفكر يوماً أني سأعود إلى مدينة كنت أسمع بها مهما تغيرت الحال والأحوال. أغرتني المدن الاستوائية المطيرة والحياة السلسة ونساء السياحة الفاتنات وشطآن البحار الزرقاء وشواخص العمران وآثار الماضي الثابتة مع العصور. كنت أحس أن العالم يقفز إلى السماء أينما وليتُ نظري وسيبني بيوته فوق الغيوم ويقيم شوارعه بين المجرّات.

كان بوحمد يكشف شرودي ويعرف أين أقف بمحطاتي. ضحكتُ بطريقة غريبة. هززتُ يدي ساخراً من النهاية. انتابني شعور بالعدم والتلاشي والانطفاء. فقدتُ شهيتي إلى الجلوس. مستسلماً بعد رحلة خمسة عشر عاماً بين ممرات الجمال الآسيوي في صورهِ المتحضرة والمبتكرة.. سأكون رقماً غبياً في مكان فقدت الشهية إليه وأكون رقماً تائهاً بين ملايين المحبطين في عاصمة مستباحة استهوتها لعبة الحروب حتى باتت جزءاً من شخصيتها. قلتُ أشياء وكأنني أعرف بغداد وما

يجري فيها. وكنت أنظر، خلفه، إلى مجسم البرج الفاخر الذي يتقادم العمل فيه.كأني لا أراه بعد اليوم.

نظر لي بوحمد وأضاف بجدية أكبر:

- لعلك تتذكر لقطة "كيفن كارتر" الشهيرة التي هزت العالم. انتحر كارتر بعدها لأنه لم يستوعب إهانة الجسد البشري على النحو الذي رآه في مجاعة واحدة من مجاعات السودان. أحزن البشرية يومها لمرأى النسر الذي ينتظر موت طفل جائع، لكنه وحده من أدرك أسرار الجسد المتضور جوعاً وهو يصوره.. أنت تفهمني كثيرا لأني أفهمك كثيرا.. الحروب بشعة وأجساد العراقيين المعرضة للانتهاك قد تطمرها الأحداث ما لم توثق لتكشف بشاعة المحتل..كما وثق العالم انتهاكه في سجن أبو غريب سيئ الصيت.. لعلك لا تنسى تلك الفضيحة التي أهانوا فيها أجساد مواطنيك العزّل..!

صرّ على أسنانه متفاعلاً مع نفسه بصدقية عالية:

- أطوار بهجت تلك الشابة الجميلة كيف ثقبوا جسدها النظيف قبل أيام قليلة فقط..

يقسو الرجل عليّ بطريقة ما. يستفزني على الأرجح:

- أعرف أنك لا تعرف بغداد. لم ترها. تسمع بها فقط. ولولا الاحتلال وتداعياته لما كنت تعرف بغداد.. أبوك مهاجر لا يستقر. وهذه فرصتك أن تعيد الأب إلى حاضنته. سببٌ ما قد يكون عاديا وساذجاً وقد يكون خطيراً هدد حياته منذ 50 عاماً لكنه طار مع الطيور ولم ينزل حتى اليوم. كبر الرجل وتعب، ليس غريباً أنّ الأبناء يأخذون أدوار آبائهم الأحياء.

يدغدغ بوحمد عواطفي من جديد. يغيّر الحديث والفحوى والهدف:

- لدينا أرشيف نعتد به من المراسلات حول مقالكم عن "النهد"

بوصفه نقطة التقاء السماء بالأرض! كيف حدث أيها الشاب أن تنسى إثاراتك الكثيرة في مجلة لها موقع في قلوب العرب[1].

---

(1) حثني على التذكر فتذكرت عاصفة الأسئلة التي أغرقتني بها السيدات المحتشمات والصبايا المراهقات. قبل أن أتذكر الصبية الفليبينية التي منحتني فرصة هذا الكشف الجسدي الذي لم أفكر به لولا الرمال البيضاء في جزيرة "بوراكي" وحينما وصفتني إحدى القارئات بكاتب الجسد رفضت هذا التضييق على حريتي في الكتابة؛ وعندما حوصرت بالشتائم من بعض المتطرفات الإسلاميات كان علي أن أقصّ بجرأة قصة النهد الفلبيني الذي قادني إلى الاستطلاع في جزء حساس من جسد المرأة بالتجربة الحية الواقعية المثيرة.

لم أوجدْ مفاجأة كبيرة حينما كتبت عن منطقة حاسمة في جسد المرأة. تقصدت أن لا أقولَ الثدي كي أخلّصه من تبعات الأمومة التي لا أجيدها وأبقيه بكراً كما ولد. حدث ذلك في جزيرة بوراكي في المحيط الهادي. كنت أعبئ قارورة من رمال الجزيرة الشهيرة ببياضها كعادة السياح الذين تستهويهم غرائب الأمكنة. وذهني شارد لأمر لا أتذكره. حينما حطت إلى جانبي صبية فليبينية تقترح أن تكتب اسمي مجسماً ببياض الرمل من داخل القارورة وعلى الرمل الأبيض ذاته. استهوتني اللعبة كما استهواني جسد الصبية اليافعة، لا سيما صدرها العامر والمتضامن مع جسدها البض. ليلتها والصبية مستغرقة في نوم عميق إلى جانبي تساءلتُ: هل نهود النساء تتشابه في العالم أم أنها كالبصمة في الإبهام؟ ألكل نهد مزاجه وشكله ولونه وشبقه وعطاؤه وفرحه وألمه؟

قادتني المصادر إلى النهد بوصفه مرجعية جمالية إيروتيكية أنثوية يتغير شكله مع الدورة الهرمونية الشهرية وهو فريد في تكوينه ولا يشبه أي نهد آخر، كالبصمة في إبهام اليد. وعندما قرأت أن الفراعنة هم أول من أوجد قياسات المثلث الذهبي لمعرفة شكل النهد بالنظر إلى المسافة بين الحلمتين أجهدني ذلك كثيراً وصرف مني أوقاتاً طويلة، كانت فيها ميريام غير مصدقة أن الوزن المثالي لنهد المرأة هو بين 150 – 400 غرام وان النهود الهاطلة إنما هي بفعل الجاذبية الأرضية لا بفعل تقدم العمر؛ وعندما أسميته بـ نقطة التقاء الأرض بالسماء اجتهدتُ أن أخرجَ هذا الكائن العظيم من ماديته إلى نقائه السماوي ورعشته الأزلية، بوصفه منطقة تماس ايروتيكي تكهرب الجسد وتقوده إلى الجمال والخطيئة معاً. عرفت أن "ابن عرب" عدّ القبة سرمداً والنهد روح ذلك السرمد. وصلت إلى أن: النهد هو روح المرأة. وهو ما جعلني في مرمى سهام المنقبات والمتطرفين الملتحين، فالروح لا تُختصر بهذا العنصر وأني أهرف بما لا أعرف.

جرّ أنفاسه منتظراً أن أقول شيئاً. لكني احتميت بالصمت والهواجس التي افترست رأسي.. وكانت أنظاري تتجول في أرجاء غرفته المزينة بخرائط وصور لمشاريع عمرانية في عولمة دبي الخيالية..

خمّن ما يجب تخمينه عني. نظرت إليه نظرة خاصة فهمها بالتأكيد، كأنما كانت نظرة أخيرة بيني وبينه. كان متفائلاً أكثر مني، كنت متشائماً إلى حد ما.. في حين كانت المجسمات العمرانية خلفه تتألّق بوضوح.

الغريب.. أعمى

دخلتْ لورا بشكل مفاجئ وهي تحمل بيدها اللابتوب الصغير كمن تحمل صينية صغيرة. وبيدها الأخرى علبة بيرة خضراء. كان قميصها مفتوحاً وشعرها الأشقر مسترسلاً.

- **هاي..**

سبقها عطرها الليلي النفاذ:

- **نحتاج فيه إلى جرأة كبيرة كي نتمكن من فهم العالم.**

قلت قبل أن تجلس:

- **أشعر بالضياع.. شيء ما يشدني إلى بغداد، لكن هذا ليس مكاني!**

شكلها المتغير من مراسلة حربية إلى أنثى شقراء يجعلني أديم النظر إليها:

- **الحب يُشعل قلبكَ يا صديقي.**

تضحك وفمها يلتهم سيجارة رفيعة. أقول لها:

- **الحرب هزيمة مجتمع وفشل منظومة تاريخية كاملة. أما الحب فهو فشل فردي في أسوأ حالاته.**

جلست وصدرها يختض أمامي:

- **ولكن المجتمعات ضعيفة أمام جنرالاتها المجانين.**
- **ليس هذا تبريراً كافياً.**
- **وماذا تقترح أنتَ؟**

- كان يمكن للسيناريو أن يتغير كثيراً. كي لا يشعر المجتمع أنه هُزم وكي لا تضاف إلى تاريخه لطخة سوداء بالاحتلال.

تقول بإصرار:

- لكن الشعب كان يصفق لمحتليه! كلنا شهود..

أقول بتسليم:

- أظنه كان يصفق للخلاص.. لم ينتبه أول الأمر إلى فجيعته، ولم يستطع تداركها فيما بعد، فكان الذي كان.

شاشة اللابتوب تضيء وجهها المضرج بالخمرة والعطر. غير أنها ضجرت منه وتركته في حضني كوليد نائم. مشت إلى شباك الغرفة المطل على نهر دجلة تتنشق هواء رطباً وهي تدندن بأغنية شاكيرا Whenever, Wherever. في حين كان الضوء الخافت يرسم على جسدها فتنة الليل الغائبة.

أغلقت الشباك. كانت تحتضن جسدها بيديها تتقي برداً يدلف من شباك الغرفة. ترنحت قدماها وجلست أمامي.

قلت لها:

- الحروب ليست من شأني، لكن أمراً ما جعلني أقبل بهذه المغامرة.

رفعت رأسها ترتشف من علبة البيرة رشفة صغيرة فائتلق عنقها البض لحظات:

- الذي قادك إلى هنا سيرسم لك خريطة طريق تجد فيها كل شيء.

هرستُ رأسي:

- ليس الأمر بالسهولة هذه.. أحياناً نحب شيئاً لا نراه.. هل يحدث لكِ هذا؟

- يحدث.. الأمر يتوقف على قدسية ذلك الشيء وخصوصيته.

أصوات طلقات قريبة منفردة ستكون معتادة لي حتى نهاية هذا النص.

تداعبني لورا:

- كلنا نفتقد ما ابتعدنا عنه. الفقدان جزء من الغياب الذي اعتدناه.. البيت ورائحة المطبخ وسنادين الزهور والثياب الحميمة..

أتساءل بطريقة ساذجة:

- وما الذي جاء بنا إلى هنا!

تقترب مني لورا:

- الحرب. نحن جزء من ضمير إنساني لا يعرف ماذا يحصل في هذه البقعة من العالم.

أعود بالتساؤل ذاته. بالطريقة ذاتها:

- وماذا سيكسب العالم في نهاية الأمر؟

بحثتْ عن علبة بيرة في ثلاجة الغرفة، لكنها لم تجد شيئاً. حجلت إلى غرفتها. وكانت عيناي تمسحان جسدها الأنيق.

فتحت بريدي الإلكتروني وكتبتُ رسالة إلى بوحمد[1].

(1) السيد رئيس التحرير:
ربما عبرت مرحلة القلق الأولى ووطنتُ نفسي على واقع الحال. والحال يا سيدي ليست على ما يرام. فكل شيء يمضي إلى الخراب. ولا تعجب إن قلت لك أن هناك من يريد أن يخرّب هذا الوطن قاصداً ويزرع فيه الحقد بين الناس. ليست القضية سنّة وشيعة، فهذا إطار عام تجري فيه المؤامرة على قدم وساق، والناس البسطاء تدفع الثمن القاسي. حينما تستتب الأمور سأكتب لكم شيئاً من هذا. محاصرون في الفندق والقوات الأميركية تملأ شوارع بغداد. اشتقت إلى دبي. الحياة عندكم جنّة فلا تفرطوا بجنة الله يا بوحمد..

عادت لورا تحمل كيساً بلاستيكياً متخماً بالبيرة الهنكن. وكنت أكتب رسالة إلى ميريام[1] بشكل سريع.

تقول لورا أنها تشعر بالملل من أصدقائها. الوجوه ذاتها لم تتغير من شهور طويلة. والكلام ذاته عن الشيعة والسنّة والزرقاوي وساحة الفردوس والحرب والقذارات والأحزاب وإيران والعمائم.. لكنها تنسى هذا وتروي لحظة إسقاط تمثال صدام في ساحة الفردوس: كانت لحظة تاريخية غريبة فعلاً. انهيار الجبل يسبقه رعدٌ وزلزال. كان المشهد مؤثراً فعلاً بالرغم من ارتجاليته. وقتها التقط زوم عدستي رجلاً ستينياً، كان ينزوي على حائط جامع قريب من ساحة الفردوس. كان يرى جنود المارينز يلفون رأس صدام بالعلم الأميركي، وكان الرجل يتألم ويبكي عكس الناس المتجمهرين الذي كانوا يرقصون فرحاً في الساحة.. عندها قررت الوصول إليه مسرعة لأعرف سبب بكائه.. قال الرجل والدمع يملأ وجهه: **أبكي لخديعة طويلة أكلت من أعمارنا**.. وكان ينظر بعينين مذهولتين إلى التمثال وهو يتهاوى..

---

(1) ميريام:

يحدث هذا في المساء عادة:

بغداد تبكي بصوت لا تسمعه إلا الملائكة. فتغذيها السماء بالمطر والصبر.

يحدث هذا في المساء عادة:

أن أكون عائداً من مكان ما فألتقي بمتسولي الفندق، وهؤلاء فقراء الحروب، أحدهم كان يثير ريبتي. ظننته يمثل دور الأعمى. لكنه أعمى. تقوده صبية شعثاء الشعر. روى لي فجائع لا حصر لها وقعت في مدينتهم.

ميريام: مرة حكيت لك عن حلم بأعمى يقودني إلى مكان قفر وبعيد! أتذكرين؟

يحدث هذا في المساء عادة:

أكون مع شلة المراسلين الأجانب.

يحدث هذا في المساء عادة: أن تقدم لي لورا المراسلة الجريئة بعض زجاجات البيرة وتمنحني وقتاً جيداً كي أكتب لك من حاسبتها الصغيرة.

يحدث هذا في المساء عادة: أن تكون ميريام أجمل امرأة في حياتي..

تقول لورا:

بعض البريطانيين ينظرون إليه كقائد عصامي ولا يعرفون خفايا وأسرار الرجل. البلدان الديموقراطية تعرف هذا النوع من الحكّام. مرضى يشعرون بالعظمة والغرور. الزمن يمر بيننا سريعاً في بغداد. الزمن أوصلني إلى حرب أهلية وهذا شيء مقزز لبلد تخلص من ديكتاتور..

تنعشني ميريام بقُبلة إلكترونية وفيض من الحب. ولورا دليلي إلى دروب الحرب الأهلية بتضاعيفها التي نراها كلما استطلعنا المدينة في محطاتها المجمرة. وبحّار تاجر جوّال اسمه أبي أكرمني برسالة إيميلية يدعوني فيها للرجوع عن وطن لم يعد لنا فيه شيء "**افتقدتك. عُد**".

بوحمد لم ينقطع عني بمراسلاته المتكررة ويذكرني بأصابع الآسيويات ونهد الفليبينية والدمعة المغولية لشاه جيهان "**يا أخي كيف قدرت أن تنحت موضوعا مثل هذا؟**" فيعيدني إلى أساطير الهند العظيمة وتحط أجنحتي على تاج محل. شاه جيهان عاشق مجنون. وممتاز محل امرأة خرقت قاعدة العشق بهذه الذكرى الفريدة." هل رأيت الدمعة الوحيدة بعينك؟" كل يوم تسقط دمعة وحيدة في الساعة الثانية عشرة ظهراً من سقف هذا الصرح. هي دمعة الملك العاشق. إعجاز في الحب المغولي. كل الهنود يدينون بالعرفان لممتاز محل وعاشقها الملك المجنون لأنهما صنعا الجمال الهندي ورسما خطوطه وبياناته حتى هذا اليوم.

تضحك لورا وتنفتح عيناها الملونتان وتتوعد بزيارة الدمعة الهندية. تنصت ميريام إلى هذه القصة العجيبة، وبوحمد يعاتبني لأنني لم أصور الدمعة الوحيدة الساقطة من السماء. **سأصور لك دموع بغداد يا بوحمد فهي غزيرة ولا تنقطع**، أما دمعة الهند الوحيدة فهي عصية على التصوير

يا سيدي. إنها دمعة السلام والحب الخالد. فليست كل الشعوب تعرف الحب مثلما عرفها الشعب الهندي عبر تاريخه المغولي.

يخبرني المراسل الكندي ديفيد أنه رأى صديقي الأسود يقدم ندوة في جامع أم القرى عن المقاومة العراقية وكان إلى جانبه حارث الضاري. ويخبرني مراسل الـ CNN أنه شاهد سيارات عسكرية يمتطيها أفراد من ميليشيات مجهولة وهي تختطف أجانب قرب ساحة الأندلس وقال إنه تمكن من تصوير الرتل بمصادفة. في حين تلتقط لورا خبر احتمالية الهجوم على فندق الشيراتون لاختطاف المراسلين الصحفيين. وميريام تحييني كل وقت كلما أفتح الحاسبة وتفتح شهيتي على مجهول الكتابة.

تأتي لورا بثياب النوم متأرقة. تفتح الحاسبة وتتركها:

- **ماذا لديك!**

- **يمر الوقت عليّ من دون أن أكتب شيئاً.**

- **وماذا وجدت حتى الآن؟**

- **بدأتُ أتآلف مع المدينة. خرجت عدداً من المرات لوحدي.**

فتحتْ علبة بيرة ورفعت عنقها الأبيض تحتسي بمتعة:

- **أنت غريب.. تدري!**

أشم رائحة جسدها المعطر.

- **يلفتني أعمى متسول في باب الفندق. تجرّه ابنته إلى كل مكان.**

- **هؤلاء يثيرون الشكوك.. لكنهم فقراء على أية حال.**

استدارت نحوي:

- **ألم يلفتك في بغداد غير هذا؟**

- **وقتها أخبرت ميريام أنني حلمتُ أن أعمى يقودني إلى مكان**

قفر وبعيد. قالت ميريام إن العمى في الحلم هو غنى.

الغبار الذي هاجم العاصمة منذ يومين ترك لورا حبيسة الفندق هذا اليوم. تغدينا معاً. حكينا عن أسفار صارت ذكريات وصوراً ومقالات. ضحكت كثيراً لمقالي عن الدعارة الإسلامية في شارع العرب بكوالالامبور عبر دكاكين المساج. ورحلتي الوحيدة إلى سور الصين عندما كتبت عن أسرار العيون الصينية المسحوبة ولم أكتب عن سورها العظيم الذي يراه رواد الفضاء من القمر. ضحكتْ لهذه المفارقة وزرعتُ في داخلها عظمة ذلك الأثر العملاق الذي يخترق العصور والدهور.

عرض عليّ خميس الأسود أعداداً من الجريدة التي يعمل بها. وصلته مع كويتيين دخلوا الفندق بملابس مدنية وبزهو ملحوظ، وكان هو برفقتهم مطاطئ الرأس. أحالني إلى صفحتين داخليتين ملونتين. كانت فيها جثث مرمية بين الأزقة لشباب ورجال. يتصدر الصور شاب يرتدي دشداشة سوداء منقسمٌ جسده إلى نصفين. يمكن رؤية بقع دماء تحت أجساد القتلى، وقد تفنن مُنفّذ الصفحة بجر لطخة الدماء إلى مساحات واسعة من الصفحتين بشكل منفّر ليوحي بدموية المكان.

قال خميس إن المشهد صُوّر صباح أمس في مدينة الثورة. حثني على قراءة تحقيقه الطويل مشيراً إلى مواقع مبرّزة. غير أني عينيّ زحفتا إلى هوامش التحقيق التعريفية التي التجأ إليها الأسود المثير.

قرأتُ[1] بعجالة ثم إلى هامش آخر مرت عيناي مسرعتين

---

(1) تشكلت دولة العرق الإسلامية من عدة تنظيمات أبرزها "مجلس شورى المجاهدين" و"تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين"، حيث كانت القاعدة قد بدأت عملها في العراق بعد التحرير تحت اسم "جماعة التوحيد والجهاد" بقيادة أبو مصعب الزرقاوي، وفي 2004 أعلن الزرقاوي مبايعته أسامة بن لادن زعيم القاعدة، وغيّر اسم جماعته إلى تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين، وبعد ذلك انضم التنظيم إلى مجلس شورى المجاهدين.

عليه[1].

تركتُ الصحيفة جانباً أتأمل هذه الجيوش السرية التي أحالت بغداد إلى مسلخ بشري وملعب من نار. على نحو سريع تأملتُ الأسود في رأسي. كانت لهجته العراقية خليطاً من لهجة كويتية أعرفها. انتبهت إلى ذلك الآن. قررت طرد صورته فنجحتْ ميريام أن تحتلها وقتاً قصيراً، غير أن مريام هربت مذعورة من مشهد الدم على الصفحتين فعدت إلى الصحيفة متأملا الأجساد المفتوحة بمشارط السكاكين والمثقبّة بالرصاص. قرأت مشاهدات الأسود في مدينة الصدر. وضعت خطوطاً تحت عبارات وجدتها غامضة أو غير مفهومة[2]. طويت الجريدة ودحستها في محفظتي.

(1) تشكل مجلس شورى المجاهدين في كانون أول 2006 بعد تجمع سبع جماعات جهادية، أبرزها "القاعدة في بلاد الرافدين، وجيش الطائفة المنصورة، وسرايا الجهاد الإسلامي، وكتائب الأهوال، وسرايا أنصار التوحيد، وسرايا الغرباء، وجيش أهل السنة والجماعة، وتم اختيار أبو عبد الله رشيد البغدادي رئيسا للمجلس، وهو عراقي الجنسية والهدف من إعلان البغدادي زعيمًا للمجلس هو إعطاء وجه عراقي لنشاط تنظيم القاعدة في العراق بعد أن تعرضت إلى انتقادات بخصوص ذلك."

(2) ".. وكان قتلى الشيعة في مدينة الصدر يفوق ما أعلنته وسائل الإعلام الأجنبية.. المقاومة العراقية تفشل خطة السيطرة على مدينة الأعظمية.. السنّة يتكاتفون ضد عملاء إيران الصفويين.. كنتُ في مدينة الشعلة قبل يومين وكان القتلى الشيعة مطمورين تحت خرائب البنايات.. قوات المارينز تحكم الخناق على مدينة الحرية من جهتها الشمالية.. المقاومة الباسلة في الأعظمية تقتل خمسة من أتباع رجل الدين الشيعي مقتدى الصدر..".

حروب مرتجلة

حتى القوقعة لها وطن تمشي به ويمشي بها

"من الرواية"

يجبرنـي الوقـت الثقيـل على الخروج. لـورا تصحبني بعجلة همر أميركية تخصصت بنقل المراسلين إلى شوارع بغداد المقفرة **"لنكن معاً"** وأكون معها في غمار الرصاص المتطافر من بنايات عالية وبيوت ودوائر هجرها موظفوها فتستحيل لقطة التصوير إلى معاناة كبيرة.

في هاتف الهمر اللاسـلكي يأتي خبر اختطاف صحفي محلي في مثلـث المـوت، ومعـارك في الأعظمية وتطهير في عمارات شـارع حيفا واغتيـال سياسـي لا أعرفـه. واختراقـات أمنية في جهاز الشـرطة ومقتل واختطاف عسكريين وقتال شوارع في مدينة الدورة.

لورا شجاعة "**أشتري الصورة بحياتي**" والصورة التي وقفت بسببها الهمر في شـارع عمر عبد العزيز لشـرطي يحترق. ينصهر جسـده كقطعة بلاسـتيك. مشـهد مفزع يحترق حياً. توترت كثيراً وهممت بالنزول من الهمر، لكنني تخاذلت مع القرار".

"وحوش" تتمتم لورا مذهولة كأنما ستتقيأ بعد قليل لكنها أفرطت بعدد اللقطات والشـرطي يتآكل أمام أنظار الأميركيين الذين لكزوا لورا ووبخوهـا، فالمنطقـة خطـرة والقناصـون لا يمكـن رؤيتهـم فـي تقاطع الشوارع والبنايات العالية.

أكثـر مـن مـرة جبـت بغـداد حـذراً. سـتبقى الصور الآسـيوية في

محفظتي إلى وقت غير معلوم. وصور البشاعة الجديدة لا تزيح صور المدن التي تمطر عطوراً استوائية. والذاكرة مثل الإناء تستقطب التالي من الأفكار والرؤى والمشاهد، لكنها لا تفصل الماضي عنها.

هل كنت أهرب من همر لورا أم من الرصاص المتطاير حولها؟ قززتني صورة الشرطي المحترق وأكلت من روحي أياماً، حتى لورا لم تستطع إسعاف ذاكرتي منها. فهربت من المشهد البشع إلى الناس. أحدد هدفي وأمضي؛ كلما كان هناك أناس يتجمعون كنت بينهم، كما لو أريد أن أعيد ذاكرة مفقودة سلبتها تجارة أبي وغربته الطويلة التي جاءت بي إلى ساحل خليجي وعمّقتها المدن البحرية التالية. أعتقد، وأنا في تجوالي الحر غير الضامن، أنني كنت أجرّب لساني وصوتي ولهجتي وثيابي وفصولي ومدينتي التي أعود إليها مكرهاً، كما لو أن القدر منحني فرصة أن أدوّن خرابها الأكيد وأكون شاهداً على زوالها.

في همر لورا تبدو شاشة المعارك أكثر وضوحاً في المدن المهجورة كأنه الغياب الحتمي. وفي شاشة الحياة اليومية حينما أمشيها راجلاً تتوضح صور البقاء المحتمل في عيون الناس المُجهدة بالسهر والأرق والخوف. ومن هناك، من المكان البديل لوطن معتل ومسلوخ، تطل ميريام كأنها قدر آخر يدلني على صلاة مفقودة ومحراب محتل.

في الأرض يستباح البشر والحجر والطير على نحو يثير الخوف من تآكل العاصمة الخاوية[1] وفي كل صباح تتبدل الأرقام ويتكاثر الموت مع تبدل الفصول التي يفترعها الغبار الأصفر، فقد كان هذا علامة من علامات اليأس الوطني الذي لمسته وأنا أمضي وقتي من

(1) نشرة حقوق الإنسان العالمية تقول إن الروح الوطنية أصابها الفساد فتحولت أرواح الناس إلى أرواح الشريرين والقتلة والماردين، متلبسة بوجوه العصابات والخاطفين واللصوص كأنما الخرافات السود التي يخشاها الناس ارتدت معطف العراق وجاءت مع قوات المارينز.

دون أن أكتب شيئاً لبوحمد غير الرسائل المعتادة. وفي كل لحظة تتبدل المصائر وتختفي رؤوس وتطل غيرها وتتضاءل قيم وتظهر طقوس وتترسخ أخلاق الشارع المنفلت في تضاعيف المدينة، وليس غريباً بعد اليوم أن أسمع خبر اختطاف الصحفي الكندي ديفيد وصديقته الأسترالية في شارع حيفا وسط بغداد، في حين نجت رندة وفريقها الصغير من إصابات متوقعة، ومن ثم مقتل خميس الأسود في باب الفندق. كنت أقلق كثيراً وأفكر بالعودة أكثر من مرة. ميريام تحثني على الخلاص حينما تقرأ رسائلي وهي تشم في سطورها رائحة الموت المؤجل. وبوحمد يتلقف رسائلي ويقرأ بين سطورها ما يريد أن يقرأه.

لم تبق لي إلا لورا في هذا الضجيج المخيف.كانت مفاجأة من العيار الثقيل أن يُقتل الأسود[1] في باب الفندق فور ترجله من الهمر. قتله المتسول الأعمى من مسدس كان يضعه تحت ملابس ابنته الشعثاء كما قال حرس الفندق. غير أن رقيباً أميركياً وسيماً يشبه امرأة نضجت قبل أوانها قال لي في اليوم التالي أنه كان يقصدني أنا لكنه أخطأ الهدف فنال من صديقك! لم اسأل عن السبب، فلا أسباب هنا. هنا نتائج متسلسلة إلى حد ذوبان الأسباب وتلاشيها مع الموت الممكن في كل دقيقة.

أتساءل:

- **كيف اشتبه الأعمى بي! ألم يفرق بين لونين؟**
- **لا تنس أنه أعمى!**

ضحكت بألم لهذه المفارقة.. **أعمى قاتل؟**

أقول لنفسي هذه واحدة من عجائب بغداد.. أعمى قاتل؟ لم أسمع

(1) يقول الأسود في موقع جريدته الكويتية أن ما لا يقل عن ثلاثين مسجداً سنياً تعرض للقصف والتخريب والتدمير، وتروي رويترز عن عدد مُقارِب من جوامع الشيعة بعد تدمير قباب الإمامين العسكريين.

بهذا من قبل! فعدت أسأله بسذاجة:

- **ولماذا أنا؟**

الرقيب الوسيم يدنو مني. يضع يده على كتفي ويقرّب أنفه من وجهي كما لو يريد تقبيلي:

- **ربما استفزه عطرك!**

يسألني ووجهه يتفتح:

- **ألم يكن الأسود صديقك؟**

يسألني أيضاً:

- **هل تعرفه.. أليس صديقك؟ هل له عنوان؟**

قلت:

- **عراقي مقيم في الكويت ويدّعي أنه كان في المعارضة.**

أبعد الوسيم وجهه عني:

- **إذن سيبقى في ثلاجة الموتى وقتاً سيطول عليه.**

وقبل أن ينصرف سألته:

- **والأعمى؟**

أشار بيده على أن الحرس المرابط في باب الفندق قتله على الفور.. ولم أشأ أن أسأل عن الشعثاء التي تلازمه الأوقات كلها.

ليلتها سألتني لورا وعطرها يستبق شفتيها:

- **لم تفعل شيئاً حتى الآن!**

كنتُ أنظر إلى كرز شفتيها الناعمتين ووجهها المتألق بالرغبة:

- **ليس هذا ضرورياً الآن ولا مستقبلاً.**

اخفت ابتسامة صغيرة كأنها التقطت شفرتي:

- **من المفيد أن نكون معاً.. ها!**

كان جسدها مسترسلاً على الوسادة الناعمة. وليل بغداد يغزل في

مساماتها رغبة صبية عشرينية تمضغ إصبعها الصغير وتتطلع إلى وجهي المحتقن ورائحة جسدها تعطر الحيز الصغير الذي يفصلني عنها:

- **لا تفكر بموتك. إنه أمر مضى. فكر بلحظتك.**

تركني الموت في لحظة سهو وخطف خميس الأسود. كانت لحظتي وردية في لحظة لورا الشقراء، كأنما مثل هذه اللحظات لا تأتي إلا بعد الخروج من قبضة الموت.

همست لورا وعيناها تنعسان وفمها يتلوى:

- **غداً ستكون معي في مكان لا يخطر على بالك أيها الشقي الجميل..**

لم أفكر كثيراً بالمكان. كنت أحتاج إلى أن أغلق الحيز المعطر بيننا كي أفتح روحي المغلقة بجسد لورا.

الأعمى ذلك الذي حدثتكِ عنه في حلمي.. كاد يقتلني يوم أمس..

لم يكن أعمى يا ميريام! كنت أنا الأعمى!

فاصلة المشرحة

بعـد الانفجـار الأول الـذي تردد صداه سـقطت قذيفة واحدة على محيـط الفنـدق. وعبـرت أخـرى إلى الجانب الآخر مـن نهر دجلة، إلى المنطقة الخضراء كما هو واضح من الاتجاه. كان فجراً رمادياً مرتبكاً. سحبت نفسي من الفراش وكانت لورا منكمشة على نفسها كطفلة تحت الغطاء. تكور الجسد الطويل تحت حاضنة بيضاء خفيفة.

رنّـت سـاعة هاتفهـا النقـال. خرج جسـدها المتماسـك من تحت الغطـاء متوهجـاً. ذهبـت إلـى الحمّـام وعادت أكثر إشـراقاً بوجه متفتح وشعر أشقر لفّته على عجالة وهي تقول: نخرج اليوم إلى مشرحة الطب العدلي. القناة تريد ريبورتاجاً عن جثث مجهولي الهوية المكدسة فيها.

كان صباحاً متعكراً. افترعته كآبة مضنية وإحسـاس بالعقم من أن دورة الحياة لا تجري بشكلها الطبيعي في هذه البقعة من العالم؛ فالحياة تتوقـف تمامـاً، وتعلـن موتها الفجائعـي وقطيعتها مع الجمال إلى الأبد. بدت المشرحة مسلخاً بشرياً من مسالخ الإعدامات الجماعية الكيفية. لا تذكرني بشيء محدد؛ غير أنها تذكرني بانطفاء العالم ومقتله في نزوات الجنرالات الحمقى الذين اجتاحوا تاريخ العالم بأساطيل الدماء وقاذفات الرعـب. المشـهد ذاتـه بصيغـة بدائيـة قـذرة توحـي بالهمجيـة والرعونة والارتجالية والأحقاد المدفونة والانفعالات الطفولية غير المحسوبة.

لـم تفـارق عينـاي الأمهـات المصعوقـات. كان البكاء فيهنّ يشـق صـدري وينتـزع روحـي ويحبس آخر أنفاسـي. كان الذباب ينتشـر على الوجوه وكانت رائحة غريبة تعفّر المكان.

رصاص قريب وبعيد وشواخص بشرية تتنادى في الهواتف النقالة

وجـو مرتبـك يوحـي بالانفلات والجنون الصبيانـي والغرابة التي تجمع الأهالي القادمين من جهتي النهر.

كانت لورا منفعلة، وكنت متبلد الإحساس. لم يحدث أن أكون في مـكانٍ كهـذا. انفصلـتُ عنـي وتبخر بي أملٌ صغير على حين غفلة قبل أن تسحبني لورا من مقام الموت الجماعي الطري.. الطري جداً. فهؤلاء قتلى اليـوم، وأولئـك قتلـى الأمس وفـي العنبر التالي قتلى الأسـبوع الماضي.. وهكذا يكتسب الموتى البغداديون درجات من الموت غريبة وفجائعية.

كآبة الصباح أورثتها لي لورا في هذا المكان الخائن[1].

(1) ميريام: عدنا من ثلاجة الموتى. كان كل شيء بشعاً. قتلى بلا هويات لكن القتل كان على الهوية! مفارقة مفزعة تجري في البلاد تحت أنظار الاحتلال. أجسـاد ممزقة لشـباب وفتيان ورجال. جثث ما يزال دم القتل يلطخ أجسـادها. خلطة بشـرية تثير الرهبة والخوف اضطررت إليها بوازع الفضول.
نسـاء فقدن أولادهن وضاقت عليهن بغداد كما تضيق الرقبة بحبل الإعدام. شـيء غريـب وجدتـه فـي المشـرحة. لا يوجد رجـال يراجعون قتلاهم. النسـاء فقط هنّ مَن يشـكلن طابور المراجعة لاسـتلام جثث آبائهن وأزواجهنّ، فالرجال مهددون بالقتل في هذا المكان. صبيان مستهترون ومراهقون لم تنبت شواربهم بعد يحملون الأسلحة ويراقبون بعيون شرسة كل من يتقرب إلى هذا المكان. يتخفون هنا وهناك للصيد على الهوية كما يقال هنا.
لـورا كانـت أشـجع منـي. أدخلتني إلى ثلاجة الموت والموتى بمسـاعدة المارينز. شـيء يبعث على القرف. غصت الثلاجات بالجثث. وما تبقى كان مطروحاً على الأرض. رائحة لا تطاق. دماء تنز من الجثث التي وصلت تواً.
كل شـيء غريـب هنـا وقـد خرج عن إنسـانية البشـرية التـي نعرفها. النسـاء خارج المشـرحة متشـابهات في السـواد والحزن والبكاء. يأتي مسـلحون بسـيارات دفع رباعيـة فيفرقـون النسـاء بطريقة قاسـية. الخـوف هو الموت بعينـه.. كثيرات منهنّ يذهبن بلا جثث أبنائهنّ. والقليلات المحظوظات يهربن مسرعات بجثث أولادهن وأزواجهنّ. أمكنني فرز النسـوة النائحات. فعرفت نسـاء الكرخ من نسـاء الرصافة. وفهمـت علـى نحـو بسـيط أي الجثث تخرج إلى ذويها وأيهـا التي تبقى إلى وقت غيـر معلـوم. ولا أعـرف مشـاوير هـذه الجثث في نهاية الأمر.. كل شـيء غريب يا ميريام.

فاصلة للوثيقة

ابلغني هاتف الغرفة أن هناك من ينتظرني في صالة الاستقبال. كان التوجس الفائض في داخلي يضع قناعاً ثقيلا على وجهي هو عكس روحي تماما، غير أن الخوف إحساسٌ بشري يقي أحياناً من تهور غير محسوب أو يدرأ خطراً في رحمه. كنت عائداً من ثلاجة الموتى بقلب مرتعد. لم أر جثثاً مهانة بحياتي كما كانت اليوم. مشهد متصل بالفجيعة العراقية إلى أقصى حد في الطب العدلي، فكتبت إلى ميريام شذرات سريعة ودفنت وجهي بيديّ قبل رنين الهاتف. وبكيت. لم أبكِ في حياتي أنا الفتى السعيد، عابرُ البحار، وجارُ الأقمار الآسيوية المنيرة والمقيم في جناتها السعيدة.. خرج من روحي فيضٌ من الألم في هذا الكابوس الوطني الذي لا أعرف كيف تحتمله الناس وكيف تصمت عليه.

كان وجه الفتاة التي تنتظرني يعكسني تماماً. وجهٌ متجهم أحاطت به كآبات العاصمة. وعينان قلقتان لا تستقران على حال في الصالة الكابية الألوان التي يتخاطف فيها مراسلون وصحفيون وطواقم الفندق وبعض جنود المارينز.

الفتاة ذات الحجاب الكحلي التي رأيتها في مرة سابقة كشفت شيئاً من هذا من ارتداد عينيها، لكنها كانت تمتلك شهادة حسن اللقاء بصبر طفولي وعينيّ أنثى سوداوين لا تخطؤهما عينا رجل.

نطق وجهها بمبسم مريح:

- آسفة إن كنتُ جئت بوقت غير مناسب. التنقل صعب في هذه الظروف.

فتحت ورقة مجعّدة وفرشتها أمام وجهي. التقطتها وقرأت مسرعاً.
كانت السطور تريني لوناً من ألوان السقوط السياسي والأخلاقي في مجتمعٍ كانت الانتهازية تفترسه والخداع المتبادل دالة على سوء الحال والأحوال فيه.

- من هذا؟ سألتها

- كان متنفذاً في العهد السابق.

مطّطت شفتي. كانت عيناها ثابتتين في وجهي. وكان وجهي ينتزع علامات التجهم المفترضة. أستطيع الآن أن أعيد لها ورقتها المجعدة، لكن الجميع هنا كانوا مستعدين لشرائها..

قلت لها بذهن صافٍ:

- تلك مرحلة وانتهت. ألا ترين أن الحياة الجديدة تستحق بداية جديدة؟

- هو الآن عضو بمجلس نواب وفي حزب إسلامي!

انتظرتْ وقع المعلومة عليّ. كنتُ ابتسم ونظري يقع في جمرة عينين تختلجان بالسواد والطفولة والأنوثة.

قالت بتصميم:

- افضحوهم.. هذا أحدهم. كان لا يمل من تصيّدهم والآن بينهم!

أعدت النظر في الورقة. قرأتها من جديد. ثم أودعتها في جيبي وأخرجت محفظتي لاستلال 100 دولار هو مبلغ جيد لورقة قد تضيع في بطون الأوراق أو يتلقفها المراسلون الأجانب وقد تنتهي صلاحيتها بعد وقت، حينها يكون هذا الحزبي قد تسلق أبنية المنطقة الخضراء وصار رئيساً للوزراء، وسيتعذر على هذه الفتاة أن تكون في وضع يسمح لها بالتشهير به وبيان حقيقته، هذا الذي لا أعرفه ولم يخطر اسمه على بالي.

- **ما جئت لأبيع بضاعة الفاسدين يا أخي**.. انتفضت كالعصفورة.
- **هذه هدية شخصية مني. تستطيعين شراء بعض الثياب.**
- **أتراني عارية؟؟**

لم أكن على قدر هذا الوضع المحرج الذي أوقعتني فيه الورقة المجعدة. كانت لورا شاطرة في التعامل مع الوثائق التي يأتي بها العراقيون إلى الفندق حينما نهبوا الدولة أثناء الاحتلال وتطايرت أشلاؤها إلى كل مكان. وكانت دولاراتها تتطاير هي أيضاً في جيوب المنتفعين.

نهضت فتاة الحجاب الصغيرة وقد تحولت عيناها إلى بركان من الغضب والخجل:

- **قبل فترة غير بعيدة واجهت مراسلة أجنبية وكنت أبحث عن أي مراسل عراقي لأودعه هذه الوثيقة، وبالرغم من فضولها الكبير إلا أنني لم أقل لها شيئاً، ولما يئست مني كتبتْ اسمك على ظهر الورقة.. تستطيع أن تصدقني الآن.**

حاولتُ محاصرة هذه المحجبة الصغيرة بالاعتذار، غير أنها غابت بسرعة كأنما أودعتني حملاً ثقيلاً ليس من مهمتي أن أحمله في هذا الشوط البغدادي الذي يفاجئني كل يوم.

في الغرفة قرأت اسمي على ظهر الورقة فعلاً. أظنها لورا أحالت الفتاة لي. لم تكن الورقة خطيرة بتصوري، غير أنها تكشف السلوك القذر لبعض المتنفذين آنذاك وتشي بلون الحياة المخيفة التي كانت سائدة. كنت أقول لنفسي: هل كان أبي على حق حينما هجر هذه البلاد! فربما هذه الورقة أوصلت الأسماء التي فيها إلى الموت في وقت ما، فلا خبرة لي في هذا الوطن الذي ولدت بعيداً عنه، وما سمعته عنه كان لا يثري ذاكرتي كثيراً ولا يتقدم الأوطان التي رأيتها، إلا أنه كان أمامي دائماً لهذا السبب أو ذاك، ربما لأن أبي حجبه عني ذات يوم فبقيت كطفل الغابة الذي يفتش عن مهدٍ ينام فيه.

سيف الزرقاوي

لا أفكر بشيء محدد وأنا اذرع شارع أبو نؤاس المحاذي لفندق الشيراتون في صباح جمعة ميت كبقية الأيام التي مرت. كنت أريد أن استعيد جزءاً من عناد المسافر في داخلي وقوته وهو يمضي إلى المجهول في مدن البحار والسواحل الشعرية.

رصاصة واحدة لا تعني شيئاً في جسد الضحية. تمر مثل غيرها في جلد النهار، وأنا أخطو في الشارع النؤاسي الذي اسمع عنه كثيراً، مستظلاً بأشجار اليوكالبتوس ومتدرجاً مع النهر.

نهرني عسكري أميركي يركب مدرعة ويصوب بندقيته الطويلة باتجاهي تحت شجرة يوكالبتوس. كان عليّ أن أتحول إلى الجانب الآخر من الشارع وامضي؛ غير أني وجدتها فرصة لي أن أعود أدراجي، فالعسكر متوحشون ويبثون الرعب في كل مكان يكونون فيه.

اتصلت لورا ودعتني أن أعود لأمر مهم كما قالت وأغلقت الهاتف. كنت قريباً من الفندق. دخلت من بابه الجانبي بعد تفتيش أقرفني. كنتُ أرى تجمع المراسلين والصحفيين والكاميرات في مكان محاصَر بهم. وكان مشهدهم كأنهم ذئاب تلتم على فريسة.

وجدت طريقي إليهم بعد تدافع بسيط. فكان المشهد أكبر من أن يوصف. سحبت نفسي إلى الوراء باحثاً عن لورا أو رندة. خرج الصحفي المصري عبدو مراسل القناة الروسية من الحلقة الضيقة متبدل الوجه.. **دي بشاعة.. مش معقول.. العراقيون سحرة!**

أمسكتني رندة من يدي وهي تقول بانفعال: **هذا لا يحصل إلا في أفلام الخيال العلمي!!** أدخلت رأسي بين الأكتاف. ثمة قامة مديدة

لرجل يرتدي بنطلوناً وقميصاً وحذاء. اللحظة كانت مفعمة بالتوتر، وثمة شـخص غيره يقف إلى جانبه يجيب على أسـئلة المراسـلين. كنت أنظر إلى قامة رجل يقف صامتاً ورجل آخر يجيب عنه.

ثمة شـيء حدث للرجل ذي القامة الصامتة. ثمة فراغ في الرجل شـدّني وحـوّل مجسـاتي إليـه. لم أنتبه إلى أن الرجـل الصامت ليس له رأس! الآن أتماسك قليلاً وأجد لنفسي فسحة انتباه لأعيد ترتيب رؤيتي. رجـل يقـف بطوله المديد. يحـرّك يديه ويتململ بوقوفه لكنه بلا رأس! ثمة مذيع من قناة إسلامية محلية ظل يكبّر بصوت ممجوج فملأ الفضاء بالصياح.

لا توجد على عيني غشاوة. نعم. رجل بلا رأس. الأميركان زادوا عدد المتجمعين على هذه الفرادة الشاخصة وهم ينظرون بطريقة أستطيع أن أرى فيها الخوف. نظاراتهم السود تخفي خوفهم. يتهامسون بوجل.

مراسل اسكتلندي يسألني عن حقيقة ما يرى ولا أعرف بم أجيبه. ولورا تحشد جسدها مع جسدي في الزحمة..

- **ما الذي يحدث لورا!**

- **رأسي سينفجر.. هذه حالة غريبة قد يكون فيها سحر عجيب..**

الرجل الذي يقف بمواجهة عيون الكاميرات المحتشـدة في حلقة ضيقة قال بتلعثم:

- **هذا أخي.. هو أكبر مني.. اختطفته القاعدة لمدة أسبوع.. هو لا يستطيع أن يتكلم كما تشاهدون.. رأسه مقطوع.. ذبحه الزرقاوي بنفسه، وألقاه اتباعه في النهر.. غير أن إرادة الله أكبر من الزرقاوي.. فعاد أخي بعد أن سبح النهر وترك رأسه عند جماعة الزرقاوي..!!**

كبّـر مراسـل القنـاة الإسـلامية وكان علينا؛ إجباريـاً أن نردد وراءه ما يقول.

صرخ أحد المراسلين وكان صوته يضخ كمية كبيرة من الفزع:

- **كيف عاد ورأسه مقطوع؟**

ببلاهة كان الأخ يجيب:

- **عاد إلى البيت بعد أن سبح النهر.. وكما تراه. تحدى سيوف الزرقاوي ولم يمت. يحب الحياة فلماذا يموت؟!**

القامة تتحرك بشكل طبيعي. تتمطى. ساقاها تلتويان. يدها اليمنى تدخل في جيب البنطال. تطقطق أصابعها. تضع يديها خلف ظهرها.. الأخ يشتم الزرقاوي والقاعدة.. هؤلاء ملحدون.. خارجون عن ملة الإسلام.. ولورا يتهدج صوتها: لا أصدق هذا لو ظلت هذه القامة سنة كاملة هنا!

انسحبت لورا وحلت رندة التي وضعت يدها على كتفي بقوة. أحس بارتجافاتها لهول المشهد العجيب.. تتمتم من دون وعي؛ **لا أصدق.. رجل بلا رأس؟ كيف سيعيش؟** وكأنما هناك من قرأ أفكارها فنط مراسل العربية متسائلاً: **قل لنا كيف سيعيش هذا الرجل بلا رأس.. بلا فم. بلا أنف.. بلا هواء. بلا طعام..!!**

مراسل قناة محلية شيعية كان يصيح.. اللهم صل على محمد وآل محمد.. هذه بركة آل البيت الأطهار.. اللهم صل على محمد وآل محمد.. فخلط الأسئلة ببعضها وأسكت المراسلين الذين يعرفون هذا النوع من الهتافات المنتشرة في كل مكان من العاصمة.

القامة واقفة تمسك يد أخيها المتحدث المتلعثم. والوجوه المنقبضة تعيد رسم المشهد الحاضر وتنظر له بأكثر من احتمال وتفسير لا يخلو من العجب والدهشة والشك.. الشك في تشكيل المشهد على هذا النحو الصاعق الذي خرق المكان بشكل غير متوقع وخرق براءة الطبيعة.

تجرأت ودنوت من القامة التي تتنفس. صوّرتها من اتجاهات مختلفة.. لا أشك لحظة بأنها رائحة رجل حقيقي.. أكاد أسمع أنفاسه!

بطن صغيرة تعلو بالشـهيق والزفير.. لا شـيء ينقصه سـوى الرأس. يد امـرأة مـرت علـى بنطلون وقميص مكويين وحذاء مصبوغ هذا الصباح. لورا تصيح هذا سحر ورندة عادت ثم هربت ثانية من المشهد. وأخٌ لا يدري ماذا يقول وهو يعرض أخاه الكبير في سوق المراسلين الحائرين في هذا المشهد الجبار.

مراسل إيراني جاء متأخراً وهو يسمع بالمعجزة، فأخذ يكبّر ويصلّي على الرسول بنغمته الأعجمية المألوفة ما إن رأى القامة الرشيقة تحرّك رجليها، فرصف آياتٍ قصيرات تذكّر بالعقاب الإلهي المخيف وتدعو إلى التوبة ومحاربة الاستكبار العالمي!

سـحبتني لورا وعيناها تكتظان بالأسـئلة.. لحقنا برندة التي كانت جالسـة تعيـد فيلـم الرجل مقطـوع الرأس في موبايلهـا ووجهها منطعج وعيناها شبه باكيتين وجسدها يرتعش..

نظرت إلينا بذهول كما لو تستفسر عن مصداقية الرجل ومعجزته الماثلـة.. تصيـح.. مستحيل.. لكنهـا تركض إلى الحلقـة وتتأمل حقيقة الرجل مقصوص الرأس والذي تمكن من الهرب وعبر النهر إلى بيته.

شبهة الوطن المحتل

المغـادَرة المفاجئـة للـورا جعلتنـي أعـزلَ عاريـاً. تركتْ حاسـبتها الصغيـرة وبعـض أغراضها فـي غرفتي مكتفية بحقيبة خاكية علقتها على ظهرها. وجدتني في الصالة فقبّلتني على عجل وتركت عطر الماكنتوش في فمي: **سأذهب شهراً إلى لندن وأعود. أتمنى لك السلامة. احذر من الرعاع.. ومن العميان.. ههههههههههههه.. باي.**

رفرفـت أصابعهـا تودعنـي أعقبتها بقُبلـة هوائية قبل أن تتوارى في سـيارة دفـع رباعـي كمـا يحدث في لحظات الفراق السـينمائية. لحظتها أصابنـي قلـق. كانـت نافـورة الفندق الوحيـدة متوقفة وأشـجار المطاط الغريبة تنحني تحت ثقل الشمس.

أعيد النظر بعشرات الصور التي تركتها في حاسبتها. موت تشكيلي بطريقة عبثية التقطتها عدسة لورا المجنونة. سوريالية مفتوحة على ضياع بشري يتفاقم. جثث تكشف خراب الحياة والمدينة عبر أمكنتها من بيوت وساحات وحدائق وشوارع. نساء ملبدات بالخوف والمجهول المضني يقفـن علـى الطرقـات بانتظار المجهول كأنهنّ يترقبـن عودة الجثث من مشـرحة الطـب العدلـي. صـور لمعممين سـمعتُ بهم وقـد تفننت لورا بزوماتها الرائعة أن تحصي حتى حبات النمش في وجوههم المنتفخة.

ترن عليّ ميريام في الشات[1].

---

(1) Buzz!!!

Buzz!!!

كيفك ميريام.

أنا بخير بالي عندك سلامتك.

بعد غياب لورا وجدت نفسي غائباً عن نفسي، وحتى ليالي ميريام في الشات لم تقدر على إعادتي إليّ. كانت فيها أنثاي الجميلة. أراها كما هي مزهرة بالجمال والأنوثة والصبا والانتظار. ربما هي تراني قريباً من أنفاسها لكنها أصبحت بعيدة. لا يفصلني خليجٌ عريض حسب؛ إنما تفصلني عنها ذاكرة تلتم بالتدريج وتتآخى مفرداتها بشكل تلقائي بالرغم من ظروف الخوف المتلاحقة. تريد أن تقع على بؤرتها في هذا الخضم من الأحداث السريعة. ألامسُ بحرَ النار عن قرب بلا غطاء يستر وجودي سوى الرقيب الوسيم الذي يتواجد مع مجموعته لحماية الفندق. وهو رقيب إشكالي كما سيأتي في النص.

البحار العتيق لديه الوقت الفائض ليكتب لي بالعودة، فالمدن المحترقة لا تصلح للسكن والعيش، **وحذار أن تجلب معك شبهة الوطن المحتل**.. هذا أبي الذي خالف كل قوانين الجاذبية وظل محلقاً في السماء، يعبر البحار والأنهار والمحيطات من دون أن يكل أو يتعب،

تحررت من الأصدقاء. أنا وحدي في بغداد. أشعر أن الجميع تركوني لسبب أو لآخر.

متى ترجع؟

مو عارف. شيء ما يشدني إلى المكان. بغداد التي ضيعها تاجر اسمه أبي أعود إليها.

أنا وحدي وتعبت من الانتظار. وشو بتعمل لوحدك؟

أشوف بغداد أريد أن أعرفها يا ميريام.

وشو الأخبار؟

تعيسة. الناس تقتل بعضها بضراوة. جيوش وعصابات وجواسيس وثارات وأحزاب وشرطة وعسكر وزرقاوي وأميركان ومرتزقة بلاكووتر. شيء ما تصدقينه.

احك لي عنك. ولا تنس مشروع الرواية؟

Buzz!!!

Buzz!!!

أريد أن أراك.. مشتاقة لك. افتح لي الكام..

ولعلني ورثت منه هذه العادة ولكن..!

الرقيب الوسيم سألني أمس عن وجهتي. كان وجهه محفوفاً وعيناه تبرقان ببريق القطط الصغيرة. قلت له أرى بغداد. ضحك وربت على كتفي وحذرني من الرصاص واللصوص والخاطفين. كنت أرتدي بنطلون جينز أزرق وقميصا عريضا، فالجو تغير وكفت أمطار الغبار عن الهطول من أيام. قبلها زارني إلى غرفتي يتفقدني وحمل معه أحد الجنود كرتونة بيرة فوستر هدية بلا مناسبة.

الكف وما بعدها

انفجار أول. انفجار ثانٍ. انفجار ثالث. لحظات مزدحمة بالعصف والأصوات.

تعاقبت الانفجارات الثلاثة خلال أقل من ثلاث دقائق، فاهتز الفضاء وطارت طيور مذعورة من صفوف الأشجار في شارع السعدون تتفادى غيوم دخان أسود بدا ينبع من أمكنة غير بعيدة عن الفندق. ثم أوردت الأخبار العاجلة في شاشات التلفزيون نبأ احتجاز مجموعة كبيرة من الموظفين في إحدى الوزارات من قبل ميليشيات مسلحة ترتدي زي الشرطة المحلية.

كان المراسلون الأجانب والعرب يتخبطون في الفندق. بعضهم يخرج إلى باحة الفندق يجري اتصالات والبعض الآخر يرابط أمام الشاشات المبثوثة في الصالة يعيد قراءة الخبر العاجل ويحاول أن يتخيل المكان وشكل الحادث.

خرجت الهمرات الأميركية من باحة الفندق بشكل طابور. أخذتُ طريقي إلى شارع السعدون متقصياً أثر الدخان المتبدد في السماء، مؤثراً السير السريع بين المحال المقفلة، فالشارع لا يوحي بالحياة إلا من رجال يحثون الخطى وشباب يركضون إلى مواقع الانفجارات ونساء مددن رؤوسهن من الشقق المواربة للشارع العام. في حين كانت سيارات الإسعاف تتقادم لاهثة بزعيقها الذي يعقب الكوارث عادة، تتسابق معها سيارات الشرطة الطويلة.

كلما أقترِبُ من تجمعات الناس ازداد ثقة بالحياة وكلما أرى بشراً في العاصمة ينتشلني شعور ما من أن بغداد ليست ميتة كلياً، ففيها روح

خائفة تتوارى خلف الشارع العام، بين الشقق والبيوت.

في موقع أحد الانفجارات احتشد السعدونيون لانتشال اكثر من جثة وأكثر من مصاب في جو جنائزي فوضوي تمكنت، خائفاً، من تصوير أجزاء منه بكاميرتي الصغيرة التي أدحسها عادة في جيبي.

قال شاب صغير أن انتحارياً فجّر نفسه في مدخل محل يبيع الكحول سراً من فتحة جانبية لا تقع العين عليها. كانت الفوضى تعم المكان وبقع الدماء تنتشر والأجساد البشرية موزعة في مدخل المحل الذي ما تزال تسيل منه سوائل البيرة والعرق وتختلط بدم القتلى والجرحى، فتشيع في الجو رائحة غريبة كأنها رائحة فأر فاسد.

كنت أحدق في وجوه الناس من زاوية غريب لم يطأ المدينة من قبل. كانت أعدادهم تتزايد. كما لو أن رائحة أخرجتهم من البيوت ومخابئ المحال التي لا أعرفها. بدت الأزقة الخلفية أكثر حياة وحركة وهو ما جعلني أخطو إليها بتوجس أول الأمر، لكنني متضامن مع نفسي من جديد، متأملاً خرائط الأسى المرتسم على كل شيء يمكن لعيني أن تراه وقد دخلت بمجموعها دائرة ألم واحدة ليس من الصعب كشفها، لا سيما وجوه الناس المحتبسة.

ثمة سقيفة من الچينكو خرجت مائلة من محل مغلق في دربونة متآكلة الجدران والبيوت لتشكل مشهد مطعم بائساً. جلستُ على تنكة من بين تنكات عشوائية توزعت كيفما اتفق. يشغل بعضها ثلاثة رجال يكتنفهم الرعب الماثل في عيونهم وهم يعيدون حكاية الانتحاري الذي كان قبل نصف ساعة جالساً على هذه التنكة التي اجلس عليها وكان يشرب شايه بهدوء وكان أحد الرجال يشير إلي! قائلاً **إنه فتى لا يلفت الأنظار إليه.. عرفته غريباً لكن صغر سنه خدعني**.. كان الرجل مستاء كأنما فلت من يديه حرامي استغفله في لحظة خاطفة. لحظتها أحسست بريقي يجف مثل الذي يجد نفسه وحيداً في مفترق الطرق

وأمامه نهايات ليست سعيدة.

أدمتُ النظر إلى تمثال نحاسي صغير لرجل نحيف يضع سدارة بغدادية على رأسه. يقع بعد فتحة الزقاق باتجاه الشارع العام. لم أثر انتباه الرجال لجهلي بصاحب التمثال، فقمعت رغبتي بالسؤال عنه. ربما غمرتني لحظة كراهية على التاريخ، فالتاريخ على أشكاله محض أساطير وحكايات وكتب وشواهد قد لا تسعف وجودي الآن وأنا في قلب تاريخ تكتبه حرب أهلية ومجاميع إرهابية تجعل من الموت علامتها الوحيدة إلى الحياة. وسأكون ربما من بين المدونين الذين يقصون قصص الفناء والزوال بطريقة ليست متوازنة مع واقع الحال، تخلو من الحكمة كثيراً، فتاريخ المدينة هذه اللحظة التي أكونها محاصر بالغربة والضياع، والتاريخ يتمادى في تشظيه حينما يكون جسد بغداد مسفوحاً في كل الجهات، والرواة متعددو الأهواء والمشارب والأمزجة والولاءات. والوقائع تتصادى هنا وهناك لتزيد المدينة خواء وعزلة تحت تاريخ يكتبه الرصاص والانفجارات والهمرات الأميركية.

طلبتُ صحنَ مخلمة وشاياً لأبدد شرودي واحشر التاريخ في طياته البعيدة. زحفت بتنكتي إلى حائط المحل، قريباً من الرجال الذين يعيدون الحكاية بطرائق مختلفة يشوبها الخيال مرة والمبالغة مرة ثانية. وكان عليّ أن اصرف وقتاً طويلاً كي لا أكون في موضع الشك حينما أغادر المكان. شربت شاياً ثانياً وتناولت جريدة اسمها "الأيام" كانت مرمية بين أقدام الرجال. لم أستطع القراءة فقد كان ذهني مشغولاً في كيفية الإفلات من هذا الكمين الذي وضعت فيه نفسي.

الصورة التي بعثتها لك يا بوحمد لرجال ثلاثة يوم أمس هم من كنت أتردد على مجلسهم، فهؤلاء يشعرونني بالأمان النسبي، وهي عادتي التي ألجأ إليها دائماً في أي مكان غريب أكون فيه: أن أقترب من رجال أكبر مني سناً وأصوّر معهم لذكرى لا تتكرر.. الرجل الأول على

يمين الصورة سيختفي من بيته من دون أن يترك أثراً له بعد أسبوع من حادث محل الخمور ولا تسألني كيف. ورجل الشمال ذو الغترة المرقطة سيقضى بانفجار في سوق الشورجة بعد يومين من اختفاء الرجل الأول، والرجل الوسطي الأفتى منهم ظل دليلي في مدينة لا تفتأ أن تنتحر كل ساعة، لكنها مضطرة للاستيقاظ كي لا يمر الكثير من اللصوص بين بيوتها.. هذا ما حدثني به الرجل الأفتى من صاحبيه الذين بقيا في الصورة وهي لديك، لكنهما غادرا الواقع كلاً على الطريقة التي غادره بها، لأكون من جديد في زحمة الأيام المتوالية المستسلمة لشعارات تؤرق الناس وتكتب مقامات موت يدور بين البيوت والشوارع، فيترك كوابيس لجيوش سود معتمة تحتشد في كل مكان وتؤسس لفقدان جديد في كل لحظة.

كانت فرصة مواتية لي كي أكف عن تناول المخلمة الغاطسة في الدهون السوداء وأفتعل الدهشة ناهضاً من مكاني، حينما جاء صبيان الدربونة بكف صغيرة مقطوعة تتدلى من نهاياتها أوردة وشرايين ممصوصة كخيوط ودماء تنقّط على يد صبي حاول كبت ذعره من هذا الكائن المفصول عن جسده.

بلغت الفوضى درجة من الهستيريا بين الجميع، وجلبت كف الانتحاري المقطوعة العديد من الرجال والنساء والصبيان الذين وجدوها فرصة لإشاعة الصخب في الدربونة المتآكلة. تنقلت الكف المدماة من يد إلى يد، ومن حضن إلى حضن. فكانت تترك آثارها الحمراء أينما تنقلت. حتى استقرت على تنكتي التي كنت أجلس عليها فبدت مثل حيوان غريب استسلم لقدره. وأخذت تفشّ مثل النفاخة المثقوبة وهي تدفع ما تبقى من دماء فيها عبر الحزوز المفتوحة في نهايتها. وكان الصبيان والشباب يتسابقون في تصويرها عبر موبايلاتهم المطقطقة.

هدأت الكف على تنكتي إلى جانب صحن المخلمة كسلحفاة

صغيرة محاصرة بالعيون المبهوتة التي تراقبها باشمئزاز. كانت أصابعها تنكمش وتلتوي وتهمد كسحالي ميتة. بدت وهي تموت تلقائياً ترسم آخر خريطة دماء. عندها أمكنني وأنا أمد رأسي من بين الأكتاف المتراصة أن أدوّن، بصورة سريعة، مشهد التجاعيد لكف صغيرة تنحسر ورؤوس أصابعها تتجه إلى صحن المخلمة.

هربت إلى شارع أبو نؤاس الصامت متخلصاً من فوضى الكف المقطوعة وفي رأسي أستعيد مهارات ساحر هندي بارع في "لاجبت نكر"[1].

بوحمد أيها الشاعر المتقاطر بالكلمات، تأمل الصورة الوحيدة جيداً التي التقطتها لك من بين الأكتاف المرصوفة. تلك الكف المحاطة بالصبيان المنتصرين عليها لحظة بشرية فلتت من جسدها في لحظة غادرة حينما كبست زر موت لا تعيه. قبلها ربما كانت تمشي وتحلم وتتأمل صباح بغداد قبل أن تتلاشى في خضم سكرات الاختناق. الكف التي تفجّر وتنفجر وتعدم الحياة هي ذاتها التي تزرع وتأكل وتخط التاريخ وتدوّن الحضارة كما قالها القاضي الأشبيلي ابن طفيل قبل ثمانية قرون كأنما ليؤرخ تاريخ الأصابع والكف معاً في رحلة الفلسفة الأندلسية.

(1) كان يقطع كفيه بريشة طاووس أمام الحاضرين في مسرح شعبي، ثم يعيدهما بسرعة البرق، وحدث أن طلبت إحدى السائحات الأستراليات أن تكون هي في موضع التجربة لشكوكها في هذه البهلوانيات المثيرة، وعندما امتثلت أمامه بشجاعة، وبعد طقوس غير مفهومة لم تستغرق طويلاً، قطع لها الساحر كفيها بريشة طاووس ورفعهما بين دهشة الحاضرين ودهشتها. بل تمادى اكثر من ذلك حينما وزع كفيها على أصدقائها المبهوتين. كنت أرى الكفين تتلاطمان بين بحر الجمهور وتتنقلان بين الأكف في حالة فزع. في حين كانت السائحة الأسترالية تركض وراء كفيها المقصوصين حتى صرخت مذعورة، عندها ساومها الساحر الطريف بدفع 100 دولار حالاً قبل أن يرجع لها كفيها الناعمتين. كانت لحظة ذعر طريفة أشاعت جواً من الضحك والكثير من الأسئلة حول شطارة ساحر لاجبت نكر.

هـذا الحيـوان التالـف المذبـوح علـى شاشـة حاسـبتك الأميركيـة اصطاده صبيان الدربونة السـعدونية. كان يحلق مع البارود ونار الخمرة السـابحة فـي فضـاء ملغـوم قبـل أن يسـقط على أحـد السـطوح القريبة ليكـون دليـلاً علـى موت البشـرية أينما تكن. خذني يا بوحمد على قدر كلماتي لو شئت، واقرأ معي ساحر "لاجبت نكر" لو شئت لترى الأكف المقطوعـة هنـا وهنـاك، فكفك يا بوحمد تضغط علـى الكلمات وتفجر ينابيعهـا المحبوسـة، وكـف ميريـام تبقينـي على قيد الحيـاة، وكف لورا تهدينـي إلـى الطـرق الآمنة. وكـف أبي تجمع المال والنسـاء في باخرة قبرصية عائدة من بيروت. وهذا الكف الذي تراه أشـاع ذعراً وموتاً في بقعـة صغيـرة مـن المدينـة، لكنها كافية أن تسـتولد الكوابيس وتزرع في الأرحام سرطانات وأجنّة مذعورة.. ليست الكف عمامة نخلعها ونلبسها حسـب الظـروف.. الكـف التـي تثـرد الثريـد وترصـف الحصـى وتزرع الحديقـة وتجمـع المطـر فـي باطنها هـي التي ورطوها فـي حفلة الذبح الإسـلامي تحـت وصايـة الهمـرات الأميركيـة، وكف الدربونـة المتآكلة كانت مخذولة على تنكة المخلمة ربما كانت يوماً تلثغ بأبجدية الحروف على سـكة السـطور العارية وتؤطر حياتها باللمس والاكتشـاف الفريد. ولأننـي أختفـي خلـف الصورة مرتعشـاً لـم تتضح لك العيـون المبحلقة والمفتوحـة على سـعتها منجذبة إلـى حيوان الكف الغريب؛ هذا الكائن الحي ذو المجسات الإصبعية، الراقي في مهرجان الجسد النبيل، يتحول إلى حيوان مرحاضي يتضاءل وينكمش وينحسر ليكتب واحدة من سير الموت المترادفة على المدينة التي كانت حية إلى حد ما بأنفاس الرجال القليلين والصبيان المتقاطعين هنا وهناك.

لـم يسـمح الجـو الصبيانـي الفوضوي أن ألتقط مزيـداً من الصور لكـف الانتحـاري الصغير الذي جلسـت علـى تنكته قبل أن يفجر محل الخمور، فيما كانت كفه المقطوعة ترقد على تنكتي في مفارقة مشبوهة

أشعرتني بالخوف. كما لو كنتُ معنياً بهذا الاشتباه غير المقصود. وهو ما جعلني أنقذ نفسي في لحظة سريعة كي أتخلص من عبء المصادفة الدموية التي وضعت نفسي فيها.

خذ الصورة كلها، بما فيها صحن المخلمة، وضعها غلافاً للمجلة فأنت الذي رهنتني لصور القبح التي اعترضتُ عليها، وهذه سيرة تكتبها كـف مـزورة ومـزررة بـأزرار المـوت واكتب تحتها ما تشـاء من قصائد بغداديـة تعيـد مـوت العاصمة للمرة السـابعة عشـرة فـي قصتها تاريخها الطويل.

من قال أن المدينة التي تسقط سبع عشرة مرة لا تستحق الحياة! أبي قال هذا حينما أفتح رغبتي أمامه بحلم بغداد الذي لا يفارقني، فقد شبعت من المدن الساحلية والطواف السهل في أرجائها. كان يرد وهو يحصـي دبابـات أبرامـز المتقاطرة التي دخلت من خاصرة مدينة النجف كمـا يراهـا مـن على شاشـة "الجزيـرة" يضحك طويـلاً حتى يغص من الضحـك، عندهـا يتوقـف عندما يرى جندي المارينز الشـاب وهو يرفع كفـه فـارداً إصبعيـن فيها كعلامة النصـر المؤزر ومن خلفه يرفرف العلم الأميركي الصغير، وحينما يسـتمع إلى المراسـل المتحمس بأن دبابات أبرامـز فـي طريقهـا إلى بغداد، يعاود أبي الضحك بهسـتيريا لا مثيل لها حتـى تتقطـع أنفاسـه فيصيـح: يا إلهـي... ثم يدير مؤشـر التلفزيون إلى قنـاة هنديـة تعرض آخر الخلاعات البوليودية لكارينا كابور في رقصاتها المثيرة... تعلّمْ الحياة من أبوابها المغلقة يا ولدي.. وكن كشبكة الصياد المفتوحة التي تغري الأسماك في كل لحظة ولكنها مغلقة..

يُلقـي أبـي حكمـة طائشـة لا أفهمها.. لا أفهم سـرائر هذا الرحالة الذي يجوب الآفاق مكتنزاً بالمال والبحار والأسفار والنساء والصفقات الآسـيوية.. فيتـرك دبابـات أبرامـز تتجه إلـى بغداد من طرفها الشـرقي، ويرقـص مـع كارينـا كابور رقصة الذئب الأمعط. ويدور في حلقة ضيقة

بجسـده المتين، ثم تتسـع كلما اتسـعت كارينا كابور على شاشة البلازما حتـى تـكاد تطيـر من خفتها. في حين يتلاشـى أبـي والكثير من قطرات العـرق تتقاطـر علـى وجهـه وعنقـه، فيناولني مؤشـر التلفزيـون مهمهماً بتخاذل وخفوت: **حينما يدخل المارينز إلى بغداد... لا تخبرني..!**

سرداب مايكل

تسلمت مسجاً هاتفياً من ميريام "أحبكَ".

الكلمة الوحيدة التي لا تستطيع مفارقتها كلما مر عليها الوقت الثقيل. وهي تحبني بطريقة مثالية أحسبها أكبر من عمرها. أقدر الآن أن أعرف أين هي وكيف مرت أصابعها على الحروف الأربعة وكيف ضغطت على زر الإرسال. تصلني هذه المسجات الشبحية على مدار اليوم حتى لو لم أرد عليها. إنها عاشقة تجيد اتكيت العشق فتكبر مع الكلمات واللغة الشاعرية بشكل يجعلني أعشقها طوال الوقت. إنها شابة مفتوحة القلب بلا عقد ولا منغصات.

كنتُ أحسب أنها ستمانع على هذا الإيفاد الحرج. لكنها لم تخفِ قلقها، فبغداد في نشرات الأخبار تكاد تنمسح من خريطة الحياة ودجلة يغص بجثث البغداديين. غير أنها رافقتني إلى المطار منذ الصباح الباكر الرطب مستسلمة، وفي عينيها عشق طفولي يتوهج، وغلالة دموع لم تسقط حتى اختفيتُ من أنظارها.

في دبي عرفتها وفي "الأشرفية" وجدتها إيقونة مسيحية بهرتني، ومع أسرتها كانت ليالي ونهارات بيروت أجمل أوقاتي. من أجلها زرعت قلبي بالأرز اللبناني ونشرتُ في شقتي وطنها في كل زاوية حتى لا تكون بعيدة عنه. لها سافرتُ كي أعود مضمخاً بعبق الأسفار التي تحبها ومن أجلها كتبتُ رواية حب وقرأت عشرات الحكايات التي يتمحور العشق في تلافيفها، وفي بغداد كنتُ ابحث عن وطن مفقود لأقول لها هذا وطني، كي أنشره مع وطنها على نشرة واحدة وكتاب واحد.

كانت لورا تغمز لي:

- لا تبق سائحاً وانس عشق الصبايا، فأنت في حرب الوطن.

وكانت تقول:

- المتطرفون يرون في الحب جريمة وكفراً.. امسح أغنيات العشق من هاتفك.. امسح صور ميريامك.. ارتدِ خوذتك.. حتى البنطلون الجينز كفرٌ وحرام لأنه من صنع الجن والشياطين ولا يوصِل إلى الجنة!

تماديت بوضع صورة ميريام على شاشة الموبايل الصغيرة. كانت في لباس البحر وكانت السماء زرقاء وصافية فوقها وجسدها يخترق الشاطئ بطوله الفارع. وكان للورا نكتتها اللاذعة:

- هؤلاء يعدّون حبّة الطماطم أنثى فلا يجوز وضعها إلى جانب حبة الخيار لأنهما قد يتزاوجان وقد ينجبان أطفالاً ليسوا إسلاميين.. هههههههههههههه!

نضحك في ليل مقرف ونعيد ترتيب الحكايات الآثمة التي مرت على المدينة، فلورا التي سبقتني إلى هنا بشهور طويلة حفظت لغة التطرف وتقاطعت مع قصص الإرهاب الذي يرتدي أزياء تتبدل يومياً؛ وميريام تترك لي رسالة على الماسنجر: كل يوم أصلي لك صلاة الإيمان باسم يسوع.

- لتصلي هذه العاشقة الصغيرة، فالصلاة إن لم تنفع لا تضر؛ تتمتم لورا بخفوت؛ **الصلاة ميزان النفس في مواجهة الخطر. والموتى لا أحداً يصلي لهم. دعها تفعل ذلك باسم يسوع الذي له المجد في العلى. أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك.**

أدرجتُ اسمي مع المراسلين الذين خُصصت لهم عجلة همر للتنقل في أحياء بغداد بناء على مقترح مايكل. كان يريد إرضائي لحاجة **في نفسه. كانت فكرته أن أضمن مشاهدات متكررة لوقائع قتالية ونتائج** مهمة على الأرض، وقبل هذا ضمان الرحلة الحرجة في متاهات بغداد

بين الرصاص وانفلاقات الشظايا ومفاجآت الانتحاريين غير المحسوبة دائماً.

وجدت ورقة صفراء ملفوفة على مفتاح غرفتي. كانت الصالة خالية من المراسلين في مثل هذا الوقت "**أستأذنك بالبقاء في غرفتك لفترة القيلولة. معي صديق عراقي. يمكنك البقاء إلى الساعة الرابعة عصراً.. شكراً.. صديقك مايكل**".

كانت ساعة الاستقبال تحتاج إلى خمس عشرة دقيقة كي تصل إلى الرابعة عصراً. عدت من واقعة الكف مصدوعاً ورأسي يمور بهذه القذارات. لم تبارحني صورة القامة الحية بلا رأس طيلة الأيام الماضية حتى جاءت صورة الكف المبتور، غير أن شيئاً ما ظل يشدني إلى نفسي ويهوّن وحشة الفراغ الذي أدور به. ساعدتني قدماي بالتجوال كل هذا الوقت في الشوارع الخلفية. وجدت ابو نواس شارعاً عظيماً بالأشجار التي تسقّف جانبيه في غابة متحركة، ودجلة الذي يمشي معه يضفي عليه وجوداً لا غنى عنه على ما يبدو.كل شيء سيبدو جميلاً لولا الهمرات الأميركية التي تقطع الشارع في كل مسافة قصيرة. وتبصم وجودها عبر فوهات البنادق المشرعة بوجوه الجميع.

ساءني تصرف هذا الرقيب الأرعن، ووجدت فيه فظاظة وإهانة وتطاولاً، عليّ أن أحسمه وأبصق في وجه ذلك العراقي الهجين. ذهبت إلى دورة المياه وعدت أدردم مع نفسي بحنق. خرجت إلى الهواء في باحة الفندق. أحصيت شجرات المطاط الطويلة[1] مرتين أو ثلاثاً وعدت إلى الصالة. ثم انفتح المصعد بالرقيب الوسيم وضيفه العراقي. وهو رجل ثلاثيني اسمر قصير القامة بدشداشة مفتوحة الزيق، تشف عن فانيلة بيضاء ارتديت هذا اليوم.

(1) مرة أخبرت بوحمد أن التايلانديين يصنعون الواقي الذكري من شجرة المطاط..!

هـش مايـكل بوجهـي وعانقنـي معتـذراً وكان يـرى اسـتيائي على وجهي، وكان الثلاثيني يقدم نفسـه لي ببلاهة: **أشـرف.. صديق الرقيب مايكل**.. وابتسامة عريضة تكشف أسنانه الصفر. ولوقته ترك لدي انطباعاً سـيئاً لسـبب مـا، لسـت الآن قادراً علـى تبريره. بدا وكأنـه أحد مقاولي الاحتـلال مـن أولئـك الذين جاءت بهم لصوصيات البنوك بعد سـقوط بغـداد؛ لكـن فـي مسـتقبل هـذا النص يمكـن لي أن أضع نقـاط الرجل على حروفه إذا خدمتني الحياة بالبقاء، واتسعت الرؤيا حتى لو ضاقت العبارة.

لـم يكن مايكل بالنسـبة لي غير طفل مغرور وشـاذ. توهم أنه أحد أبطال الاحتلال وأن الرئيس بوش سيعلق في رقبته شارة البطولة قريباً. أخبرتنـي رنـدة بذلـك مرة وهي تتحاشـى حتـى النظر إليـه. الأميركيون من نسـل الكاوبوي. ذوو ضمير متعفن. المجتمع الأميركي يعيش رعباً تاريخياً لأنه بلا جذور.

قال مايكل بطريقة الرشوة الأمنية:

ستكون في مأمن من العصابات والميليشيات الإسلامية. لديّ أوامر بالقتل المباشر ولا مفر من القتل كي يستتب الأمن..

في المسـاء زارني وشـرب علبة بيرة واحدة. وكلّم أشـرف بهاتفي بصعوبة اللغة التي لا يفهمها ذلك الحمار العراقي. سـاعدته أن أوصل له رسالته.. الليلة واجبات مختلفة في شارع السعدون وحماية الفندق، وغـداً فـي الظهيـرة يكون مايـكل قد فاق من نوم الصباح وهو في كامل نشاطه لاستقباله..!

- **قل له أحبك.**

أوصلت للرجل هذه الفكرة على مضض.

- **سـريتنا تحتل سـرداب الفندق بكامله لأنه محصّن.. والزيارات الشخصية ممنوعة لأغراض أمنية كما تعرف..**

تجاهل نظرتي إليه. وتصرف كرقيب له استحقاقاته الشخصية لكن بميوعة يمكن من خلالها استشفاف انفلاتاته النفسية والأخلاقية.

مـرة قالـت لـي لـورا: تجاهلهم قدر ما تسـتطيع بوصفـك عراقياً. مواطنوكم أخطأوا خطأ لا يُغتفر حينما صفقوا لهم في اجتياح بغداد..

أبرّر قدر ما أستطيع: عراقيو التصفيق كانوا مأخوذين بفكرة العدو المخلّـص. دخـول الأميركييـن إلى بغداد أمام أعينهـم صعق فيهم فكرة الدكتاتور المندحر كحقيقة لا تتبدل مطلقاً، ولا تنسي يا صديقتي ماكنة الإعلام الضخمة التي رافقت هذا الكابوس مقابل وضع اجتماعي محلي يـكاد يكـون منهـاراً بسـبب الطاغية. وبوش يقول إلـى العالم أن العراق سيصبح جوهرة الشرق الأوسط، والعالم يقلّب هذه الكذبة اللعينة يميناً وشمالاً ولم يقل أنها كذب. لم يقل له أنك حولت الجوهرة إلى بؤرة موت وفساد.

ترانـي لـورا محقـاً. ولورا تردد: هؤلاء غـزاة ومرتزقة. هنود حمر. ميتو القلوب.

أقول لها: لا أحفل بالسياسة كثيراً بل لا تهمني مطلقاً. اعترف لك أني لا أعرف بغداد ولا صدام ولا أعرف ما الذي حصل ولا أدري لماذا أبي سرق مني حلم انتمائي.. وما أقوله لك بدأت أعرفه الآن لأني هنا وأسمع منك ومن الناس.

تعترضني لورا بإصرار مباشر: أنت روائي والسياسة جزء من صلب العمل الأدبي، وهذا وطنك الغائب والمغيّب عنك وهؤلاء مرتزقة جاءوا ليسرقوا نفطكم ومستقبلكم..

يا لورا: الحب استغرقني مع ميريام طويلاً، فكانت رسـائل حب وكانـت روايـة لا أعـرف كيـف كتبتها؛ فعندما يشـعرك الغـرام بأنك في لحظـة تاريخيـة فريـدة لا تـترددي من تدوينها، ومن أسـفاري الآسـيوية شحنتْ ميريام قلبي وقلمي والتصقت بين أظافري كالحبر، فحينما يكون

العشق بهذه الدرجة العظيمة لا بد من الكتابة.

تضحك لورا ووجهها يتألق بالجمال.. ألم أقل لك أنت عاشق وسائح ولا تصلح للحروب!

أقول لها.. ها أنا في طريقي إلى عذاب الرواية الجديدة، عندها لن تكون ميريام هاجسي الكلي، إنما ستكون المدينة المغيّبة طَعمي وطُعمي في هذه المتاهة الدموية. لكن لا بد للحب وروزنامة السياحة أن يكونا في متن الرواية، فهما شفيعاي في هذا العذاب، هما سري.

فاصلة لورا (2)

كتبتْ لي لورا هذا اليوم[1].

يطاردني وجه الفتاة المحجبة. أعيد ترتيب اللقاء في ذهني. لا أعرف نوع التجهم وقد لبس شكلي قناعاً عريضاً على وجهي، غير أن لورا كانت توصيني بالحذر من الخاطفين والنصابين والمحتالين وحتى الفقراء المتسولين: كن صلباً فالبلد فقد جَماله والناس خرجت من محبسها المعتم ففوجئت بضوء الشمس الساطع.. الناس لا تتوازن في حالات كهذه..

قلت لنفسي: هل البشرية لا تتوازن حينما تعمها الأفراح حقاً؟

---

(1) From: Lora

To: Me

Cc:

Sub: From Notingham

Dat: 4.4.2006

هاي.

أكتب لك من بيتي في نوتنكهام. أشعر بأني نزعت جلد بغداد الثقيل عني. الحياة هنا جميلة بلا حروب ولا أحزمة ناسفة ولا مفخخات ولو أني اشتقتُ لها ههههههههههههههههههه..

لياليك ممتعة. سأتذكرك في كل شيء جميل هنا لأنك جميل. انزع عنك جلد السائح وعطر دبي وكن في بغدادك التي تبحث عنها. هذا وطنك وهذه حربك مع الإرهاب. سآتيك في الشات في بعض الليالي فكن هناك كي نكون على فراش إلكتروني بارد هههههههههههههههههههه.

قُبلة من ليزا.. كلبتي الصغيرة التي لا تفارقني ليلاً ونهاراً..

قبلة من نوتنكهام. من بيتي. ومن فراشي.

لورا

وهل تفقد بصيرتها وتبقى تتخبط؟ أم أن طباعها الوحشية تنفلت حينما لا تجد سلطة قادرة على ردعها؟

قرأت الوثيقة المجعدة عدداً من المرات.. ثمة رجل حزبي أودى بحياة ثمانية أشخاص على ما يبدو بطريقة الإعدام أو غيره. هذا خطه الذي حاول فيه أن تكون مساراته على الورقة البيضاء متوازية. وقد ذيّله بتوقيعه وكتب التاريخ أسفله. هو الآن عضو في مجلس النواب يمثل أحد الأحزاب الإسلامية. المعنى الذي أرادت إيصاله لي فتاة الحجاب واضح، وما ترتجيه وراء هذه الورقة حينما أودعتها عندي لا أراه ضرورياً، ربما طبعي المسالم أقنعني بتمزيقها، غير أن توصيات لورا الكثيرة جنبتني هذا التصرف الأحمق. قد تكون الوثيقة مزورة. قد تكون فخاً. قد تعود الفتاة لتأخذها في وقت لاحق. لم تبِعها لي. رفضت المائة دولار. قالت إنها لا تأخذ ثمناً عن فضح الفاسدين.

أنقذتني ميريام الحبيبة من هذه التداعيات السخيفة. بدت في صورة الشات أكثر رشاقة وجمالاً بثوبها الشفاف. وددت لو أحتضنها الآن. تكلمنا كثيراً وكان كل منا ينكفئ على فراشه الشخصي حتى وقت متأخر من الليل.

أخي الإصبع

طالب كلية الفنون الجميلة يذكرني بنفسه:

- أنا الذي أستطيع أن أمثل دور صدام في فيلم طوله 34 سنة..!

يضحك بهدوء كالواثق فيبدو تماماً أنه قدم نفسه كما يجب، كما في المرة الأولى التي نسيتها بطبيعة الحال، لكن يمكنني أيضاً استشفاف الألم ذاته في عينين تحيط بهما هالة سوداء.

كان عليّ أن أكسب أصدقاء بعد رحيل لورا، وأدخل في جوف بغداد من أي مكان أستطيعه.

- أما زلت مصراً على تمثيل ذلك الدور الطويل؟

يقترب مني بخجل ولمعة الألم لا يمكن إخفاؤها من عينيه السوداوين:

- لأنني عشت سنواته كلها وحفظته هو وحروبه عن ظهر قلبي فسيكون الدور في غاية السهولة والبساطة أيضاً.

- وبماذا تفكر الآن؟

- كنت أفكر بالهجرة..

- أتجد هذا حلاً؟

- هو الحل الوحيد المتاح لي ولغيري.

- أين تسكن في بغداد؟

- في قرية الأستاذ! مجيء "الأستاذ" غيّر فكرتي..

- لم أسمع بهذه القرية!

- ستراها إذا أحببت.. نشأت بعد الاحتلال!

تمشينا في حديقة الفندق. أحببت أن يتكلم كما يشاء ليحفف من احتقانه، ولأجرّب لغتي المهاجرة أكثر من ثلاثة عقود. فبعد رحيل لورا استعنت بذاكرة اللغة المطويّة في كتاب أغلقه أبي منذ سنوات متراكمة. أبـي تمسـك بكتـاب النسـيان أوقاتـاً طويلـة، غير أن حداثـة الاتصالات فتحت أبواب كتابه المغلق، فالتصقت المدن ببعضها على طرف لسـان كل مذيعة جميلة، وتقاربت الجهات وأزيحت ستائر الخداع بين الشرق والغرب، فذاك أبي الذي يناديني بالعودة حينما كان في تاج محل كفّ عـن الصـراخ الآن وهـو يمتطي حيتان المحيط الهادئ، وصار أباً يبحث عني عبر الفضاء وأنا ابن ابحث عن مسقط رأسه في ركام الحروب.

لغتي هي. لم تغيرها الجغرافيا كثيراً. أحاول ضبط إيقاعها قدر ما أستطيع، مستعيناً بذاكرة وحيدة بدأت تخضرّ مع مرور الأسابيع والشهور وتنضبط مخارجها ومداخلها بطريقة حية كما أعتقد.

قال الشاب المسرحي كمن يريد أن يردم الصمت القصير بيننا:

- **لا تبدو مرتاحاً كثيراً..**

كانت فرصة أن أتخلص من شد عصبي مع مايكل هذا اليوم. ربما كانت حاجتي اكبر من هذا التفصيل. شيء مقرف أن أفكر به كثيراً. فأنا بي حاجة لأطوف في بغداد من جهتيها وأتحاشـى هؤلاء الصغار أمثال أشرف الذي تشي هيئته بأنه لص وشاذ كصاحبه مايكل.

أتقصد النظر بعينيه الحزينتين اللتين تغرقان بالأسئلة.. أتساءل مع نفسـي: هـذه كآبـات ما بعد الحروب أم هي كآبـات الحروب المرتجلة كمـا سـماها بوحمـد! والله صدقت يا رجل، هـذه الحروب الصغيرة لا تـرى فيهـا عـدواً ولا صديقـاً، حينهـا تكون في فوهة البندقيـة هدفاً ثابتاً ولـو غيـرت اتجاهاتـك كل لحظة، فالفوهة تضبـط إيقاعها معك وتدور أنّـى درت، ولا خيـار لـك غير التسـليم بالموت أو الهجـرة الصحراوية الشـاقة. الحـروب المرتجلة يقودها مجانيـن وطفيليون وراكبو موضات

الجاهلية وصغار يجربون القتل كي تنبت شواربهم قبل أوانها. وآخرون يخترعون طقوساً للموت بالذبح المباشر وقطع الأعناق وأثداء النساء على شاشات "الجزيرة" و"العربية". يقول لي شاب الفنون الجميلة: كلهم كذابون وحملة رايات مزيفة ومتأسلمون وممثلون من أوسخ الدرجات. كلهم براميل بارود وموت وقتل واستهانة بالإنسان الضعيف.

تولد الأيام وتموت يا بوحمد في العاصمة ولا يدري بها أحد كأنها خرافٌ مسلوخة، فالوقت فوضى من رصاص وأحزمة ناسفة تتفرقع بأجساد النساء ومفخخات تحمحم كالخيول النافرة وقتلى يتساقطون عمداً وسهواً. يندحرون بسهولة، ومخطوفون يرهقون ذويهم بفدىً تشيب الرؤوس لها، ورجال شرطة خائفون من بعضهم. ينكسرون في لجة المواجهات؛ وحينما يجول بي شاب الفنون الجميلة بين شرق الجسور وغربها في خواء المدينة المتهالكة وفراغها المخيف، كنت اقترب من لثغة سقطت في دجلة قبل سنوات طويلة، وهوية تناساها أبٌ وأركنها خلف صورة جد عتيق أكلت العناكب إطارها وحفرت الأرضة خطوط التراب في ظهرها أزماناً طويلة.

يقول شاب الفنون الجميلة: **خرجنا من حفرة نار ودخلنا في حفرة غواط!**

يلخص لي الحياة هنا بجملة مسرحية شديدة الوقع. امتلأ قلبي ألماً على هذا القبح، يقول الشاب المسرحي: فقدت ماء عيني عندما صارت المسارح قاعات للهريسة وصار الحجاب هو الشرف والموضة، وبات ذوو المحابس المنفوخة قائمين قاعدين على رؤوسنا والناس تموت أو تهاجر حتى أنسوها صَلاتها وصيامها وصبوا الزيت في شرايينها.

خرجنا من الفندق، إلى تداعيات حرة تركتُ فيها صاحبي يفتح صدره، يهذي بما يشاء. كنتُ متوجساً أول الأمر، حذراً، غير أن الواقعة البغدادية التي أدور في فلكها جعلتني مشاركاً لحظة المسرح المتدفق

مـن فـم ينفـث لهيبـاً واحتراقاً، ولا ينحني قط في وصـف متون المدينة وحواشيها المستباحة.

خطر في بالي أن أسأله عن حي الأستاذ. تسمية غريبة. قد تكون تسمية لحي راقٍ لأصحاب الكفاءات تركه النظام السابق.

- لا. هذا أفقر حي أنشأه أستاذ جامعي معروف في أوساط علمية عالمية.. ولكن لهذا قصة تأتيك فيما بعد.

يحدثني شاب المسرح ونحن نحتمي بحائط:

- سأحدثك بشيء ولكن لا تفزع!

انتبهتُ.. لا يوجد أفزع من شرطي يحترق أمامك، ولا تلك القامة التي ذبحها الزرقاوي بسـيفه الإسـلامي وأطار رأسها. مرت الجثة الحية أمام عينيّ سـريعاً. أسـتجمعُ أعصابي لمواجهة الفزع المقبل يا بوحمد، فهنا تتغير الطبيعة البشرية وتلبس لباس الأسطورة على ما يبدو:

- بقي من أخي الصغير المدلل إصبعٌ واحدٌ! إصبعه الوسطي بقي على قيد الحياة!

ببسـاطة يمرر لي الشـاب معلومة من نوع غامض. أسـكتُ مصغياً، فينطلق الشاب في حكاية عجائبية من عجائب بغداد زمن الحرب:

- سـحقته نيـران سـيارة مفخخـة في السـوق الشـعبي وانصهر مع المنصهرين، إلا إصبعه الوسطى بقي منه فتعرفنا عليه بين الرماد. وجدناه منتصباً بين الأشـلاء يشـير إلى السـماء.. (وأفرد إصبعه الوسـطي منتصباً بالطريقة التي تستفز الآخرين).

ثم أكمل:

- حملنا الإصبع اليتيم في تابوت بمقاس قامة أخي ودفنّاه بمراسيم الدفن المعتادة في مقبرة النجف. غير أنه عاد في الصباح إلينا يبكي..!

- ماذا؟

فلتت الـ ماذا سهواً أو فزعاً من فمي وأنا أعيد التركيز بانتباه كادت أنفاسي تتقطع فيه:

- **عاد إصبع أخي باكياً يوم الفراق الطويل..**

- **وكيف عاد!** أتساءل بدهشة مفرطة.

- **عاد كما يعود الأحياء إلى بيوتهم..!** يجيب ببساطة مفرطة.

أعدتُ النظر في كيفية استقبال القصة متسائلاً:

- **أعد لي الحكاية يا أخي..!**

لم يُعد الحكاية لكنه أكمل:

- **ملأ الإصبع حياتنا بنوع شخصي من الطمأنينة. انتشرت الحكاية بين الناس عن إصبع يعود من قبره إلى بيت ذويه.. لقطة مسرحية.. ها؟!**

أنصتّ بجوارحي كلها. لا أريد أن أسأل، بل كنت طرفاً غارقاً في الاستماع إلى حكاية ما بعد القامة مقطوعة الرأس وكف الانتحاري التي يلعب بها صبيان السعدون:

- **أشار علينا أصدقاء وعارفون أن نستشير سادة أشرافاً وأطهاراً يُشهد لهم بالتقوى والورع والحكمة ومخافة الله، فتباينوا في الرأي واختلفوا في الحجة، لكنهم اتفقوا على أنها معجزة وأن بيت القتيل بيت من بيوت من الصالحين، والإصبع العائد من قبره دليلهم على ذلك.**

نظر لي شاب الفنون الجميلة كما لو يقرأ الشك الذي اعتراني، لكنه فضّل المواصلة كمن اعتاد مثل هذا الشك في عيون الغرباء:

-.. **وهكذا حُسم الأمر. بقي الإصبع في بيتنا يتنقل من كف إلى كف ومن جيب إلى جيب ومن حضن إلى حضن.. واليوم يومي بحمله والتجوال به في بغداد التي يعشقها. أدور به بين أصدقائه والأماكن التي يرتادها ويحبها.**

اشتبكت بي هواجس مختلفة وطافت مخيلتي بأماكن متعددة

وتنازعت بي نوازع شتى، استغرقتني وأنا أنظر في عيني هذا المسرحي الحالـم بتمثيـل دور صـدام لمدة 34 سـنة. خـفّ الرصاص من جهة أبو نواس، وانتبهنا إلى صمت المدينة، فاعتدل الشاب ونهض ماداً يده في جيبـه الأيسـر. تركنـا الحائط ومشـينا بعـض الخطوات حتـى أخرج من الجيـب إصبعـاً حقيقيـاً مقصوصـاً بإظفر طبيعي ووضعه فـي راحة يده. كان الإصبـع الأوسـط مـن يـد غير موجودة يقف بطولـه بوضعية مربكة لناظرها.. مرقت عيناي عليه مسرعتين، كأنما لا أريد أن أراه بعد الآن. وكأنمـا هـي لحظـة الحقيقة المخبأة التي يتوجب عليّ الانقضاض عليها قبل أن تفلت مني. قبل أن يقول الأخ:

- **هذا أخي..![1].**

---

(1) ميريام: وجدت في بغداد ما وجدته في بعض الأمصار من غرائب الأقدار وعجائب الأسفار. وجدتُ إصبعاً مقطوعاً يمشي ويتحرك ويكتب ويعشق.. ربما لا تصدقين أيتها الحبيبة الجميلة، لكنك تصدقيني حسـب. سـأبعث لك صورته. سأسـجل لك دقيقة من حياته بالفيديو وترين واحدة من عجائب الدنيا في هذا البلد المخترق من أذنيه. الله مع الناس لكن الناس افترقت عنه هذه المرة بسبب الحروب المتكاثرة عليها. فمنهم من تبع الشـيطان ومنهم من كان الله يعينه في هذه المحنة الطويلة. الله والشيطان يتقاسمان بلاد الرافدين. يتساويان في الغنيمة يا ميريام..

فاصلة أشرف

من العين السحرية رأيت أشرف بدشداشته كدب منفوخ. تشاءم نهاري وأنا أفتح الباب له. سلم عليّ بحرارة مفتعلة كأنه صديق لي. اقترب عطر رخيص على ذقن محلوق صباحاً. لا يهمه إن كنتُ متجهماً أم لا. رجل أمي مفرّغ من الأحاسيس والمشاعر. أدخلته وهو يتمتم: **صديقي مايكل يستحم على ما يبدو. قال لي أن أنتظر عندك..**

كانت أسنانه تبتسم لوحدها. ومفردة "صديقي" تتضخم في بلعومه. كما لو يشعرني: أني صديق الأميركان..

مثل هؤلاء قابلون للقسمة على أشياء كثيرة.

يشعرني بشكل أو بآخر أنه قوّاد من قوادي الاحتلال. أو بمنزلة مقارِبة من ذلك. رأيت مثله كثيرين في فنادق المدن السياحية وأولئك نتاج طبيعي للمكان، لكني لا أعرف أن الحروب تنتج مثل هذه القذارات مع المحتلين.

جلست منقبض الروح لمرآه.

- **"صديقي" مايكل يساعدني كثيراً..**

- **بماذا يساعدك؟**

زحف بجسده الثقيل إلى الثلاجة الصغيرة ومن دون استئذان وتناول قنينة ماء. أخرج من جيب دشداشته شريط حبوب مربعاً، وعلى عجالة ابتلع حبة ذات لون أزرق ودلق في فمه نصف القنينة.

- **أنقذتُ صديقي مايكل من موت محقق في "الفضل" قبل ثلاثة اشهر..**

نهضت استبدل ثيابي وهو يستطرد:

- جماعة المجاهدين نصبت كميناً لدوريته في الفضل. حاصروا مدرعته بالقنابل اليدوية وكان الهدف أخذه أسيراً مع مجموعته، غير أني أنقذته باللحظة المناسبة.

كان يتوقع أن أسأله عن تفاصيل العملية، لذلك بادر:

- كلما يتخيل "صديقي" مايكل لحظة الذبح التي كانت ممكنة آنذاك يقشعر جلده وتنتابه نوبة هستيريا. لذلك أحبّني.. كثيراً!

وقال أيضاً:

- صرت صديقه المفضل. وعرفني على البيرجادير وأكرموني ببعض المال.. وهذا الباج الذي يسمح لي بالدخول إلى الفندق..

أنهيت استبدال ثيابي وفمي يتساءل:

- كيف تتفاهم معه وأنت لا تعرف حتى اللغة؟

ضحك ببلادة.

- أستاذ.. اللغة ليست مهمة. نتفاهم أنا ومايكل بطريقتنا!

أخرج باجاً أخضر مربعاً من زيقه ونظر إليه بإعجاب. في الوقت الذي رن فيه جرس الغرفة ودخل مايكل يرتدي شورتاً قصيراً وفانيلا مخططة محلوق الوجه يستبقه عطر الشانيل. بدا كعروس صغيرة بساقيه الناعمتين وجسده المتناسق. هب أشرف إليه وعانقه بحميمية. صافحني بوجه ضحوك وعينين تبرقان بالشكر. هكذا افترضَ أنني جسرٌ أمينٌ بينهما. امتلأ الجو بأنفاس غريبة عني وكان الموقف المخزي يجبرني على الهرب إلى الخارج. تركتهما في الغرفة. سمعت ورائي انصفاق الباب الثقيل وصداه العنيف يتردد في الممر.

فاصلة لورا (2)

لم تبخل لورا علي برسائلها[1] كانت تغذيني بالسطور والكلمات بين فترة وأخرى. اشعر أني مضطهد. اضطهدت نفسي بإرادتي، سُحرت بالمفقود مني وأنا أكبر بين السواحل والمدن الطافية على سلام الحياة الذي أجده أينما وليت نظري. أعدت قراءة رسالة لورا أكثر من مرة. تلك هي أوروبا، أقول في نفسي: خواء. لا يستهويهم السلام لأنه راكد.

---

(1) الحياة الرتيبة في نوتننغهام تضجرني إلى حد ما. الرتابة جزء من مشاكلنا اليومية. أحسدك الآن فأنت في مدينة لا يستقر فيها شيء. كل لحظة حركة ومتغيرات، والإنسان يتقلب فيها مثل السمكة المقلية، فيرى في كل لحظة عمراً جديداً وحياة جديدة ورؤية جديدة. القلب الراكد مثل البركة الراكدة. يتعفن ويفسد. والجسد الوسخ لا يبعث على النشوة. لذلك كانت بغداد بالنسبة لي، بالرغم من مخاطر البقاء فيها، مكاناً يحتوي نزقي وحركيتي والكثير من حرية أنت لا تراها لكنني أعيشها بحب كبير. كنت فيها مثل الطفلة التي تبحث عن ألعابها الملغمة في الحدائق والشوارع والأرض.. لكنني كنتُ أرى الموت واقعاً يتحرك بين ثيابي كل دقيقة في شوارع بغداد وأحيائها وأنا ابحث في السكون المخادع عن لقطة ما، من دون أن أكترث لمخابئ الميليشيات.
أكيد أنت منغمرٍ الآن في صراع مزدوج بينك وبين ضياعك الشخصي. لا تبتئس. خذ حريتك أولاً وانتزعها؛ فإن عجزت عن إيجادها اسحق هويتك بنعالك وعُدْ إلى حياة السواحلِ البحرية فهي أكثر جمالاً وهيبة والْحقْ بأبيك المهاجر، فلا تستعاد الهوية ما لم تُستعَدْ الحرية أولاً، وهؤلاء القتلة ضد الحياة.. تذكر حبّة الطماطم وحبّة الخيار وقفا العنزة المكشوف.... هههههههههههههه... ما لم تجد حريتك لن تجد هويتك.
اكتب لي عن كشوفاتك.. هل وجدتَ صديقة غيري؟؟
لا أعرف متى أعود إلى بغداد.
كن بخير.
لورا.

يتنفس فيهم ويتنفسون فيه. يتفرجون على السمك المقلي وهو حي!
هههههههههه بحجم العَبَرات التي تخنقني وتخنق غيري من الناس الهائمين وسط موج النيران المتأججة فيهم وحولهم وبين خطاهم القلقة.

أكتب كثيراً وأنا أتأرجح مع ذاتي بأصابع أحاول ألاّ تكون مرتعشة.. هناك ما يستحق الذكرى إلى الأبد، وليس هناك ما يستحق النسيان في دورة الحياة المركونة في أقاصي النهر.

مؤخرة المدينة

أعود إلى ورقتي الإلكترونية المفتوحة على بياضها، ولقتل الوقت السائب ولتوثيق يوم آخر من أيام الكآبة، كتبتُ على الحاسبة بطريقة غير مريحة[1] لا أشعر فيها بأن عقلي يستوعب ما أكتب. أرى الكلمات تتطافر أمامي كحشرات مذعورة وأصابعي مشلولة ورؤوسها تنقر برأسي.

توقفت عن الكتابة بفقدان سحر لحظة الكتابة، فالكتابة مثل المرأة الحائض تحتاج إلى أيام لامتصاص دم الدورة الشهرية منها كي يكون جسدها نظيفاً ومهيأ المزاج. والحصار الذي أطبق علينا أنا وشاب الفنون الجميلة في الفندق ترك فينا شعوراً بالخيبة من هذه الحياة الواقفة على فوهات البنادق ولوّث لحظاتنا بدماء تتدفق هنا وهناك. لم أدعه يغادر إلى قرية الأستاذ منذ أمس. وجدتها فرصة أن أتعرف عليه وأمنع مايكل وصديقه من أن يستغلا غرفتي لشذوذهما الجنسي.

توقفت عن الكتابة وشاب المسرح لا ينفك يكرر اعتذاراته من البقاء الاضطراري منذ ليلة أمس التي قضاها يقظاً وقلقاً بالاتصال مع والدته..

- هذه أمي.. قلقة على أخي من أن أفقده في انفجارات المدينة!

وجدته - صباحاً - منشغلاً بتلقين أخيه الكتابة. يضع قلماً بين

---

(1) "ليومين متتاليين كان القتال في مدينة الصدر واسع النطاق. وهو ما دعا الناس أن تلتزم بيوتها وتتهيأ لأي احتمال سيئ من توسع الحرب إلى الأحياء المجاورة. الأمر الذي ماثله قتال في جبهة الكرخ بين الأحياء الشيعية والسنية؛ وكانت المدرعات الأميركية تشارك بشكل كبير لدحر ميليشيات مقتدى الصدر بين القطاعات التي تناصر هذا الرجل..".

إصبعه وإصبع أخيه ويخطان معاً جملاً زاحفة ومائلة على بياض الورقة..

- أخي لا يسمع. لا يرى. لكنه يحس.. ما أن أضع قلماً يتوسط إصبعي وإصبعه حتى يكتب لي ما بنفسه. إنه اصغر مني لذلك تجده متعلقاً بي.. لا يحب أن يبقى في البيت كثيراً.

كان الإصبع على الطاولة منتصباً. اعتدتُ عليه وذابت قشعريرة النفور منه، فانتميت إلى حالته الإنسانية كثيراً، محتقناً من هذه النهاية الكابوسية لذاتٍ تحولت إلى حقيقة غريبة يستوطنها الرعب حتى في مسخها الإجباري.

قمّطه شاب الفنون الجميلة بشدّة بورق الكلينكس كما يقمّط جنيناً:

- لم ينم البارحة كثيراً. كان يحس بالارتجاجات العنيفة وكان يخاف..

تركت الحاسبة وتوسطت الاثنين وفي رأسي تطوف حكاية الأصابع الآسيوية التي لا يريد بوحمد نسيانها. الأصابع تحرك الحياة وتنتشلها من ركودها وتقيم لها برامجها بدقائقها الطويلة. تلك أصابع موّارة بالحركة والحياة والصخب؛ وهذا إصبع خرج من الموت سهواً بدلالته "الوسطية" المحيّرة ليكون شاهداً على مدينة فقدت رجولتها وظلت عارية المؤخرة.

أميل إلى الشاب الغاطس مع أخيه الإصبع. ينشغل بلصق قلم رصاص صغير بين إصبعه وإصبع أخيه ليكتبا مفردة أو جملة أو رسمة سريعة. كان يتسامى في لحظته الأخوية وهو يتكلم بهمس. أشعر بروح تنفلت من الإصبع المقطوع وتنتظم بالإصبع الآخر عبر القلم بسياق غريب ترددت في فهمه، وبقيت أنتظر هذا التناغم الصعب في الوصول إلى جزئية حياتية من شأنها أن تبصم على بقائها المنظور.

كانت لعبة غريبة لكنها مؤلمة. استقرت القامة الرشيقة أمامي. طويلة وحية تتحرك، فسقط العالم من حولها وفقد براءته وكان الأخ

يتلعثم مذهولاً، في حين ظل المنافقون يؤخرفون الحادثة ويمدونها بالدجل. العالم أوصل رسالته إلى العالم، لكن الجثة بقامتها الرشيقة ظلت بلا رأس حتى اللحظة والعالم يفخر بالغرائب والعجائب.

ترددت أن أخرق موجة الصمت بيننا. ثمة شعور إنساني عارم يمور في قلب الشاب وهو يديم الحب في أبجدية المعرفة العسيرة لأخيه.

- حدثني عن قريتكم. من هو الأستاذ؟

خرجت الكلمات تلقائية مني. ربما فضلتُ أن أخرج الشاب من عذاب محتمل. اطمئن إلى أخيه الإصبع وهمس:

- بدأ يشخر..! يبدو أنه متعب..!

التفت لي وبان في عينيه تاريخٌ من السرد وكنتُ مهيأ أكثر من أي وقت مضى لأكون متلقياً نافعاً في هذه الواقعة الغريبة.

وددت أن أقول له من البداية لكني سكتّ.. أيها الحالم بتمثيل فيلم عن ديكتاتور العصر مدته 34 عاماً احكِ.

كنتُ أعرف أنك شككت بأخي الإصبع. قبلك عدّوا الأمر سحراً من الأسحار وحيلة من حيل المحاصرين بالحروب. ليس هذا مهماً، فرجال الدين قالوا أنه معجزة وان بيتنا بيتٌ للصالحين. الحمد لله على كل ما حصل فقد عاد جزءٌ صغير من أخي بكامل دمائه وأوردته وها هو يعيش بيننا كما تراه مكرماً وعزيزاً، وأصبح الآن عمره عشرين سنة.

قرر أخيراً وهو ينظر إلي:

- من النهاية نبدأ.

غواط الوطن

لم أنم ليلة أمس كثيراً. كل شيء مظلم في المدينة وخانق. حتى الفندق أطفأ أنواره بعد سقوط قذيفتي كاتيوشا خلفه. خرق نومي المتقطع أكثر من مرة الإصبع المتبقي من جسد شاب يحمله الأعمى الذي اشتبه بقتلي ومرت رصاصته في جسد خميس الأسود. عاودني الحلم ثانية بطريقة أخرى: كانت بنت الأعمى الشعثاء تسرق الإصبع هاربة من القرية ويلحق بها شاب الفنون الجميلة صارخاً بجنون وعيناه تقدحان شرراً وغيظاً، في حين كان الشرطي المحترق يلحق بهما. وبين اليقظة والنوم مر شريط متقطع في رأسي.

لم أكن أفهم كيف تجمّع ذلك الخلق من الناس في درابين ضيقة وبيوت صفيحية وخشبية تعلوها رايات ملونة. لم يفتني مشهد مثل تلك الرايات الخافقة في أمكنة متعددة من بغداد. حتى في بعض البنايات الرسمية. قد أكون شاهدتها أيضاً على بعض سيارات الشرطة المرابطة في المحلات. لكن هذه القرية اكتظت بالرايات الملونة، وكل راية تحمل ألواناً مختلفة كأنما خيطت لتجمع ألوان الطيف الشمسي كلها. حتى في الفُسح، وهي قليلة، رأيت ساريتين متباعدتين تحملان هذا النوع من الرايات ولكن بحجم أكبر. الآن استدرك ذلك وأنتبه إلى قصدية الرايات العملاقة، بقياسات البيوت الواطئة التي تتراصف في القرية المتاخمة للعاصمة من جهتها الجنوبية.

ينبهني جرس خدمات الغرف المتكرر فأعرف أن الوقت تجاوز العاشرة صباحاً. ومن النافذة أجد إشراقات بغداد تشبه ليلها الداكن. السكون المخيف والحركة المشلولة وسيارات الشرطة والجيش

والإسعاف والهمرات الأميركية المتناوبة من الجهات كلها، تكاد تكون هي محصلة كل يوم في جو ممسوخ تجاوز الواقع إلى ما ورائه المحبط ودخل في متن القتل على الهوية الذي قرفته الناس، ولكن تدفع ثمنه قتلاً وهجرة وخطفاً كل يوم من باب الاضطرار والبقاء على قيد الحال الجديدة التي يتأملونها..

أفتح شاشة الحاسبة فتطالعني صورة لورا في أحد أحياء العاصمة ببنطالها الجينز وقبعتها الصحراوية وكاميرتها التي تشهرها بوجه أعداء وأصدقاء غير منظورين في اللقطة.

مرة قلت لها من ليس لديه نافذة في رأسه لن يستطيع مشاهدة البحر، وقتها فتحت نوافذها كلها ولم تر البحر، بل رأت دجلة ملطخاً بالبراز والوحل والدم. قلت لها يا لورا الجميلة انسحب البحر من رؤوس العراقيين وحلت فيه بحيرات من الغرين الأحمر، لا يعرف الناس إن كان هذا دما أم ماء أم برازاً!

صاحت بي من داخل الهمر:

الآن خذ طريقك إلى ذلك البراز وستجد الحقيقة فيه!

أية حقيقة يا لورا واليابانيون يصنّعون من البراز طعاماً صحياً يقي من السرطان!

فتصيح لورا من جوف العجلة الصاخبة:

دع اليابانيين وشأنهم أيها المغفل. هؤلاء بشر. لا تجوز المقارنة. افهموا حقيقتكم من برازكم!

أعيد عليها بصوت سمعته بغداد:

إن لم تفهمي البراز يا لورا فهو الخراااااااااااااااااء.

كان يومها ضابطٌ محفوف الوجه يعلن من قناة عربية أن عدد المقتولين أكثر من عشرين ألف قتيل من جهتي النهر، وكان يتوعد القاعدة والجيوش الخارجة عن القانون بالردع السريع. في حين ظل

بوحمد دائم الاتصال بي يوجهني إلى "جماليات الحرب" باقتناص المثير منها والغائب عن الآخرين والاستثنائي في الرصد اليومي. مرة واحدة تخاذل فيه الحدس حينما نقلت الفضائيات يوم قتال مسعوراً اتصل بي وصاح: **اترك بغداد وعُد اليوم قبل الغد**؛ متناسياً جملته التي حفظتها: نسعى لبلوغ درجة مقبولة من تعاملنا مع مكونات الحياة في أقسى لحظاتها وأكثرها ألماً.. والدرجة المقبولة يا بوحمد تتطلب هذه "السياحة" الإجبارية في هوامش المدينة لا في متونها التي ترونها على شاشات الجزيرة؛ كي اقتنص لك الغائب عن الآخرين والاستثنائي اليومي. والهوامش يا سيدي ستشكل متونها الإجبارية في عاصمة الرشيد، لتكون دالّة على خراب البلاد والعباد.

ستأتيك ارتدادات الناس في القرية البوذية وإصبعها الشهير الذي غيّر المفاهيم والطقوس والشعائر، وقوارير القتيلات اللواتي لم يمتن بعد في واحدة من مفارقات الحروب التي غيرت الحس الإنساني إلى حد بلغ معه الموت حاجة ضرورية، لكي تستمر الحياة بطريقتها المعتادة بين جثث الشوارع والأكف المتطايرة على السطوح، والقامات مقطوعة الرؤوس والشرطة الذائبة في نيران البلاستيك، والوثائق التي تباع بالعملة الصعبة لقنوات أميركية وفرنسية وبريطانية، واستهتار الجيوش الملتحية والشرطة المزوَّرين والقتلة السفاحين الذين قذفتهم أحزابهم لمثل هذه الاختراقات المهولة، وأصابع الخارج المعممة وغير المعممة التي طالت واستطالت حتى بلغت مؤخرات السياسيين الحائرين بمقاعدهم المفتوحة وخرائهم الوطني الذي يعفّط عليه الناس في التلفزيون والدوائر الحكومية والأماكن العامة.

تلك أشباح ساكنة من بيوت ومحال وبنايات ومدينة تنوء بلحمها المسلوخ وعظامها المفرومة، وبشرها المتناسلين في هذه الملحمة الوطنية التي تبرز فيها عمائم مسلحة وشراويل مدججة بالألغام وأفندية

خونة وسياسيون حملوا جوازات سفر مختلفة، وأنا أبحث عن هويتي التي أودعها أبي في بحر الظلمات وقال إنس وطناً هجرناه وبلاداً ما عاد لنا فيها شيء، وميريام تناديني بلوعة العاشقة: **ارجع. لقد قتلوا بغداد فمن لك هناك**.. ولورا تستفسر عبر الهاتف: ما الذي يحدث؟ وبوحمد يغير رأيه: الرأي لك. والمراسل الياباني يسألني عبر هاتف الفندق عن حكاية الإصبع الذي لم يمت والقامة التي قطف الزرقاوي رأسها، والمسح الميداني لحي متكون من سلالة القتل الفج وطقوس غريبة لم تعتدها المدينة في تاريخها. ونشرات الأخبار تتسارع لنقل الموت الوطني عبر شاشاتها، من المحلات المعروفة في الشعلة والجهاد والدورة والصدر والفضل والأعظمية.

الرقيب الوسيم يقول لا بد من الانتقال إلى المنطقة الخضراء. لقد فلتت الأمور وهذه أوامر بإخلاء الفندق من المراسلين خلال يومين. اشرف الوسخ ينتفخ جيبه من راتب هذا الرقيب مقابل مضاجعات حميمة في غرفتي تطورت لاحقاً إلى رقباء وجنود صغار افترسهم الخوف ليمتّعهم أشرف بقضيبه العراقي الأسود الطويل؛ كما وصفه مايكل ذات ليلة وهو سكران إلى حد الذوبان. وقال الذي لا يقال في نوبة اعتراف لا تنقصها القذارة؛ وبين هذه الفوضى اخترت البقاء إلى شوطه الأخير في معمعة البحث المضني عن كل شيء فقدته من دون أن أعرف أي طريق عن أي شيء بشكله الصحيح.

قرية الأستاذ

عليك أن تفعل الأشياء التي تعتقد أنه ليس باستطاعتك أن تفعلها.

روزفلت

- يمكنك أن تصور ما تشاء. فالقرية مشروع ثقافي وطني لم يلفت الأنظار إليه كثيراً حتى اليوم، والأستاذ يؤسس لثقافته باجتهاد شخصي!

كان دجلة يمشي معنا نزولاً إلى الجنوب، وكانت بيوت من البلوك والصفيح والطابوق والخشب تمشي هي أيضاً منحدرة بفوضى بنائها؛ والصحون الفضائية المنعكسة في ماء النهر تبدو كآذان متدلية لخفافيش أسطورية، وشاب المسرح يتعثر مثلي في ممرات ضيقة غير مبلطة ترك الشتاء أثره واضحاً هنا. في حين تنظر النساء المتخاطرات في هذه الممرات إلينا بفضول، يقفن بعيون مشدودة ويثرثرن بما يأتي على خواطرهن. فالقرية صغيرة تكشف الغرباء بسهولة.

ثمة صبيان تعقبونا وقتاً قصيراً ثم انصرفوا، لكن تعاقب الصبيان في المراحل التي جاءت ترك جلبة حولنا بسبب ضيق الممرات التي تسبب بها تقارب البيوت من بعضها، كأنما يضغط عليها ضاغط من كل جوانبها؛ حتى حسبت أني ادخل قرية معزولة عن الحياة المدنية.

- دخلنا من منتصفها. كل شوارع العاصمة تؤدي إليها في النهاية.

- أهي قرية قديمة!

- لا. ربما هي أحدث قرية في بغداد.. نشأت بعد الاحتلال..

وبعد خطف الأستاذ!

كان عليّ أن استمع بحواس استثنائية وأنظر بحواس مماثلة، فشاب الفنون الجميلة حريصٌ على ما يقوله كأن في داخله فيضاً من القلق المحتبس والغضب المكتوم. كانت الوجوه تطالعنا من كل اتجاه وتبتسم لمضيفي وتحييه. وجدت أن الشاب يحظى باحترام من الرجال والنساء.

ثمة دكاكين صغيرة حُشرت بين البيوت أو طلعت من الحيطان كسجون صغيرة تطل منها رؤوس نساء أو رجال كبار السن. وثمة روافد من بيوت تشق استقامة القرية، نازلة من ظهرها البعيد فتشكل معها أضلاعاً ساندة في انكفاءتها نحو النهر. تلك الروافد التي وقفتُ عند بعضها لأصورها بدت كأنها محفورة في الأرض وطلعت أبوابها وشبابيكها لتشكل بيوتَها العشوائية وتنبت كما هي الآن. ربما استحضرت وقتها درابين وأزقة نجيب محفوظ في ثلاثيته، لكن من دون حرافيش وبلطجية وحكواتية. هنا أجواء من الالتصاق غير المفهوم بالنسبة لي، وألغاز لم أتوغل في تضاعيفها بعد وبشر يتخاطفون، مثقلين بالهموم كما أتوقع.

قطع شرودي القصير:

- يسمونها "الحواسم" كما سُميت أحياء عشوائية كثيرة هكذا.. لكن الأستاذ هو من من أسس هذه القرية وجعل من معرفته وعلميته أسساً واقعية.

كانت الرايات الملونة المعلقة على السطوح الواطئة هي ما لفتني بقوة وأنا أنحدر مع القرية. تشع بألوانها الحارة كطيف الشمس. وكلما نقترب من النهر بانحراف الممرات، قبل أن تستدير إلى اتساقها الأول، تتضح معالم القرية العشوائية التي تبدو من بعيد كأخطبوط غليظ جثم على حافة النهر إلى مسافة طويلة. لكن مقهى واحدة صغيرة استطاعت أن تجد لها مساحة معقولة في هذا الاكتظاظ السكني.

- **كل شيء تغير بعد خطف الأستاذ.**

انفتحت الممرات على هواء نقي في خاصرة النهر المنحرفة جنوباً، ولاحت مساحة مفتوحة فيها اخضرار من زرع صيفي وسكراب حديد يتبعثر بينها. ثمة مئذنة تلوح عبر ضفة النهر وبنايات عالية وطائرة هليكوبتر تدور حول مكان ما، كما تتسرب أصوات متقطعة لصليات كلاشنكوف بعيدة. في حين كان نساء وصِبية وشباب يجوبون ضفاف النهر شبه عراة. يغطسون متناوبين وغناء ريفي لرجل ستيني بدا لي عارياً وهو يتقدم الجميع في النهر وبيده حزمة خضراء لأغصان شجرة.

- **هذه نهاية القرية..**

صورتُ لقطات إضافية للرايات الملونة المرفرفة. في حين كان النهر يتضامن مع هذه العزلة المريبة بالبيوت العشوائية التي شكلت مكاناً فيه روح دائبة، بلا شك، يفتقدها قلب العاصمة. كما أخذتُ كلوزات لوجوه صِبية ظلوا يتخاطرون أمامي طمعاً بلقطات لن يرونها.

- **قرية صغيرة لكنها ستكبر مع الأيام مادامت الحرب قائمة.**

وجدت نفسي قادراً على أن أسأل الشاب وثمة شكوك في داخلي تمكنت من إخفائها:

- **ألا تجد أنها مصادفة أن يبقى إصبعٌ قتيل حياً؟**
- **هناك غير إصبع أخي من بقي حياً في القرية!**
- **أهناك أصابع غيره؟**
- **ليست أصابع.. بعد إصبع أخي فهمنا أنه من الممكن أن لا يموت الأبرياء بالطرق الغادرة والفجة.. أنت نفسك حكيت لي عن قامة رجل بلا رأس فلت من سيف الزرقاوي.**
- **كيف حدث أن صارت قرية.. أأنتم أقرباء مثلاً أو عشيرة واحدة؟**
- **كلنا غرباء.. لم نكن نعرف بعضنا من قبل؛ لكن جمعتنا المصيبة**

الواحدة في فوضى الاحتلال والقتل على الهوية وما شاكل ذلك من مصطلحات تعرفونها أنتم الصحفيون.. الأستاذ عاد من مصيبته الفردية ليجمعنا تحت سقف حر.

- **اعني هل أنتم من طيف واحد؟**

- **لا. نحن خليط ديني وعشائري نشكل الآن دورة حياة جديدة في قرية الأستاذ.**

سأكذب عليك يا بوحمد إن قلت لك أنني غير مطمئن حتى اللحظة بالرغم من السلام الذي حل بيني وبين الشاب المسرحي. شيء غريب يجري. القرية العشوائية تتيح التفسير لغيري وكأنها قرية لصوص أو بائعي مخدرات أو في أحسن الأحوال أنها قرية غجرية فلتت من عقاب الميليشيات. ومن المؤكد أن شعوراً مباشراً في أول الأمر كان ينتابني من أنني وقعت في فخ نصبه لي هذا المسرحي الحالم بتمثيل دور صدام لمدة 34 سنة. غير أنني أشعر باعتداده الكبير وشخصيته المستلبة، وما جعلني أكثر هدوءاً هو أخوه الإصبع الذي نام في غرفتي ليلة أمس بسبب انقطاع الطرق واخذ يشخر بعد ليلة من أرق!

هذه الحرب المرتجلة التي أسميتَها أنت أزاحت قاع المدينة وأخرجت رائحته كما أعتقد، فرأت الناس حقيقة ما جرى وما يجري.

- **نجلس في المقهى قليلاً.. وسنرى الأستاذ في بيتنا.**

كانت دعوة مناسبة أن ألتقط أنفاسي وأهيئ نفسي إلى مشوار لا أخمن ماذا يجري في تضاعيفه من رؤى جديدة يمكن للشاب أن يطلعني عليها.

مساحة المقهى صغيرة لا تستوعب غير بضعة أشخاص. رُصفت على حاشيتها قنفة مستهلكة قلقة بسبب الأرض غير المستوية تحتها. هناك ثلاثة رجال كانوا يتحاورون ويضحكون لسبب ما؛ غير أن دخولنا جعلهم ينتبهون إلى وجودي الغريب معه. فالغريب مفضوح الملامح

واللغة والعيون والثياب، ولم أجد ما يفاجئني في ذلك، فقد جبتُ قرى كثيرة في آسيا وجلست في مقاهي أكثر تعاسة في بوكهرا النيبالية وأرياف الهند الفقيرة. رأيت وجهي يتبدل في كل مكان أكون فيه وبدأت أعرف ذلك من عيون الأهالي المفتوحة في وجهي.

رحب الرجال الثلاثة بنا بحرارة وأجلسوني في مكان بارز على القنفة وحرص أحدهم أن يضع كسرة طابوقة تحت رجلها المكسورة ما أشعرني بالحرج كون الرجل كبير السن.

سأله أحد الرجال:

- **كيف حال الأخ. أهو بخير!**

- **بدأ يألف حالته الجديدة.. اليوم أفضل من الأمس.**

وسأله آخر:

- **هل قال لكم شيئاً خلال هذه الفترة؟**

قال الشاب المسرحي:

- **بصعوبة أخذ يتفهّم وضعه الجديد يا عم. لكنه ما زال في طور الصدمة.**

مال الرجل الثالث وتساءل:

- **وهل انحلّت عقدة بيت الأزرق!**

أجاب الشاب:

- **ما من شيء يستعصي يا عم.. بدأ الرماد يتحرك بصورة جيدة من يومين!**

مال علي قائلاً:

- **أستأذنك قليلاً.. سأرسل الأخ إلى البيت فهو جائع على ما يبدو..!**

أخرجه من جيب قميصه ووضعه في باطن كفه كسحلية مقرورة وقبل أن يتركني مع الرجال الثلاثة التفت إليهم:

- هذا ضيف علينا.. صديقي.. صحفي عراقي يقيم في دبي منذ ولادته وجاء ليرى بغداد لأول مرة!

- يا أهلاً بالضيف العزيز..

- أنت بين أهلك..

- حياك الله.

- يقولون دبي صارت جنّة.

- كيف تعوف الجنّة وتأتي إلى جهنم! هههههههه.

رحب بي الرجال بطريقة ودية من دون أن تنقطع أنظارهم عني. صبي صغير أدركني بقدح ماء واستكان شاي. وامرأة ملفوفة بعباءة محززة بالبُلك سألت أحدهم عن مكان مدرسة ابتدائية قريبة من القرية. ورجل رابع دخل المقهى باحترام يليق بسنّه. ثم دخل فتى يرتدي ملابس رياضية ويلتصق بصدره مارادونا مجسماً وضاحكاً كأنه سيخرج بعد قليل باتجاهي.

- كيف هي أحوال بغداد؟

سألني أحدهم. وجدتُ السؤال غريباً جداً. ضحكتُ مرغماً.

- هذه بغداد.. أين نحن يا عم؟

ضحك الرجال بود وفهمت القصد فيما بعد.

عاد الشاب مسرعاً بوجه بشوش كأنما تخلص من عبء ثقيل. استأذن من الرجال بأريحية ودعاني إلى بيته.

في هذه الفاصلة الصغيرة والقصيرة بين البيت والمقهى اتصلت ميريام أحسستها متضايقة..

"أطلتَ غيابكَ عني".

"متى تعود؟".

"تأخرت كتير".

"أخاف عليك".

"حلمت أحلاماً مزعجة".

"أنت وين الآن؟".

"خذ بالك".

"عايشة في فراغ".

"أحبك".

درجنا إلى البيت. كنت مختلط المشاعر. غمرني شعور بالذنب بعد هذه المكالمة السريعة. غير أني استدركت الحال حينما توقف الشاب أمام باب صفيحي يدعوني للدخول.. لم أتردد، كأنما استسلمت لقدر مجهول، مشدوداً إلى حس الاكتشاف والمغامرة.

في البيت كان رجل سبعيني نحيف بشعر أبيض يأكل بيضة مسلوقة.. **الأستاذ**.. قال شاب الفنون الجميلة.. نهضت الكتلة بتواضع وصافحتني بيد عظمية. وجدته كائناً يدخل في بدلة عريضة عليه. وجهٌ نحيف وعينان زرزوريتان صغيرتان داخلتان في جمجمة رأسه.. قدمني الشاب بلطف: صديقي صحفي يقيم في دبي منذ ولادته..

حياني بأبوة. كان فمه صغيراً وأسنانه تحافظ على بياضها.. وبطريقة غير تقليدية شرع أصابع كفيه أمامي بطريقة مسرحية لم أفهمها. ضم أصابعه ثم فتحها أمامي مرة ثانية ضاحكاً وهو يقول: **لدي ست أصابع في كل كف! هذا يعني أنني أختلف عنك. هههههههههه**.. نعم كانت لديه ست أصابع في كل يد. مسحت عيناي كفيه. الإصبع الزائد يقف بجوار الخنصر في كلتا اليدين.. أحسست بقرف طارئ. لا أرتاح

كثيراً لزيادات في جسم الإنسان ولا نقصان فيه. تذكرت كف الانتحاري في شارع السعدون وصحن المخلمة. دخلت على مشهد الكف ذي الأصابع الست والقامة التي تركت رأسها بين سيوف الزرقاوي. لكن خفة الأستاذ وأريحيته هوّنت من ذلك الإحساس. كان إصبعاه الزائدان مندغمين مع مجموعة أصابع الكفين. يتحركان بطبيعية، لكنني كنت لا أنظر إليهما كأني أخافهما.

قال أن الصحافة في هذا البلد تشبه حائطاً يهودياً لا يصلح إلا للبكاء.. استظرفت المثال واستوعبته.. لكنه أكمل: جماعتنا زادوا على الحائط بالهريسة هههههههههههه.

أكمل بيضته المسلوقة وذهب يغسل يديه. داعب جرواً صغيراً وهو يهمهم: **لو كنتُ مثل هذا لما لعبتْ بي الدنيا..!**

التفت الأستاذ لي بعينيه الزرزوريتين: **هل لديكم في دبي كلاب!**

فاجأني السؤال فضحكتُ..

تدارك المعنى بقوله: **المدن الحديثة طردت حتى هذه الحيوانات المسالمة. العمارات العملاقة لا تستوعب حتى العصافير. هذا منطق الحداثة المعمارية.. حشرُ البشر في علب كونكريتية وتركهم يلهثون وراء لقمة العيش مثل هذا..** وأشار إلى الجرو الذي يكثر من هز ذيله..

وددتُ أن أتكلم معه: **دبي خرجت من عصرها والتحقت بالمستقبل يا أستاذ..**

نعم، نعم. أمسكت بفضاء الحداثة عبر الاقتصاد؛ يعقّب الأستاذ؛ **هذا منطق عصري جداً.. لكن بسبب استثماراتها الغوغائية في كثير من الأحيان وعلى حساب حجمها السكاني الصغير ستقع في منتصف الطريق ولكن قد تنهض بواسطة الضخ الميكانيكي من المركز، فدولة الإمارات قائمة على فكرة القطار السباعي الذي يقوده رأس فيه حكمة ولماحية.. وفي مواجهات الخطر الحقيقي يتدخل المركز لإيقاف أي**

انهيار في أية قاطرة..

تعبير غريب لم أسمع به من قبل، ولا أعرف إن كان مناسباً أم لا، لكني قلت في نهاية الأمر:

- صلتها بتكنولوجيا الاتصالات قوية ومتينة ويبدو أنها تخطت عتبة الطفولة..

قال الأستاذ:

- تكنولوجيا الاتصالات جزء من عالم المعرفة الشامل، والمعرفة عامل أساسي في النقلة الحضارية لأي بلد.. بل المعرفة تنتج الثروة..

ثم أضاف وهو يلعب بإصبعه السادس:

- المعرفة تُطوّر العقل وتهذّب النفس وتنشئ أخلاقاً اجتماعية وسياسية جديدة. لذلك تجد المدن ذات المعرفة المتجددة التي تواكب عصرها وتهضم معطياته، تتجدد في صناعاتها وتتطور في سياساتها، ويتجمل إنسانها إلى حد بعيد..

وددت أن أتواصل معه وهو يحرك إصبعه الزائد:

- المعلوماتية الجديدة وثورة الإعلام بشكل عام أسهمت في مثل هذه النقلة الحضارية إلى حد بعيد. ودبي تمكنت أن تستبق غيرها من دول المنطقة بأن تكون في جوهر هذه الحداثة المعرفية.

ترك إصبعه سائباً بين أصابعه وقال:

- دبي خرجت من الطبيعة، أو في طريقها إلى الخروج منها، إلى ثياب الحداثة بمستوياتها المختلفة، لكنه خروج مقلق، فالمشكلة السكانية ستبقى تهدد هذه الإمارة بالغزو الأجنبي تحت ذرائع أقامتها دبي نفسها. ودبي ليس فيها ذلك الثقل الياباني البشري أو الصناعي، فاليابان أعادت صياغة نفسها بعد الحرب العالمية الثانية لتكون دولة الاقتصاد الكبرى في العالم، ودبي لن تكون كذلك لأنها مستهلكة ولأن مواردها البشرية والاقتصادية لا تسمح لها أن تعيد صياغة نفسها كاليابان، هناك

فرق..[1].

قبلت أن يأخذ دوري، إذ وجدته لصيقاً بالمعارف وتحليلها والتماهي بها، فقاطعته مستفسراً:

- كيف ترى خروج دبي من الطبيعة إلى عصر العمارة..؟

كانت على وجهه ابتسامة طفيفة وهو ينظر إلى أرجاء المكان المتواضع. نظر إلى الجرو الصغير وقال:

- الدليل أنكم في دبي لا تملكون مثل هذا الجرو المدلل! هههههههه.. هذا هو الطبيعة.

نهض الأستاذ ضاحكاً إلى مغسلة قريبة وعاد يشد على يدي ويصافحني قائلاً:

- إن كنت تبحث عن شيء فلن تجده إلا هنا. أرجو أن أراك دائماً هنا.. بيوتنا لأهلها.. القرية أمامك مفتوحة ليلاً ونهاراً.. سترى الوطن من هذه النافذة التي أنت فيها..

خرج الشاب معه إلى الباب المائل، ومن الباب المائل التفت لي قائلاً:

- العالم يتصارع ويتسابق من أجل إنتاج المعرفة لتوزيعها بين الشعوب كي يكون في جوهر أخلاقه العلمية ولا أقول الحضارية لأن الحضارة أنتجت أيضاً طائرات تعمل بالحواسيب والشاشات الصغيرة،

---

(1) قال أيضاً إنه لا يمكن إنشاء مدن المعرفة ما لم تكن مبنية على التنوع الثقافي والتعايش الديني والاجتماعي... وعلينا أن نوجد مناطق حرة ومتحررة من المركز الحزبي. قال أن اقتصاد المعرفة يجذب الاستثمار والسياحة ورؤوس الأموال وينشر خبرات التكنولوجيا الإلكترونية ويقضي على البطالة.. ويسمح بتدفق المعلومات.. تحدث عن المدن الذكية كسنغافورة ودبي وشبكات المعرفة الحديثة والمدن الخضراء.. ووصف القطاع الخاص لدينا بالكسول لأنه لم ينهض بدوره التاريخي في توليد المعرفة وصياغة أفكار المجتمع..

وقتلت شعبنا في موقعة الاحتلال وقبلها، لكن جماعتنا ظلوا يتصارعون على من يدخل القصر الجمهوري أولاً.. ههههههههههه.

مد يده للتحية وخرج تاركاً نفحة من خفيفة في المكان ولوناً معرفياً جديراً بالانتباه.

عاد الشاب مبتسماً:

- **الأستاذ عقل القرية.. إنسان متواضع.. بيوت القرية تريده بينها في الأوقات كلها..**

ينادي امرأة داخل غرفة:

- **يا أمي لدينا ضيف يريد أن يسلم عليك..**

أمي..

كنت أتوازن بصعوبة. ميريام لا تعرف أوقاتي المضطربة وليس لديها أدنى تصور عن حال بغداد في الحرب ومفاجآتها غير المحسوبة وغرائبها المحيرة. أعرف أنني اكتفيت بردود سريعة عليها ستجعلها حزينة ويمتلئ رأسها بالظنون.

كنت في الباحة الضيقة التي نبتت فيها سدرة صغيرة. ثمة دجاج ينقر بين فردتي حذائي وجرو يتمسح بأذيال بنطالي. خرجت المرأة ملتفة بإزار مخطط من محبسها، والإصبع الصغير في راحة يدها. هرعتُ إليها وقبّلت رأسها من دون أن أقول شيئاً يواسيها. فالإصبع الحي حسم الكلام في داخلي.

يمكن لي أن أتحسس الآن هول الفاجعة الشخصية التي ألمّت بالمرأة وهي تعرض ابنها الإصبع.. تمتمت بصعوبة:

- **هذا ما تبقى من ابني!**

كان المشهد مربكاً لي وغرائبياً إلى حد كبير. جلست المرأة على الأرض تقابلني بوجه فتك الألم به. فأحاطت بها الدجاجات وأقعى الجرو إلى جانبها يمد رأسه ويتطلع إلى الإصبع الحي.

الوقت السياسي

تنقلتُ من الشرق إلى الغرب وظل النهر يقسم المدينة إلى قسمين. ساعدتني خفة عُدتي أن أكون في أول همر تغادر الشيراتون مع فريق لبناني إلى بيت يبدو أن أميركيين كانوا يشغلونه حتى ليلة أمس. بيت بثلاث غرف. سُورهُ أوطأ من قامتي. أُشغلُ منه غرفة تطل على حديقة مورّدة وتكشف لي شيئاً من الخارج البغدادي المعبّأ بالدبابات والعجلات والسيطرات الأميركية التي تحبس الأنفاس. كان هذا الخارج الذي أقطنه منذ صباح اليوم لغزاً من الغاز الاحتلال حتى نُسجت الأساطير عنه بين العامّة والجماعات المسلحة. الفضاء هنا أوسع من فضاء الشيراتون المكبوس خلف النوافذ، والحماية لهذا المجمع الصحفي تقع ضمن منظومة حمايات أشمل للمنطقة الخضراء برمتها.

قوس النصر بسيفيه المتعانقين من النصلين ما يزال شاخصاً وقبضة صدام من جانبيه ما تزال واضحة، لكن هناك من قال لي أنهم استبدلوا قبضته الحقيقية بقبضة رجل آخر غير معلوم فبقي النصب وبقيت القبضة..

ثمة كرفانات منتشرة وبيوت صامتة وشوارع حديثة تتقاطع حتى الجسر المعلق. تقول رندة: **هذا حي كامل ضمته الحكومة إلى منطقتها الخضراء..**

تزورني رندة بين ساعة وأخرى بحركة نحلة دؤوب، تتفقدني بغريزة التعاون. تحرّكت فيها روح الأنثى الشغول التي تجد نفسها مسؤولة عن غربة الآخرين. تشغل الغرفة الثانية التي تقابل غرفتي مع مصورين اثنين حطا أغراضهما الشخصية في الغرفة الثالثة واتخذا

مواقعهما، فور وصولهما، على سطح البيت للبث المباشر أحياناً أو إرسال التقارير اليومية والاتصال بفضائية لبنانية لم أسمع بها من قبل.

زودتني رندة بالمعجنات والحلويات وعلب البيرة التي حصلت عليها من مطعم أميركي قريب وملأت بها الثلاجة الصغيرة. المصوران مثقلان ببدلات العمل وأغطية مانع الرصاص التي تنفخ من صدريهما وهما يثبّتان مكابس كهربائية ويفحصان سريان الكهرباء في جميع أوصال البيت.

هدأتُ إلى حد جيد وأنا أعيد فتح حقيبتي واعلق ملابسي وانشر اشياء شخصية صغيرة هنا وهناك. غمرني ارتياح لتخلصي من الفندق ومايكل وأشرف والعميان المتسولين ذوي المسدسات المخفية.

يراودني شعور من أن عزلتي الجديدة في مكان صغير وفي جو أكثر أمناً من غيره ستدفعني للتفكير من دون توترات يومية. يحسسني هذا التصور أني قادر على دفع هذه العزلة القسرية بالذهاب إلى الآخرين وأبحث عنهم متى أشاء، حينها يتحتم عليّ حساب الوقت المتبقي من جديد ووضع خط أحمر من عدمه على أفكار معينة استنبطتها خلال المشوار السابق. سيكون الأمر هذه المرة معكوساً. تبدلت لعبة البحث عن الآخر لتكون لعبة أكثر مرونة برغم خطورتها المعتادة[1].

لورا عرفت انتقالنا إلى المنطقة الخضراء منذ ليلة البارحة.. **هذا أكثر أماناً لكم.. كيف هي أخباركم؟** الاتصالات المشوشة تمنعها من الاستمرار على نحو واضح. حاولتُ الاتصال بميريام غير أن صوتها ظل

---

(1) دخل ضابط أحمر الوجه يصطحب مترجماً عراقياً بالإضافة إلى جنديين ضخمين. سجلوا رقم البيت وأسماءنا الثلاثة وأرقام جوازاتنا وبطاقتنا الشخصية الأخرى، وصوروا وجوهنا مقرّبةً بكاميرا ديجيتل، وبعد أقل من نصف ساعة جاء أحد المستخدمين وسلمنا باجات خاصة لدخول المنطقة الخضراء والخروج منها، مع ورقة تشرح بعض طرق السلامة وأرقام هواتف للخدمات الأمنية العاجلة داخل العاصمة.

يتلبد بغبار بعيد قطع صوتها عني في محاولاتي المتكررة.

خلعتْ الباج فتطاير شعرها كمظلة أطفال. سحبتْ كرسياً وجلستْ:

- **لأي صحيفة تعمل؟**

- **مراسل حر لمجلة اجتماعية أسبوعية تصدر في دبي.**

- **أظنها مجلة الأم الأسرية.**

أطرت على خط المجلة المهني وذيوعها في العالم العربي وجرأتها في تكوين ذائقة اجتماعية خارجة عن النمطية بالنسبة لمجلات أخرى.

رن النقّال في خصرها فاستأذنت خارجة إلى الحديقة. ثم عادت بعد لحظات لتقول أن مسؤولاً كبيراً سيقول كلمة مهمة للصحفيين والمراسلين في القاعة القريبة بشأن الحرب الأهلية الجارية.

كانت فرصة أن أرى وجوه السياسيين عن قرب وأشوف ملامحهم وأكون على تماس مع الجانب الآخر من الحقيقة، وهي الحقيقة السياسية التي غفلت عنها لتعارضها مع مهمتي في تدوين الهامش من الحرب لا المتن فيه (هؤلاء هم المتن الكبير الذي تدور الهوامش حوله) في مجلة لا تعنيها أخبار السياسة الموارِبة ولا اللسان الدبلوماسي الذي لا يتورع عن التسويف والكذب في أحلك الظروف وأمرّها. هذا ما يشيعه الناس ويؤكدونه بسخط.

لم تكن القاعة بعيدة. تكفي بضع عشرات من الخطوات لنكون فيها.

حدائق القصر الجمهوري تلقي بأشجارها المتطاولة على أسيجته الخارجية، وبوابته الضخمة يحتشد فيها حراس أمنيون وجنود المارينز وعراقيون كشفتهم ألْسنتهم وصياحهم العالي ببدلاتهم المبقعة وخوذهم الثقيلة.

كانت فرصة أن أمضي مع وقت سياسي لا علاقة لي به مهنياً لأرى حكام بغداد الجدد الذين كثُرت شائعات الطائفية والفهلوة

والزعرنة حولهم. رندة تعرف مسالك المكان ومداخله المتعددة. التفتيش المضني جعلنا نتأخر في دخول القاعة. أكثر من وجه كنت أراه في بعض الصحف اليومية وشاشة التلفزيون وهو الآن يتجول في الكافتيريا أو يذهب إلى صالة اللقاءات الصحفية. ولأني لم ألتق بأي سياسي عراقي منذ مجيئي فكنت أستعين برندة التي تحفظهم واحداً واحداً وتعرف حتى مستوياتهم السياسية والفكرية واللغوية بل وحتى العقلية..

هذا الرجل الختيار سياسي عجوز كما ترى، يتنقل بطائرة إماراتية خاصة. من أسرة سياسية معروفة في العراق. يُتهم والده بالتعاون مع الإنكليز منذ بدايات القرن الماضي.. يطمح بالرئاسة لكن لن يحصل عليها.

وهذا؟

هذا لص دولي متهم بسرقة بنك عربي.. لا لا لنقل عليه مخالفات مالية ولهذا فهو محكوم بالسجن 22 سنة مع الأشغال الشاقة.. هو زعيم حزبي ومؤسس بيت طائفي في انتخابات العام الماضي.

هههههههه.

إششش..

هذا المعمم لا أعرفه لكن لكنته إيرانية لهذا يتحاشى الحديث في وسائل الإعلام. أصابعه تمتلئ بالمحابس ذات الحجر الثمين...

صاحب السدارة هذا الذي يعطينا ظهره هلفوت سياسي بلا أسنان. يشبه هتلر تقريباً.. طائفي معروف..

وذاك؟

الذي يرتدي بدلة زرقاء يكثر من الظهور بالتلفزيون وعادة يتوعد جهات سياسية وطائفية يسميها أحياناً. هو طائفي أيضاً. لسانه بطول ربطة عنقه.

ذو القميص غير المكوي نائب لا يهب ولا يدب.. والذي يقف إلى جانبه لم يفتح بعد خيوط الفتحة من الخلف في بدلته!

ههههههههه..

إششششش...

أما ذلك الجالس فجواربه لا تشبه بنطلونه.. أنظر.. البنطال أسود وجواربه خضراء! يمكن لأنه في المنطقة الخضراء!

ههههههههه.

إشششششش..

ذلك النائب أنيق فقط. فرح براتبه الضخم. لا يهمه لو احترق البلد كله. يصور نفسه علمانياً لكنه يصوت للإسلاميين. وفي وقت ما كان يبيع البوظة في حي السيدة زينب بدمشق.

الذي يقف وراءه ببدلته السموكن كان في لبنان سنوات طويلة. لم يُعرف على أنه سياسي. يقال أنه على تماس مع الجيش السوري الذي احتل لبنان..

الذي على اليمين؟

هذا ذو جنسية بريطانية. عليه شكوك كثيرة.. طبيب فاشل وهو الآن مثل خطيب في جامع الحكومة!

هههههههههههه..

إشششششششش.

أظنك تعرف ذاك!

ذو البدلة الحنية؟

نعم هو.. أعتقد رأيته في "الجزيرة" يشتم ويسب جهة طائفية.. هو بالضبط يريد إشعال النيران في البلد.. هواه خليجي صرف.

الثاني ذو العمامة بالوجه الأملط يسمونه عربيد بغداد.. لماذا؟ لا

أدري!

هذا المقبل باتجاهنا صغير السن يستعرض نفسه أمام النائبات..

هههههه إششش..

تلك التي ترتدي بنطالاً ضيقاً تريد أن تكرّس نفسها بأنها حلوة ومرغوبة من النواب! **هههههه...**

إشششش..

أما تلك الغمامة السوداء فهنّ لنائبات إسلاميات جاء بهن نظام الكوتا الديموقراطي..

هذا الأنيق ذو البدلة البيضاء فجنسيته أميركية..

الذي يقف وراءه مباشرة فعنده جنسيتان لا أعرفهما.. لم يخرج من المنطقة الخضراء منذ ست سنوات!

والذي يقابله يسمي بريمر.. ريختر!...

ههههههه...

إششششش.

ذاك ذو الشوارب الكثة زار إسرائيل بشكل استفزازي فقتلوا ولديه..

هذه محامية تتحدث للإعلام بطريقة متعالية وأحياناً غير لائقة.. عموماً هي مكروهة..

هذان المقبلان باتجاهنا ندان سطحيان، لكنهما يستعرضان نفسيهما أمام المراسلين على طريقة اختلاف الرأي لا يفسد للصداقة قضية..

وذلك الذي يضع على رأسه عقالاً عربياً لا يعرف حتى اليوم هل أن العاصمة بغداد أم أصبحت نيويورك!

هههههههه......

إشششششش...

الرأس الأميركي

كان المعتاد أن يكون هناك "أنا".
لكنني أزلتها بعملية جراحية.

الممثل بوتر سيلرز

بوحمد. تمعّن في اللقطة جيداً وانظر إلى وجوه الصغار المنتصرين على الرأس الأميركي. كرة عظام جرّحت أصابعهم وقلعت أظافرهم. هذا الصغير الأملح الذي يتقدم جماعته ويسبقهم انظر إلى عينيه الغاضبتين وهو يركل رأس الجندي بشراسة ونزيف الدم يجر وراءه خيطاً لزجاً. عيناه تفسران الفجوة العميقة بينه وبين العالم. ضخٌّ نفسي يومي حوّله من صبي إلى لاعب جماجم. هذا مستقبل البلاد على ما يبدو وهذا هو الخوف الكبير من أن يتحول الناس إلى لاعبين في ساحة دم لا يتقنونها.

أعرف أنك ستأخذ الصورة غلافاً للعدد المقبل، لكن أرجو كتابة اعتذار لقرائنا، فلا تعوزك العبارة يا سيد الكلمات ولا تنقصك جمرة الشعر كي تكون العبارة بموازاة الصورة.

ضاقت نفسي بالمكان الثابت بعد أيام ثلاثة. كدت أخرج من أسوار المنطقة الخضراء إلى ساحات بغداد وشوارعها بعدما خف القتال في أكثر المناطق، لكن رندة أنبأتني أن هناك معركة في شارع حيفا وأن أميركيين حوصروا بين العمارات وفقدوا بعض جنودهم ولا بد من التغطية الفورية لمثل هذا الحدث. وجدت نفسي أمام الواقع، ربما تجلّت بي روح المغامرة وأنا أستبدل أسفاري من البحار إلى الحروب.

العجلة التي أقلتنا ضمت ثلاثة حراس أمنيين من شركة بلاكووتر.

أمهلونا ساعة واحدة فقط للتصوير ومراقبة الأجواء العامة لكن من دون التوغل إلى شارع العمارات الخطر. تبخر الناس في المكان ولم يعد هناك غير صليات متقطعة ولفائف دخان سوداء غليظة تتصاعد من وسط الشارع وحياة محتجبة وراء الأبواب والشبابيك المسدلة الستائر.

احتمينا بفراغ بين محلين مغلقين. كانت رندة تهيئ لاقطتها وتتحدث مع نفسها بصوت اسمعه: **هذه صورة حية لمدرعة أميركية أصيبت إصابات بالغة**... وكان مصورها يجتهد بسحب المعركة عبر عدسته إلينا. وقفت وراءه أنظر إلى الشاشة الصغيرة التي تنحصر فيها مدرعة تحترق. ثمة جنود يزحفون ويطلقون النيران إلى اتجاهات مختلفة، في حين كانت مدرعات التعزيز تغطي الشاشة الصغيرة. يتوزع الجميع بين فجوات العمارات وعيونهم شاخصة إلى أعلى. سحبتْ العدسة الصغيرة جزءاً عرضياً من العمارات الشاقولية المحاطة بالرصاص والدخان. ثمة امرأة قريبة تلوّح بيدها. لكزتُ رندة: انظري.. كانت امرأة تشير بيديها إلينا إشارات غير مفهومة. تتبعها العدسة وتجرها إلينا. ظلت الإشارات عصية على الفهم.. إنها تشير إلى الخلف ربما.. غيّرنا المكان إلى زاوية أكثر تصويباً عليها.. نفس الإشارة الغامضة كأنها استغاثة عاجلة. لم ينقطع الرصاص المتقطع. لم تتعب المرأة من الإشارة. كانت أماً حاصرها شيء ما كما يتضح. مرة بيديها ومرات بشرشف ملون كي تلفت أنظارنا.

لا أعرف إن كانت هي نوبة غير واعية اعترتني أم تقمصتني روح مخبولة في هذا الجو المخيف. عبرتُ الشارع الوحيد راكضاً وعيناي مصوبتان إلى المرأة تحت هاجس لا أستطيع تفسيره. يتلاشى صوتها في زحمة الدوي العنيف.. كانت يداها تشيران إلى شيء خلف العمارات. تمكنت من إخفاء نفسي بين طيّات حجرية متعاقبة بين أحد الفروع وعيناي تستبقان نبضي في الوصول إلى إشارة المرأة. من الممكن أن

أسـمع جلبة وضوضاء. تتبعتها كلص وكاميرتي الصغيرة مفتوحة وكنت منقطع الأنفاس لا أفقه حجم الخطر الذي كنت فيه. اختفت المرأة عني وأنا تحت العمارة، لكن إشـاراتها المتكررة انطبعت في رأسـي، كل ما كان يختلج في رأسي وقتها أن طفلاً أو طفلة في حالة خطر داهم.

عبـر جـدران الكونكريـت المتعاقبة يمكن أن تكـون هناك فتحات صغيـرة للمراقبـة. صِبيـان قليلون حذرون يهبطون مـن أبواب العمارات الخلفية تحت هاجس شـيء غريب ولعبة لا أفهمها. يتراكضون ورأس بشـري يتدحـرج بيـن أرجلهم الحافية. أنظر إلـى اللقطة جيداً يا بوحمد وسـترى رأس الجندي الأميركي الذي كان حياً قبل قليل كيف يتدعبل ويرسم خطوط الدماء بين الأقدام الصغيرة. أثارني الصبي الأملح بغضبه الثائر وقدميه المجرحتين. أيقنت أن رأساً أميركياً تحوّل إلى لعبة دموية وأن امرأ كبيراً سيحدث بعد ذلك.

رآنـي أحـد الصبيـة وأنـا أختلج لهـول المنظر وبشـاعة اللعبة التي يمارسـها الصبيان في سـاحة معركة. ارتجفتُ وتعرق وجهي. كل شـيء قابل للموت والفناء. تبادلت نظرات خاطفة معه، وبحسه الصبياني قادني بهـدوء، كأنمـا يريـد أن يشـعرني بالأمـان حينمـا أخرجنـي من تلصصي المرتبـك.. لـم يتوقف الصِبية عن مطاردة الرأس المقتول حينما رأوني، بـل ازدادوا عنـاداً وإصـراراً علـى أن يكونوا في مشـهد الصور المتعاقبة التـي أسـرعت بالتقاطهـا مرتجفـاً قبـل أن أعود بالسـرعة المتخفية ذاتها بيـن الجـدران والطيـات الحجريـة المتعاقبـة..كان بيننـا، أنـا والصبيان، تواطؤ عاجل لتوثيق لحظات متسـارعة من لعبة أكبر مني ومن الصبيان والعمارات.

سـحبتني رنـدة فـي آخـر خطـوة وشـعور بالإنجـاز يتملكنـي هذه المـرة. وددت لحظتهـا لـو أطير إلـى دبي يا بوحمد كي أكون أنا غلاف المجلة ولكن في لحظة التصوير المحتقنة وعينٌ واحدة تجتذب الرأس

المتدحرج بين الأقدام في عدستها الصغيرة، وعين أخرى مفتوحة على المكان بكل اتساعها الخائف والمراقب.

انغمرت بشعور من الارتياح السريع ما أن رجعت إلى مجموعة التصوير المرابطة.كأني هربت من قبضة محكمة وفي داخلي أسئلة حرجة ورؤى مفزعة. وكاميرا أصغر من قبضة اليد توثق انتصاراً مخبولاً على أسطورة وحشية، وتسجل وهماً دراماتيكياً على حقيقة مخيفة تمشي على الأرض بدبابات ومدرعات وجنود ومرتزقة.

أخفيتُ قصة الرأس عن رندة وفريقها الصغير. لم أقلق من السبق الإعلامي الذي قد تحظى به لقناتها، بل خفتُ عليها. أحياناً ندفع أرواحنا ثمناً للقطة عابرة. الرصاص الطائر أعمى وقاتل. رندة الطيبة التي لا تعرف أني التقطتُ اثمن ما في هذه المعركة السريعة بمغامرة طائشة لا أعرف كيف اندفعت إليها. امرأة العمارة كانت هي الأذكى حينما فهمت لعبة الحرب في الرأس المقطوع.. وكنت الأرعن المندفع بحماقة غير محسوبة.

الصور بين يديك يا بوحمد وحشد الكلمات لا يعني شيئاً سوى أنه من اختراعي في استعادة الدقائق الملغومة مع الرأس المتدحرج. الكلمات يا سيدي مثل أغلفة الرصاص المفرغة حينما تجد أنها عقيمة في مناغاة الصورة الكارثية، ولك أن تتأمل صورة الصبي الأملح، كما ترى، فهي الملخص القوي لما وصلت الحال إليه من وحشية وقسوة في ساحة دم لا يفقه أولئك الصِّبية عواقبها اليوم..

المعرفة والسلطة

معظم الناس هم أناس آخرون.

أوسكار وايلد

أرجوك يا بوحمد أن تضع العنوان على صدر المجلة. عرفت أن هناك مسرحية غريبة جداً سيسمونها **مسرحية القرية البوذية**، وهي مسرحية غير مألوفة في العروض التي نعرفها..

احتفظت لنفسي بهذا العالم الغرائبي وفي رأسي تتحرك ملامح سرد لا أعرف بالضبط كيف سيكون ومن أي اتجاه سينطلق. لم يثرني الإصبع الحي الذي ينتصب دائماً حسب ولا إصبعا الأستاذ المضافان إلى كفيه، لكن القرية بتشكيلتها الغريبة تثير بي شجوناً كبيرة وصوراً تنمو مثل الفطر السام في رأسي. يثيرني الناس المستعدون لتغيير كل مفاهيمهم الحياتية كارتداد على نكبة الحرب وقساوة الواقع واشتباك السياسي بالديني والعقلاني بالفوضوي والعميل بالوطني والوافد بالمقيم في تشكلات قضت على أمل كان الناس، على ما يبدو، أنهم فوجئوا بفوضويته الضارية.

اتصل بي الشاب المسرحي وقال إن الأستاذ يريد أن يكلمني:

"يبدو أن المنطقة الخضراء أخذتكم منّا يا رجل؟".

"هههههه هذه المنطقة فيها ساعات خروج ودخول وليس الأمر كالشيراتون..".

"طيب اترك تلك المنطقة التعيسة وتعال إلى قريتنا!".

"أعدك.. سأزوركم خلال اليومين المقبلين..".

"ليس هناك أسهل من أن أعمل لك بيتاً صغيراً بيننا وستكون أخاً للجميع".

"كلكم كرم وطيبة وشهامة..".

"لا تنس أن المعرفة عقل وليست سلاحاً.. ستكون سلاحاً للتنمية الثقافية وهي سلطة لا يعرفها الجماعة.. يتصوروننا فُتات موائدهم..".

"كلك معرفة أستاذي..".

"ولا تنس أيضاً أن تشرشل تنبأ مرة حينما قال إن إمبراطوريات المستقبل هي إمبراطوريات العقل".

"لا أنسى ذلك..".

"ما دمت في المنطقة الخضراء قل لهم أن باكون يقول أن المعرفة ذاتها سلطة وليست حاجة كمالية للّسان الطويل واللغة الفائضة والإنشاء المدرسي، لا كما قال ماوتسي تونغ أن السلطة تنبع من فوهة البندقية..".

"أنقل هذا الكلام لمن..؟".

"لقرود المنطقة الخضراء... هههههههههههههههه".

"ههههههههههههههههه".

وحتى موعد رندة كانت القرية تعيد صورَها في رأسي. وأنا أعيد تقليب أوراقها من جديد. الإصبع الحي الذي يتصرف كإنسان له رغبات وأحاسيس لم يفارق مخيلتي كثيراً. الكف الطائر وصحن المخلمة والقامة العجيبة التي تعيش بلا رأس، حالات خرجت عن الخيال الروائي ودخلت في مجرات العبث الخيالي حينما يكون هذا الأخير ورقة عبور لدهشة القارئ حسب؛ لكن صدمة الرأس - الكرة أزاحت شيئاً من غرابة الإصبع بواقعيتها المفرطة والشرسة جداً، وبين الحالتين ينسحق وطن كبير وتموت مصائر وتفترق الطرق بالأحياء المستسلمين

لما يجري.

قبلتُ بموعد رندة أن نقضي المساء في القاعة الأميركية كي أطرد هذه الأشباح والكوابيس والرؤى المدمرة. ثمة أجواء مغايرة كأنها تحدث في فنادق نيويورك. بار ومطعم وديسكو ورقص ونساء وغناء. تكفي باجاتنا كبطاقات للدخول بوصفنا في حماية الجيش الأميركي، غير أننا سندفع ثمن ما نشرب ونأكل مخفضاً إلى حد جيد.

بدت رندة اصغر مما كنت أتوقع. انفتحت تنورتها الفستقية على ساقين طويلتين تنتهيان بحذاء بلون ورق التوت تبرعمت في مقدمته وردة من قديفة باللون ذاته. وشفّ قميصها عن صدر متماسك اكتسب عطراً خارقاً، فانبجس وجهها كالارزة الناضجة. قلت لها ها أنك تصغرين الليلة كأنك عروس لبنانية.

بدت الصالة بأضوائها المتلاحقة خارجة عن عالم ما قبل نصف ساعة. وذاب الرأس الأميركي المقطوع في صخب موسيقى الجاز الصادحة والأرجل المتزاحمة. وامتزجت رندة وزميلاها في غيمة عطور تحف بالجنود الراقصين والنساء المقبلات بطائرات النقل التجاري هذا الصباح، للترويح عن وحشة الجنود المبتعدين عن ولاياتهم، لسبعة أيام؛ تُستدعى فيها المفارز القتالية المنتشرة في شوارع بغداد بجدول يومي منتظم. وكان المغني المغشوش خلف الأضواء المتقاطعة يلف نفسه بنجوم العلم الأميركي وينشد لبطولات الجنود بصراخ متين، تضخّمه سماعات كحنجرة مشروخة وسماعات أخرى متوزعة على أركان القاعة، على وقع دمّام ضخم لا علاقة له بإيقاع الموسيقى التي تملأ القاعة ضجة، غير أنه اعتاد أن يشحن الحاضرين بقصة البطولات العظيمة التي يسطرها جنود أميركا في قتالهم مع الأعداء، وعادة ما يفلّ نفسه من النجوم التي تلف جسده بحركات دائرية، ليفرش العلم الوطني بين ذراعيه بين صيحات الجنود وضجيج الموسيقى والتواءات الأجساد

المتعثرة في بعضها في سمفونية العزلة المتوحشة.

لـم تكـن القاعـة كبيـرة، لكنها مصممة كديسـكو متكامـل، يكتنفه الانفـلات والإغـواء لجنـود شـبقين وضعوا لهم الطُّعم من عطر نسـائي فوّاح ولحم نسائي لا يهم بأي لغة ينضغط تحت أصابعهم المتوترة.

كانـت رنـدة أكثرنا مرحاً وفرحاً فـي الجو المحموم. وأكثرنا قدرة على المطاولة الراقصة بين أركان المسرح المغمور بالأجساد والأضواء القويـة النافـذة بمتغيراتها السـريعة بين الانطفـاء والائتلاق، وفي الوقت الـذي عـاد فيـه الراقصـان المصـوران من عتمـة الضـوء المتكاثفة على فوضاهـا اللونيـة متعرقَيـن، وجـدتُ أنّ مـن المناسـب أنْ أراقص رندة، فقـد بـدت حقـاً أصغر مـن عمرها الثلاثينـي بتنورتها الفسـتقية الطائرة، فاسـتقبلتني بذراعيـن مفتوحتيـن كحمامـة ورديـة والتصـق عطرهـا بـي مختلطاً برائحة الأنثى الندية، في دوران غير متعب، لكنه يتغير مع تغير الموسيقى والمغنين المتناوبين ذوي الأصوات المتينة التي تخرق المكان كله، وكان وجهها عبارة عن ابتسـامة فسـيحة ورِقّتها طفولية متوازنة مع شخصيتها المحببة، وعذوبتها كعذوبة أنثى اسمها رندة.. لا غير.

بيت القارورة

لم أحمل معي غير كاميرتي الصغيرة وجواز سفري، حينما خرجتُ من أسوار المنطقة الخضراء في يوم بدأ الناس فيه يخرجون لابتعاد الخطر النسبي عن بيوتهم. تابعت تقارير متلفزة عن الحياة التي عادت إلى بغداد على نحوٍ ما وهي تعبر شيئاً من الخطوط الحمر في محاولة لجعل الحياة ممكنة بعد ظلام الميليشيات الذي أطبق عليها.

أكثر من حلم طائش استفزني الليلة الماضية. الفتاة الشعثاء تتردد في منامي دائماً، والكرة-الرأس تتدحرج على سريري والإصبع يفقأ عين الشعثاء والرأس المفصول عن القامة يبحث عن جسده وكف التنكة ينتفخ وثمة أطفال يتناوبون على التهامه. خاطفون ومخطوفون يترددون على المنطقة الخضراء بصفات شتى ومايكل يبحث عني وصديقه الوسخ يقتفي أثره.

بوحمد يحثني على وطني: **هذا هويتك فلا تكن مثل أبيك عاقّاً له.** ولورا تخرج من المتحف العراقي بيدها تمثال الملكة السومرية شبعاد وخلفها جوقة طبالين حفاة. وثلّة من وجوه ممسوخة تختطف رندة من شارع مكتظ بالناس وأنا عاجز حتى عن الحركة. والرأس الذي يتداوله صبيان شارع حيفا بأقدامهم ينفجر عليهم.

أكثر من مسج بعثت لي ميريام ليلة أمس. باعدتنا الشهور على غير ما نتصور. نومي قلق إلى حد بعيد منذ واقعة الرأس الأميركي. سهرت رندة معي وكنا نجتر الأحاديث والأخبار ونتقاطع في تصوراتنا عن مستقبل البلاد والعباد. قرأت لي شيئاً من شِعرها الغزلي واختبرت معرفتي بأنواع عطرها. وحدثتني عن الحرب الأهلية التي أكلت الأخضر

واليابس وفرّقت الناس إلى شيعٍ وعصابات وكانتونات طائفية ما تزال تلقي بظلالها على الواقع السياسي في لبنان.

المقهى الصغير ثانية. ألقيتُ بجسدي المتثاقل على القنفة المترجرجة غير مصدق لبواطن القرية وحيواتها السرية المختلفة. رائحة الهيل تجذب طالبين جامعيين لاحتساء الشاي المهيّل، والشاب المسرحي استأذن لوقت قليل يتفقد أخاه الإصبع.كان الأستاذ يأتي هو أيضاً إلى مقهى القرية. أغلقت الكاميرا وأدخلتها جيبي. فالصور ثمينة في لحظات التقاطها العفوية، وكثيراً ما أفاجأ بدقة التصوير لبعض اللقطات حينما أراها على شاشة الحاسبة. لكن قارورة الرماد أتعبتني بثقل حركتها، بل أتعبتني بغرابتها.

قال الشاب في صباح اللقاء أن الحرب ابتعدت نسبياً عن مركز المدينة واتجهت إلى الأطراف المذهبية! أضحكني وصفه المشاكس ونحن نقف خلف المتحف العراقي الذي روى لي، بطريقة سريعة، قصة نهبه من قبل الأميركان ولصوص المتاحف وأفرغوا أهم ما فيه من آثار ولقى.

أفطرنا بيضاً مسلوقاً وشاياً أسود بخبز التنور. وكانت الأجواء في المكان تشي أن الناس بدأت تتحرك من محابسها القسرية وتتجه إلى أعمالها ولو بشكل بطيء. ثمة فتيات يعبرن الشارع متلفعات بالحجب الملونة ورجال يقتنصون الوقت لفطور سريع وشاي ساخن.

اقترح أن نمشي بعض الوقت حينما تكون هناك مفارز عسكرية وسيطرات شرطة لضمان الأمان الشخصي في فوضى المدينة. كانت لي فرصة أن أرى هذا الجانب منها. أحسست كأن شيئاً ما بداخله يحكي معه. لا يميل صاحبي إلى الكلام كثيراً. أَسْتسلمُ لشعور من أنه مكتظ بالأفكار الغريبة؛ لهذا تهيأت لكل فكرة سيطرقها الآن أو حينما سنصل إلى قريته. قال لنضمن وجود الأستاذ في القرية فهو مثل الشبح لا يستقر

على حال.

لم أرفع نظري عن إصبعي الأستاذ الزائدين برغم قرفي من وجود زوائد في جسد الإنسان. يتغير كل شيء هنا فالحروب تكشف الشاذ من الطبيعة. قال الشاب لي شيئاً عن البيت الأزرق. فازدحم رأسي بقواعد لعبة جديدة غريبة الوقع على من يريد أن يسمعها. لا يمكن لميت أن يتحول إلى رماد ويبقى حياً! قد تكون هذه ألعاباً سحرية رأيتُ مثلها في القرى الهندية. الحواة قادرون على ذلك بمهارات غير منظورة وطاقات عجيبة بأن يحولوا السنجاب إلى قرد والغيمة إلى فِراش.. والوردة إلى امرأة.. لكن!

يتحدث الأستاذ للطالبين الجامعيين: الشكوك لا تبني ثقة حميمة بيننا، هكذا يقول بوذا لأتباعه عندما يتملكه إحساس بالشك من الآخرين لاستيعاب تعاليمه ووصاياه ومنطقه الإنساني.

يصمت الطالبان ممتثلين بروح التلاميذ الصغار... **المعرفة وسيلة الصمود بوجه فساد الحياة.. وقيمة المعرفة أنها تتجدد كل يوم وتمتلئ وتفيض وتمتلئ وتفيض وتمتلئ وتفيض..** قولوا للساسة الصغار أن الثقافة سلطة أيضاً وأن عصر الاتصالات الجديد لا يحتمل أميين يفسدون الناس بفتاوى الجاهلية.. قولوا لهم أننا في العصر الجينومي الذي اكتشف الخريطة الوراثية للجنس البشري والعالم يتسابق إلى المستقبل.. **وأنتم شوفوا الفرق بين النعجة دوللي وأبو مصعب الزرقاوي.. ههههههههههههه.**

يضحك الأستاذ ويربت على كتف أحدهما. ثم يستأذن مغادراً إلى البيت الأزرق.. سأنتظركما هناك وأنت أصبحت واحداً منا.. يقول لي.

غادر الجامعيان المقهى وبقيت أتطلع إلى حركة الناس المتخاطفين من أمام المقهى. هذا اليوم دخلنا من بداية القرية بعد نهاية جسر كبير وعبور بنايات قديمة. اندفعنا إلى جهة النهر. كنت أرى القرية راكدة

كأخطبوط وأرى راياتها الملونة المتكاثرة كأنها فيلق أثري من فيلم جاهلي. ثمة منارة صغيرة تكاد لا تُرى بسبب زحام الرايات حولها، لولا عدسة الكاميرا التي قرّبتها لي بشكل واضح.

قال صاحب البيت الأزرق وهو رجل خمسيني وجدته متضامناً مع قدره:

- **ما حصل قد حصل. إنا لله وإنا إليه راجعون.**

- **وماذا حصل يا عم!** أتساءل بدهشة.

استدق طيفٌ من الدموع على حافات عينيه وتبدل من شكله المتضامن مع قدره الشخصي إلى شكل سائب ومنهار إلى حد ما:

- **أحرقوها في الأعظمية! هذه هي القصة كلها.**

تدخل الشاب حينما رأى الرجل يكاد ينهار. اشتعلت الذكرى في رأسه الأشيب فاستحضر الفجيعة:

- **كما قال العم. أحرقوا ابنته الوحيدة واتصلوا به من هاتفها النقال وأعلموه بمكان الحرق قرب ساحة عنتر.. ذهب الرجل مسلوب الإرادة ولم يجد ابنته المحترقة. وجد كومة رماد مغطاة بورق جريدة.. قالوا له هذه هي ابنتك.**

تدخل الأستاذ النحيف:

- **كان هناك سباق بين الناس وبين الميليشيات وعناصر القاعدة للإمساك بالحياة وهي في آخر أنفاسها. من يريد الحياة ومن لا يريدها! إن كنتم تريدونها سوداء فنحن نريدها بيضاء.. وكل ما قاموا به لم يمنع الناس من الخروج إلى الدوائر والجامعات برغم من صعوبات النقل والاحتمالات السيئة كلها..**

أشعل سيجارة واستطرد:

- **هذا صراع من أجل البقاء. هذا خيار الناس أن تعيش مثلما**

تريد. حاولوا قتل الشارع بكل وسيلة. تصرفوا كالمجانين. قتلوا وذبحوا واختطفوا وأربكوا الحياة بشكل عام، لكن ذلك لن يجديهم.. هذه الشابة واحدة من ضحايا الأمل..

انسدلت دموع الرجل الخمسيني وهو يشير إلى مسند خشبي يقع أمامي على الحائط غير المصبوغ وفوقه قارورة صغيرة من تلك القوارير السمكية التي نربي بها أسماك الزينة. شجعني الشاب أن أصوّر القارورة الصامتة. ومن مكاني سحبها الزوم لي ووضعها أمام عينيّ. ثمة رماد يغطي نصفها وقد أقفلت بسدادة بلاستيكية سوداء. وهذا كل ما رأيتُهُ.

- **هذا ما تبقى لي من ابنتي..** أجهش الرجل بحرقة..

أكمل الشاب وهو يؤازر الخمسيني:

- **جلبوا الرماد من دون أن يعرفوا من أحرقها ولماذا وكيف!**

تنهّد الرجل الخمسيني. تأكد من سلامة حنجرته وهو يتنحنح:

- **كان علينا أن ندفن رمادها في مقبرة الكرخ. وكان الأمر مضحكاً ومؤلماً. استشرنا بعض المشايخ في مساجدنا: هل ندفن الرماد ونقول هنا الميتة اسمها فلانة بنت فلان. هل حصل أن أحداً دفن رماداً وقال هذه ابنتي!**

أكمل الشاب:

- **كنتُ وقتها أعاني من تشنج عصبي لا أعرف مصدره حينما ألحّ أخي الإصبع أن يكتب شيئاً. امتزج إصبعه بإصبعي وخطّ أن هناك رماداً في الأعظمية لم يمت بعد أسرعوا قبل أن يدفنوه.. وكرر الأمر أكثر من مرة.**

أطلت امرأة خمسينية مجللة بجلباب أبيض طويل يغطي كل جسدها وبين يديها صينية عليها ثلاث استكانات شاي. وقفت أحييها متردداً. ونهض الشاب يحمل الصينية منها. لا أستطيع رصد الحزن المتجمع في عينيها، فقد كانت اللحظة متشظية بين القارورة الصغيرة

والحزن البشري المتجسد في رجل وامرأة أنجبا رماداً حياً!

خرجت المرأة من دون أن تقول شيئاً، وأكمل الشاب:

- كان تخاطراً غريباً. ولأننا نتعامل بجدية كبيرة مع أخ متحول قضاء وقدراً أيقنّا أن سراً جديداً من الأسرار يوجهنا إلى فعل ما. وهكذا تداركت الأمر مسرعاً إلى مستشفى النعمان. حتى التقيت هذا الأب الطيب، وكان الذي كان.

كلما أجد فسحة صغيرة أمد رأسي لأتطلع إلى الفضاء البعيد وأهمس لنفسي: هل حقاً أنا في بغداد! كلما توغلت أجد أن الحياة هي ما يستطيع الإنسان أن يبتكرها في ظروف استثنائية كظروف الحرب. فالمرأة التي تخبز الخبز وسط الدكاكين تشبه تلك المرأة التي تعرض دجاجها في سِلال خشبية، وبائع الحلويات العجوز يتماسك مع نفسه إلى حد أنك ستلمس أطراف دموعه في عينيه في امتثاله لمتطلبات حياة هربت من يديه في لحظة غدر ما كان يتوقعها. والمحل العريض الذي صار سوقاً للخضار يشبه نظيره في نهاية القرية وهو يبيع الأدوات المنزلية الصينية، وكلا البائعين يمكن أن ترى في وجهيهما أسىً مدفوناً في واحدة من القوارير التي تباع في سوق الأسماك.

مثل هذه الأحياء وجدتها في نيودلهي القديمة وومباي وسيلان.. بيوت الصفيح وجدران الورق ومعابد السيخ الصغيرة الزينة بحلقات دائرية وزخرفة المعابد الهندوسية برسومات الخنازير والأفاعي والطواويس والأبقار والجرذان. سعادة الأعياد في الديوالي الهندي الفاخر، والأبقار تعيش في شرفات البيوت في "منالي" والفقراء الذين لا يجدون سكناً يفترشون الأرض، فالأرض لله والقصور للسلطان والهواء للجميع. وفي الهند يعيش الفقراء في عربات دفع خشبية يحملون الآلهة أينما يولون وجوههم، فالإله يحتاج هو أيضاً إلى الطمأنينة والسلام مع الآخرين. أزهار اللوتس للبوذيين بمعابدهم المجنحة والكنائس القليلة

والرايات الملونة بشرائط الزينة، حتى ليبدو المعبد كرنفالاً من الألوان المتكاتفة بالرغم من نفورها لشدة سطوعها. لكن روحها حيّة بروادها المؤمنين أو الواهمين، فالآلهة بالنسبة لهم خلاص أكيد من الشرور. والرايات أرواح متطامنة تضفي البهجة والمسرات.

وأنا أكتب لك يا بوحمد متشظيَ الرأس. تعتريني الكآبة من جهة ويشدني العزم من جهة أخرى على أن أرى ما لم تره العيون وتطرقه الأقلام وتصحّفه الصحف وتقوله الألسن. فلبيت الأزرق لغة رماد تتحرك في القارورة. والأب الطيب الذي هجر منزله في الأعظمي استكان لهذه القرية مع ابنته الوحيدة في قارورة الحياة. جميلٌ أن لا يتبخر أبناؤنا في الموت وتبقى لنا صِلاتٌ يومية في تحولاتهم الغريبة. هذه من نِعَم الحرب! هكذا يقول لي الأب صاحب البيت الأزرق بعد إن هدأ.

لا بد من الانقياد إلى آخر اللعبة يا بوحمد؛ فالسحر أكبر من هذا، لكني أقول في سريرتي اللهم لا تؤاخذني على شكوكي ولا تقطع عني سبيل الحقيقة، فالذي يحدث في القرية اكثر غرابة مما كان رأسي يصوره لي.

قال الرجل ورجفة خفية في صوته:

- آخر قميص كانت ترتديه ابنتي كان لونه أزرق. كانت تراجع الكلية.. أمها يمكنها أن تفرز ذرات قميصها الزرقاء ذرة ذرة وتشكل منه قميصها.

الأفندي الأشهب قال إن اسمه جرجيس ويسكن الحي منذ شهرين. أشار إلى بيت لم أره قائلاً: هذا ما حصلت عليه من خدمة ثلاثين سنة في هذا البلد الميت بعدما فقدت زوجتي. لا جثة ولا هم يحزنون. أخبروني أن زوجتي قتلوها في الكرادة... لأنها مسيحية على ما يبدو.. آمنت بالله وبكيت وهجّرت ما تبقى من أولاد وبنات.. هم

الآن في السويد.. خالهم يرعاهم.. استولوا على بيتي..

طلب الأشهب لي شاياً قبل أن يغادر المقهى.

دفع ثمن الشاي لي وأوصى بشاي ثانٍ قائلاً لصاحب المقهى: **لا تأخذ من الغريب العائد إلى غربته!**

ثمة "ماء سبيل" في حِب فخاري متوسط الحجم، التفت عليه قماشة سوداء من السهل قراءة شعارها التاريخي، يتناوب الصغار بالشرب من طاسة نحاسية مربوطة بسلسلة لها وقع الخراخيش. تتصدر هذا الحِب دكة صخرية ارتفعت قليلاً عن أرضية الحي.

فواصل القرية النازلة من ظهر الشارع اجتذبتني لغرابتها. بيوت صغيرة متداخلة مع بعضها. تلك الفواصل كأنها أنفاق مفتوحة. كثيرون تركوا المجال لي بالتصوير المتعاقب. والشاب يتحدث لبعض الرجال والنساء الذين تكتظ بهم الأنفاق.

اشتريتُ قميصاً جذبني بلونه الليموني. قالت المرأة التي تبيعني القميص: كأنك غريب يعود إلى غربته! تلاطفت معها ودفعت لها الثمن وحملت الكيس، مكملاً طريقي مع الشاب وسط الجموع. وأعيد كلام امرأة القميص "كأنك غريب يعود إلى غربته" ولم تقل "من غربته" التفتّ إليها لكن الرؤوس حجبتها عني. أعدت كلام الأفندي جرجيس الذي أكرمني بشايين.

أنزل الرجل القارورة الصغيرة متمهلاً كما لو يخشى إيقاظ رمادها فأخرجت كاميرتي لاصطياد هذه الغرابة:

- **هذه ابنتي!**

استكانت القارورة على منضدة تفصلنا نحن الثلاثة.

قال الخمسيني:

- **الآن هي نائمة. البارحة سهرت كثيراً وكانت تتألم!**

تدخل الشاب:

- عندما تريد شيئاً فإن الرماد يتحرك ويرسم خطوطاً في باطن الزجاجة، وفي غضبها تكاد القارورة تنفجر لذلك ثقبوا سدادتها ببضعة ثقوب لامتصاص غضبها!

- **هل تسمعنا الآن!** تساءلتُ..

قال الرجل الخمسيني:

- لا بد أن وجودنا أيقظها...

تململ الرماد كموجة ضعيفة. تحركت ذراته العلوية كما لو أن ريحاً خفيفة مرت عليه. رماد مطحون كالقهوة ترك بي قشعريرة باردة. شعرتُ أني في بيت يسكنه سحرة مجربون. ذات الإحساس الذي تشكل بي في بيت الإصبع. جو سحري غرائبي ينبثق من القارورة كما انبثق من الإصبع ذات نهار. يتحرك الرماد كما لو يتمطى. كانت حركة علوية تتموج تلقائياً كجسد يشعر بالتعب. ثم تمدد الرماد وتقعّر نسبياً.

- **نهضت.. جائعة بلا شك!** تمتم الأب.

ينتفض الرماد ويتخلخل، فترتسم على وجه الأب الخمسيني فرحة طفل حتى كاد ينفجر من الفرح.

- سترسم علامة على الزجاجة لتبيّن حالتها الآن!

قال الشاب مطمئناً.

تستطيع يا بوحمد أن تعيد رؤية الصور المتتالية على مهلك. انظر إلى حركة الرماد لتعرف أن هذه الشابة حية كالإصبع وكالقامة مقطوعة الرأس. ألا تصدق! سأبعث لك فيلماً قصيراً عن هذا.

كنت أنظر في لحظات استيقاظها إلى شابة جميلة في مقتبل عمرها. هذه نار خفتت على جسدها بعدما أشعلته نيران الأعظمية. هذا رماد حي. يتحرك. يفهم. يعيش يومه كما نعيشه نحن. يتألم ويفرح. مثلك

لـم أصـدق اول الأمـر، حتى خلتني أمام تجربة سـحرية فيها مهارات لا نراها في العادة، غير أن هذه القرية لم تتشـكل بالسـحر يا بوحمد. لقد تشكلت من بشاعة الحرب وقسوتها.

قال شاب المسرح لي ذات مرة: تشكلت القرية بعد عودة الأستاذ من الخطف. وكنا من أوائل البيوت التي سكنت بعده. قصة أخي العائد مـن قبـره حفـزت بعض الناس القدريين أن يحولوا بيتنا إلى مزار. لكننا هربنـا مـن البيـت، فالمدينـة لا تتحمـل مـزاراً آخر بعـد الاحتلال لكثرة المزارات فيها. لا نحتاج إلى فضائح أخرى. لسـنا سـادة ولا ننتمي إلى رؤوس دينية معبودة الجماهير. إننا من نسل هذه الأمة الحمقاء.. أخذت والدتـي وأختـي وهربنـا إلى هنا. تَبِعَنـا بعض الناس وبنوا مثلنا بيوتاً من الصفيح هاربين من أقدارهم، ليكونوا بجوار معجزة القدر التي انبجست من حربٍ ملعونة. قلنا لهم إننا ناس بسطاء وجياع مثلكم. لكنهم يردون أن الله جعل معجزاته ڤي ناسه البسطاء.. فروا إلينا تاركين حتى عباداتهم مناشدين قريتنا المتواضعة: بينكم المستنير فاجعلوا منه مثلاً ومثالاً هذا الغنـي الـذي ترك غناه يسـعى إلى غنـى الروح في زهده للحياة.. صحنا بأصوات سمعها القاصي والداني: أيها المبتلون بحرب الأخوة الأعداء. العاجـزون عـن الحيـاة الدامية. لم يكن واحدٌ منا محمداً ولا هروناً ولا عيسـى ولا موسـى ولا بـوذا. إننـا مثلكـم بشـرٌ أكلـه الرصـاص وأهانته المفخخـات وجعلـت الأحزمـة الناسـفة نهاراتـه ولياليـه حمـراء. ابتلينا بالحـرب ورؤوس الفتنـة فيهـا. يريدون حرق نسـلنا كي لا نبقى شـهوداً علـى الـزور وقطـع ألسـنتنا كي لا نصيح، فهربنا بشـواهدنا إلى هنا لعل الله يرى لنا مخرجاً وسبيلا.

يميل عليّ الشاب كأنه يقرأ رأسي:

- بعد قصة الرماد والقارورة هرب الناس إلينا من جديد وجاورونا متوخيـن الأمـن والسـلام. قالـوا هـذه هي قريـة الخلاص والسـلام. فما

يحـدث هنـا ليس مصادفة كما يقولون.. قلنا للناس يا ناس انتهى عصر المعجـزات وهـذه مصادفـات وخيـالات وأشـواق وأمنيـات. ردوا علينا بأصـواتٍ أعلـى: للحـروب معجزاتهـا أيهـا الشـاب الطيـب وقـد وطّننا العلـي القديـر هنـا كـي نكـون على يقين أن هذه القرية البائسـة سـتكون بـذرة الأمـان.. وليكن الأسـتاذ جامعنا تحت راية الـرب بألوانها الخفاقة ولمعانهـا الزاهـي وليذهب الطائفيون والمذهبيون إلى جحيم الشـياطين. ولتعش بسلام قرية المظلومين.

هبطنا إلى ساحل النهر المغطى بالنبات. في الجزرة القريبة صِبيان يقيمون بيوتاً قصبية من قصب النبات الذي يغمر الجزيرة. ونساء اخترق الماء ثيابهنّ ورجال يصطادون السمك الصغير. صورتُ سمكة رصاصية صغيرة عالقة بسنّارة أحدهم كانت تتلوى في الفضاء كقطعة معدنية.

لفتتنـي تـلال صغيـرة حاولـت أن تكـون أعلى من مسـتوى النهر. وجّهت عدستي صوبها والشاب يقول: وجدنا قبل أسبوعين ثلاث جثث لرجلين وامرأة تطفو على الجرف. ورأى صبياننا جثثاً أخرى وسط النهر منتفخة يجرفها الماء الجاري إلى أماكن بعيدة.. أخبرنا الشرطة لكنها لم تفعل شـيئاً سـوى أنها صورت الجثث ومضت. فدفناها هنا لمن يسـأل عنها مستقبلاً.. كثيرة هي الجثث التي تمرق من هنا..

رجعنا من النهر ودخلنا أحد فروع الحي النازلة من ظهر الشارع. روائح لعطور رخيصة وخمة. بائعة سمك تنادي على بضاعتها، وعجلة بيـك آب تقـف فـي فم الحي وفي حوضها خراف بيض وعنزتان وكلبٌ قفز إلى الأرض يتشمم الهواء ورائحة النهر.

قـال الشـاب وهـو يقـف أمـام باب خشـبي أزرق متـآكل إلى حد واضح:

- **هذا هو البيت الأزرق!**

المخطوف

اتصلت رندة ثلاث مرات ولم أجبها بسبب ضوضاء القرية وانشغالي بقارورة الفتاة ورمادها الحي. وصلتني منها رسالتان ولم استطع الرد عليهما. ومع أول المساء أدركت استحالة الرجوع إلى المنطقة الخضراء بسبب انغلاق الطرق. اكثر من بيت طلب ضيافتي. رجال محبطون وآخرون متوازنون لم أرهم من قبل قالوا: بيوتنا مفتوحة لك.. تفضل.. نساء القرية فتحن أبوابهن لي من غير حرج. غير أن الأستاذ ضيّفني في نهاية الأمر لأكون بمعزل؛ ولأول مرة؛ عن حاضنتي الصحفية ومَن تعرفت عليهم في الشيراتون أو المنطقة الخضراء في قرية غريبة الملامح والأوضاع كأنها لا تنتمي إلى العصر البغدادي المثقل بألوان الطيف الشمسي التي أعمت عيون الناس.

عاتبتني رندة منذ الصباح الباكر. أيقظني رنين الهاتف.. **قلقنا عليك يا أخي. رُد على الاتصال كي نطمئن..**

شكراً رندة أيتها الطيبة الوفية. أنا على سطح سفينة أرى بغداد بشكل أفضل.

شو أنت بتحلم.. وينك؟ اصحَ..

يذكّرني هذا الليل المخطوف برحلة إلى أعماق بحرية قمت بها مع شبان إماراتيين مولعين بالصيد والمغامرة. استغرقت أيامنا الثلاثة كل طاقتنا ولم نصطد شيئاً. كان ليل البحر غريباً. ظلام مخيف لا ترى فيها إصبعك، وأمواج مفترسة تهاجم الزورق من الاتجاهات كلها. ليل البحر نجوم وفيرة لا يمكن أن تستوعبها العيون. سماءٌ مرّقشة بمصابيح بيض لمّاعة تتزاحم في ذلك البُعد اللامتناهي كأنها حبات مطر يطير إلى

الأعلى ويستقر في صفيحة سوداء.

أمضيتُ ليلتي على سطح البيت. اقترح الأستاذ أن نكون قريبين من الله. كانت بغداد من على هذا السطح المترجرج ملقاة في جُب حالك السواد. انطفأت أضواؤها وعامت في بحر مظلم. كان دجلة يخر خريراً مريضاً بقياس البحر العملاق الذي كنتهُ في رحلة الصيد الوحيدة. ولم تكن أصوات متفرقة لإطلاقات مبعثرة تفي لخلق حياة جدية في هذا الليل البهيم.

قال الأستاذ وهو يتطلع معي إلى الحياة الراكدة في المدينة:

- هذه مدينة للموت لا للحياة. حوّلوها إلى مقبرة بدراية تامة وتخطيط متقن.

قلت:

- في الأدبيات التاريخية والاجتماعية يقولون أن المدن الأصيلة تنهض من موتها دائماً.

زمجر الأستاذ مستاء:

- هذا إنشاء أدباء مفلسين.. لماذا نجعلها تموت لكي تحيا بعد أشواط طويلة من الذل!

ثلاث ساعات حسبتها وقتاً قصيراً يا بوحمد في ليل غريب وسطح مائل يهتز من الرياح الخفيفة. والأستاذ البارع في جعل القرية حقيقة يعيشها الناس بتوازٍ ومقبولية مشتركة. ففي الحد الأدنى من الحياة هنا لجأ الناس هاربين من الأحزاب والانتخابات المزورة والدماء والشلل الدينية الوافدة، والأستاذ يخطب بهم من المقهى: لم تُرَق ولا قطرة دم واحدة طيلة خمسة وعشرين قرناً من تاريخ البوذية لأنها إيمان بأن الحياة للصالحين والمضطهدين والفقراء والباحثين عن السلام والحقيقة الإنسانية المشتركة بين الجميع.

يعصف الأستاذ بالجموع الصغيرة في المقهى فيدير الرؤوس

المحنطة إليه، فأنسى رندة والمنطقة الخضراء مكتفياً بالقميص الليموني الذي ابتعته صباح أمس.. **كل واحد منكم هو الحقيقة والسلام والطمأنينة، ولا تدعوا أنفسكم رهائن نصوصكم، فالدين للكنيسة والمعبد والجامع.**

أتلفّت إلى أي اتجاه يقع نظري عليه، فما زلت اذكر تحذيرات لورا المتكررة في أول إقامتي في الشيراتون، وهذا الأستاذ المفوّه يكسب قلوب الناس بشطارة خارجة عن إرادة الرصاص المتناوب على المدينة والعمائم المسلحة التي تجوب الأحياء والطرقات ودوائر الدولة بطريقة مجنونة، كأنما يريد أن يمسح من الرؤوس تواريخ الناس وانتماءاتهم الفطرية وثيابهم القروية؛ غير أن الأمور كانت تسير بشكلها الممتع والغريب طيلة إقامتي هنا.

إذا كان الدواء صالحاً فالمريض سيشفى، الشك ليس خطيئة، لكن الشكوك لا تبني ثقة حميمة بيننا.

حدثني عن اختطافه من قبل ميليشيات مسلحة بألم: **شعرتُ بذل لا مثيل له وما زلت اشعر به حتى يتغير هذا البلد ويلفظ كلابه وذئابه وأذنابه.. هذه بلاد خرجت عن تاريخها وأدخلوها تاريخاً من الفساد..**

كان وقع الكلمات يرتطم بالحقيقة المرعبة التي عاشها الأستاذ بشخصه في رحلة الخطف المهينة: كنّا في الجامعة نواجه المد الظلامي الذي انتشر كالسرطان بين الصفوف. ولكن لم يكن بعضٌ من طلابنا على قدر الوعي المطلوب ولا أخلاق العشيرة التي كانت فيهم. انتبه.. أقول البعض.. الآن يعتصر قلبي حينما أقول لك أن ثلة من الأساتذة كانوا معهم في كفة الفشل. لبسوا بدلات الغرباء وساقونا كالأغنام بشعارات كانوا يبصقون عليها يوم أمس.. كانوا فاشلين ومنحطّين فحملوا رايات غيرهم وملأوا الجامعة بشعارات مختلفة لا نجهل مصادرها.. **يا شباب اتقوا الله.. هذا حرم جامعي لا تجوز فيه استباحة الدماء**..كنت أرفع عصاي وأطاردهم كما يطارد الذئب غنم الرعاة.. أفيقوا أيها الكلاب..

أنتـم تخربـون حيـاة النـاس.. أنتـم إمّعـات وليـس الدينُ دينكـم.. كنت أقـف فـي بـاب الجامعـة كالمجنون وعصـاي أطول من قامتـي وعيناي مشـتعلتان بالنار والشـرار. أرفعُ يدي هذه المرة لأصفع لا لأكتب كما كنت أفعل بمهنيتي المعروفة.. ويوم قتلوا أستاذ البايولوجيا؛ وهو روح الجامعة؛ أيقنتُ أننا ضعنا، وتلاشت شهادات العمر في مَسلح الأحزاب الجديدة.. سحلوه أمام طالباته كالنعجة وهو صامت مفقود العقل وفاقد النطـق لهـول مـا يجري له. قتلوه برصاصة تحت سـارية العلم مُنشـدين نشـيد النصـر الأعظـم بلثغـة أعجميـة لم أسـمع بهـا من قبـل.. وحينما تناقـص أعـداد الأسـاتذة بين الخطـف والقتل والهجرة، وتـوارى الطلبة في بيوتهم مصابين بالذعر، يائسـين ومنكسـرين، بقيت كلاب الحارات تقود الجامعة وتلطش حيطانها بأصباغ وسخة وترفع على أسوارها صوراً لغرباء ومعممين وأفندية وسياسيين وسلاحف نافقة وذئاب مسعورة.

تكلمـت مـع الأميـركان فردوا عليّ بوقاحـة: ما جئنا لهذه الصغائر فلدينا مهمات جسيمة أكبر من هذه..

صرختُ بهم: **أيها الأوغاد الأنذال هذه ليسـت صغائر.. هذه روح البلاد وأفقها المضيء وصيرورتها المقبلة.. هذه أجنّة المسـتقبل وجمرة الشباب العراقي..**

وعندمـا اسـتنفدت طاقاتي كلها وحيلـي كلها ومهنيتي كلها ذهبت إلـى القضـاء أشـكوه غربـاء الجامعة التي بنيتها على يدي سـطراً سـطراً ومختبراً مختبراً، وأحفظ أسماء أجيالها من الطلبة واحداً واحداً وواحدة واحـدة طيلـة خمسـة وعشـرين عامـاً.. أنـا البروفسـور فـلان الفلاني.. أشـكوكم.. هههههههههههههههـه أنـت مجنون يا بروفسـور.. تغيرت الدنيـا وأنت تبحـث عن طابوق الأمس... هههههههههههههه وصفوني بالمجنون والعاهر والمتكبر والغشيم والفاسق والمخبول، عندها وقفت في منتصف الشارع، وبعدما تملكني اليأس وفقدت الأمل، خاطبتُ الله

بأعلى صوتي أمام الملأ:

أينك أيها الرب العظيم! هل أنت حقيقة تمشي في عروقنا أم أنك وهمٌ تطبّعنا عليه ببلاهة القرويين؟ هل نحن دجاج أعمى يرعى في الحقول أم بشرٌ أودعتَ فينا أسراركَ وقوتكَ ومهابتكَ! هؤلاء خرقوا ذاتك وانتهكوا ستر بناتك وكشفوا عورات نسائك. أفِقْ أيها الرب وارحمنا برحمتك وقوِّ ذاتك فينا كي نكون عند حسن ظنك، فهؤلاء جاءوا ليذلون هيبتك فينا ويكسرون أنفك فينا ويشلحون ثيابك فينا ويأكلون لسانك فينا ويقيمون مآدب الدم على جثتك فينا.. أينك أنت أيها الرب، العظيم، الباقي، الثائر، المتعالي، المغرور، المتطاول، القوي.. أينك من أمة تأكل ألْسِنة بنيها ومن بشرٍ يتكلمون بأنيابهم ويكتبون بأظفارهم! أينك من ذريّة صعقتها أختام الكهرباء وذوبت فيها روح الرب العظيم! أينك أينك.......

كان الأستاذ في أعلى نوبات صراخه وبكائه كأنما حضرتْ تلك اللحظات المشحونة بالمخيف والمفزع منها. تقاطر الدمع من عينيه وهو يلهث. استعان بالظلام ليوقف غزارة دموعه المصبوبة على خديه. أصابتني لحظة رعب في استقبالي لتلك الصور المتراكضة في ذاكرة الأستاذ وهو يجهش متحولاً إلى كائن مختلف في ضعفه وانهياره الجديد.

أتخيله الآن خطيباً مدوياً يعاتب الله ويناجيه بلسانٍ مكسور وقلب معذب وصدر لم يحتمل كثيراً من الإقصاء. أتخيله يطارد الظلام في الصفوف ويشعل الشموع لطلبته في بيوتهم كي يعودوا لينتصروا، لكن الخيال عندي بات وهماً في الأحيان الحرجة ويتوقف في بوابة السلاح التي غيرت كل شيء. كان الواقع أطوافاً من الصخر كما يمكن لي أن أبني عليه صوراً عدة وأنا استحضر جهاد الأستاذ في نوباته المهنية التي عصفت به.

يتحرك السطح تحت رياح خفيفة تهب بعد منتصف الليل. كل شيء ساكن باستثناء الأستاذ الذي تحتبس في صدره ألغام متصلة. كنت أتماسك لحظتها وأوطّن خجلي وإحراجي على نحو ما، متلفعاً بالظلام واحتقان الأستاذ الذي انتبه إلى نفسه في لحظة مناسبة.

قال من بين نشيجه:

- هذا هو الخراب.. يستمر..

وقف يتنشق هواء دجلة. كان شبحه يتطاول. أشعل سيجارة فتراقص هيكله لحظات وانطفأ. قال:

- كنت أعتقد أن الاحتجاج الصاخب سيغيّر القناعات ويعيد الحياة إلى الصفوف.. حتى الرصاصة التي أخطأتني تناسيتها وقلت لنفسي هذه رصاصة فوضى لا تقصدني..

كان يخاطب دجلة وظهره لي:

-.. بل حتى الرصاصة الثانية التي أخطأتني من نافذة الاجتماع في الجامعة حسبتها رصاصة فوضى هي أيضاً.. وما كنت أعرف أنهم غيروا القدر من موت إلى حياة.. ولكن أية حياة هذه؟

استدار الأستاذ وجلس في مكانه يمتص آخر رحيق من سيجارته:

- قالت زوجتي لنهاجر فإنهم سيقتلونك.. قلت لها بصرامة.. لا.. إنهم يهاجرون لا نحن.. هذا وطننا وهم الغرباء فيه.. لكن زوجتي كانت على حق.. كنت مجنوناً بحب الجامعة.. لكني ربما أخطأت. كنا نحن الغرباء وما زلنا..

بدا الأستاذ مسكيناً في ليلة السواد تلك. حتى الكلمات كانت تنسحب من بين شفتيه وتتقلص في حنجرته.. وظل السطح يترجرج فينا وقتاً طويلاً.. عفط الأستاذ قبل أن يقول:

- كنتُ.. كنت أحمق. كان عليّ أن أهاجر كما هاجر أساتذة وكفاءات وطلبة ومعلمون ومهندسون وضباط وصحفيون وأدباء

وعاطلـون ولصـوص ونسـاء ورجـال وصبيـان وبنـات.. كان علـيّ أن ألتحـق بتلـك القوافـل التي نجـت بأرواحها وعقولها.. لكـن..! أخذتني عـزة نفسـي ودوري كمـربٍ وعالِم وأسـتاذ بروفسـور وشـهادات أجنبية عليا.. ههههههههههههههه.

بدا الوقت بعد منتصف الليل بسـاعتين أكثر صمتاً وظلاماً.. وقبل أن يتركني نهض واقفاً فنهضت معه:

- رصاصتان أخطأتاني وحالة خطف واحدة نجحت بسهولة مطلقة.. أخذوني من الجامعة، من غرفتي، شباب صغار يرطنون بشعارات ثورية ودينية.. كافر.. زنديق.. ملحد.. أجرب.. مسكوني من أذنيّ كالخروف وجرجرونـي كالحمـار أمـام طلبتي..طافـوا بي بين الممـرات والصفوف وأنا منقاد بسلاسة. حمار مجرور الأذنين.. كان أحدهم يضع بين دقيقة ودقيقـة أخـرى إصبعـه فـي قفـاي لترى طالباتي انكسـار هيبتـي.. لمزيد مـن طالباتـي إذلالـي وإهانتي إلا عندما أركبوني في حوض سـيارة معدة وربطوا قدميّ.. مشـت السـيارة نصف سـاعة تعوي وتزمّر في الشـوارع ثـم أنزلونـي فـي مكانٍ عرفت انه مصنع أو محل لتصليح السـيارات من رائحتـه المزنجـرة. كان سـريري گونية طحين أنـام بداخلها وأتدثر بها.. وكان غذائي غواطي!!

ههههههههههه تدمع عيناي من الضحك يا بوحمد؛ أيها الشـاعر القار. تعال وشُف هذه الكوميديا حتى تنفجر رئتاك من الضحك. تعال إلى وطن يأكل الدود تفاحَهُ وينخر السوس أفكاره ويذل الجهلة علماءه. أحسّـني يـا بوحمـد أنتمي إلـى هذه الفوضى كي أتصالح مع شـكوكي. وأبني جسـري بيني وبين نفسـي لأقول لأب مهاجر جوّال تعال يا أبي وتعلـم مـن الفوضـى مـا لم تتعلمه من أسـفارٍ تدر المـال عليك وتنفخ بطنـك حتـى تختنق بكرشـك. تعال يا رجـل ابحث عني في زكام بغداد وأمراضها وحروبها التي لا تنتهي.

أضْحكُ يا بوحمد في ليل داكن اكتسب درجة من الصمت بليغة جداً. تتردد ضحكتي الآن في أرجاء المدينة النائمة على صيفها وغبارها ووحشتها المخنوقة بالسواد. أسمع صداها مرتداً إلى هذا الحي المسكون بالغرابة، بعد أن طافت بين الأرصفة والشوارع والبيوت والسيطرات فلم تجد أنفاس الحياة فيها.

يكلمني واقفاً وأنا أضحك. عبرنا الثلث الأخير من الليل في ضحك مفجوع. ضحك الأستاذ مثلي واستغرق في الضحك هههههههههههه. ربت على ظهري كأنما يشجعني على الضحك. عانقني ونحن في نوبة مفتوحة لضحك عظيم اخترق سكون بغداد ودخل في مساماتها.. انفتحت شهية الأستاذ على الضحك المتواصل، لفظ أحزاناً ثرمتها مثرمة الجامعة والمدينة.. ضحك بلا انقطاع إلى تباشير الفجر حتى سقط على الأرض مثل صقر نال منه سهم طائش.

المستشير

اتصلت برندة وبجعبتي أعذار متتالية. قلت لها سأغيب عن المنطقة الخضراء يوماً آخر أو يومين، أخبرتني أن رقيباً اسـمه مايكل سـأل عني وكان يصطحـب رجـلاً عراقيـاً يرتدي دشداشـة. قالت أن العراقي يشـبه مهرجاً فاشـلاً.. لا عليك بهما رندة أنا في بغداد في بيت أحد أقاربي. رجاءً لا تقولي لهما أني سأعود بعد يومين..

دخل الأشهب جرجيس ووجهه يشي بالانزعاج:

- **شفت بعض الغرباء في السوق.**

طلبت له شاياً:

- **وهل في ذلك مشكلة؟**

- **لا يأتينا غرباء إلا باصطحاب رجل من القرية عادة.**

منذ لقائي الأول به كان جرجيس مذعوراً. شرب شايه على عجل وعيناه تزرزران في مدخل السـوق. شـكرني وخرج ناسـياً جريدة مطوية تركها إلى جانبي.

عانقني شاب الفنون الجميلة. كان يحمل براحة يده أخاه الإصبع. قال أن الطبيب أوصى بعدم تعريضه إلى الغبار فقد يسبب له الربو بسبب هزاله! كان الأخ يتلوى بيده كسحلية ثم يقف بشكله الطولي الوسطي. وضـع الشـاب قلمـاً بين إصبعه وإصبع أخيه فخـطّ الإصبعان كلمة غير مستقيمة.. **يريد أمي! سأعود إليك..**

أحتـاج إلـى وقـت ما لكـي أعيد ترتيـب أوراقي كأنمـا تفرق مني الهـدف الـذي قادنـي إلى هنا. يحدث هذا في الأسـفار عندما لا تنفعك

خريطة المكان الصغيرة المبصومة بدلالات مشـوهة، فتجد الأمكنة في الواقع بعيدة عن تلك البصمات في الخرائط. اتصلتْ رندة ودعتني إلى ديسـكو المنطقة الخضراء لمناسـبة عطلة نهاية الأسبوع. اعتذرتُ متردداً ووعدتها أن نلتقي في الأسبوع المقبل.

فتحـت جريـدة جرجيـس أتطلـع إلـى عناويـن الصفحـة الأولى.. **اختطـاف مجنـدة أميركيـة**.. لـم أقـرأ التفاصيـل. ليـس مهمـاً مـا تحت العنوان، فالعناوين تتدافع في الصفحة كالحشرات السامة من قتل وذبح واختطـاف. سـنّة وشـيعة وقاعـدة في مثلث دموي يحيـط ببغداد كالقدر الأسود.

عاد شاب المسرح واضعاً ذراعه على كتفي:

- **افتقدتك.. كيف كانت الحال مع الأستاذ!**

تعسـر علـيّ وصـف الرجل. ذلك الكيـان المتفجر طاقـة وإبداعاً. المخدوع. المسكين. استعدت ليلة السطح المظلم والضحك المخيف. ما يزال الصدى يرنّ في أذني، صدى الضحك الذي تعيده المدينة إلينا وهي ميتة على زمنها الحالك.

- **كانت ليلة ممتعة مع الأستاذ..**

استبق الشاب ما كان يجول برأسي من أسئلة:

- **أتدري! هو أول من سكن هذا المكان مبتعداً عن العاصمة. كان وحـده هنـا. بنـى له كوخاً من صفيح واعتكف شـهوراً طويلة كالراهب. اكتشـفه الصبيان الذين يجوبون سـاحل النهر ويصطادون السـمك، فظنوا أنـه جنـي عندمـا خـرج لهم بلحيته الكثة أكثر من مرة وهو ينادي: تعالوا يا أولادي أنا معلم آبائكم وأجدادكم، سليل القلم والمعرفة، ابن القصبة الأولى والحرف الأول والكلمة الأولى.. أنا السـومري الأول.. تعالوا يا أولادي ولا تخافوا.. تعالوا أحكي لكم حكاية البروفسـور الحمار الذي جـرّوه مـن أذنيه وسـلبوا أمواله بالفدية وانتهكـوه أمام طالباته الصغيرات**

الحلوات... هههههههههه هههههههههه هههههههههه هههههههههه تعالـوا يـا صغـار الاحتـلال لأحكـي لكـم حكاية وطن مسـروق وملطخ بالخراء.

كان الصبيـان يهربـون بعـد أن يرجمونـه بالحجـارة والطيـن..كان ضحكه يملأ الآفاق والنهر الغارق بالغبار.

تأفف الشـاب وعينـاه متلبسـتان بالسـواد الداكن، وكان بلا شـك يستحضر تلك الصور المسحوبة من رأس الأستاذ:

- لم ينقل من بيته السابق غير مكتبته. انصرف لها وقتاً طويلا كأنه يبحث عن سر مدفون فيها. شـهور طويلة وهو يغوص بين الصفحات منعزلاً عن العالم الخارجي الذي يتقاتل بلا رحمة ويعيث فساداً بالحياة. إلا زوجتـه المعلمـة المتقاعـدة التي كانت تتردد عليه وتتفقده وتدثره في الليالـي البـاردة، غيـر أنه صرفها في النهاية بقسـوة.. العزلة لا تسـتوجب هـذا.. العزلـة تعنـي تأمـل ما وصلـت الحال إليه. الانسـحاب من الحياة يعني لا أريد أحداً بعد اليوم.. ولم تظهر زوجته حتى اليوم..

قبل أن أنطق، استكمل الحكاية:

- لم ينتبه الأستاذ إلى أن الحرب الأهلية أكلت من جروف الناس وأهانت الحياة، ولم ينتبه إلى البشر الهاربين من ضراوتها وهم يتجمعون حول بيت الجني ببيوت من صفيح وقمامة وأزبال وأشواك وكِسر طابوق وطين..

وددت أن أسمع آخر الحكاية:

- خرج ذات صباح بعد غيبة سـنوات تحت شـمس دافئة يطقطق عظـام ظهـره المنحنـي وعينـاه فـي عينـي دجلـة المُغرْيَـن. رأى صيادين يحيونـه مـن بعيـد، ورأى الأذرع تلـوّح له بالصباح الجديد؛ فأدهشـه أن العالم التم حوله وأن بيوتاً تصطف إلى جانب بيته لتشـكل حياً أو قرية صغيـرة وان الحيـاة تمضـي بطريقـة ما والناس يلقـون عليه تحية الصباح

بإجلال واحترام..

نظرت في عيني الشاب وهو يتمثل الحكاية:

- دار حول نفسه ونظر إلى كل شيء كأنما أفاق من حلم طويل.. مشى إلى النهر ووقف على جرفه، ثم نزل إلى الماء بثيابه التي لا لون لها حتى رقبته. غطس غطسات طويلة وابتعد إلى منتصف النهر وغطّ وقتاً غير قصير، حتى خاله أهل الحي الذين تجمعوا على الجرف، أن الرجل سيمضي إلى الأعماق ولن يخرج بعدها، غير أن الأستاذ خرج في نهاية الأمر، واستقبله الناس بحب كبير.. وما يزال يحظى بهذا الحب حتى هذا اليوم.

سنّارة القرية

تركت المنطقة الخضراء بعد يوم الديسكو الصاخب وذهبت إلى قرية الأستاذ، ويبدو أني بمواجهة مجموعات مصادفات تركت بي أثراً ونبهتني إلى وجودي الضائع في زحمة الأسفار التي قادني إليها أبٌ صائعٌ وضائعٌ انقطع الحلم من رأسه منذ زمن بعيد. وكرسته مجلة جميلة المنظر طافت به بين الجزر والأمطار والنساء والآثار واللغات والغابات والبحار.

احتل الأستاذ مساحة عريضة من تفكيري: **تركتُ السماء والأرض وذهبت إلى التاريخ.. أدخلتُ رأسي في مكتباته ومخطوطاته حتى خرجت بقناعات جديدة.. أيقنت أن كثيراً من الحلول ممكنة!**

حدثني على منامة السطح كثيراً بحماسة قوية بعدما طوى الصفحة الأولى من حياته وعدّها تمريناً مجتمعياً لمواجهة خطر الاحتلال والميليشيات معاً. كنتُ أصغي إليه بانتباه. ستون سنة من التمرين المذل! كم هي الحياة صغيرة وتافهة أمام هذا العملاق: بوذا حقيقة تتسلق العصور. لم يكن مسيحياً ولا إنجيلياً، لكنه تغذى من شجرة الحكمة ووصل إلى أن الإنسان ملجأ نفسه وسيد نفسه والقائم على أمره، فلماذا نتعلق بقشور النصوص ونتعالى على غيرنا باسمها؟ يهذي الأستاذ النبيل كلما يلتقي مع نفسه.

لم أر من المنطقة الخضراء غير قاعة للمؤتمرات احتشد فيها أنبياء الزمن العراقي الجديد بعمامات وبدلات وقمصان.. رأيت ديسكو الخضراء مشروعاً ليلياً لتطييب خواطر جنود المارينز الشبقين.. وحراسات مشددة وسيطرات حلزونية بوجوه جنود نيباليين وكلاب

بوليسية.

يبدو أن البعض منّا لا يستطيع العيش تحت المراقبة أو ما يسمونه في المنطقة الخضراء خط الأمان. فالأسفار علمتني أن أخرج من جاذبية المرشد السياحي الثرثار الذي يتقن زخ المعلومات بدقة متناهية ويوفر وقتاً جيداً للأسئلة المحتملة. غير أن مشكلته الكبيرة أنه يفترض ان المجموعة السياحية التي يقودها عبارة عن أثرياء بُلهاء يحملون الكاميرات مع صديقاتهم العاريات.

بعد ليلة الديسكو وجدتُ رندة وقد اعتادت تزجية الوقت هكذا. لديها مكان مفهوم وزمن محدد وسفر قريب تحمل بطاقته في حقيبتها. إنها تحسب الأيام في روزنامتها كي تعرف المُحوّل لها من رواتب مضافة على حسابها الشخصي، فتتقي شرور الحرب ومفاجآت قذائفها المنهارة على كل مكان وتستعجل الأيام الثقيلة بطريقة تعرفها.

أغواني الأستاذ أن أبقى بعض الأيام "للمساهمة في تفسير الحياة بحيادية على ضوء الحرب الأهلية" كما قال لي بطريقته الأكاديمية و"نؤسس حِراكاً نفسياً بين الناس لتقبل فكرة التحول بشكل تدريجي وإقصاء الزبالة من رؤوسهم" وهو يرى القرية تتشكل كل يوم ببيوت جديدة وبشر ملتبسين إلى حد كبير "فمن الجميل أن نتدارك ما تبقى من الحياة بزق المعرفة بين الناس".

أغوتني القرية الشعبية بطريقة ما. أشعر بروحي تنفتح فيها وجسدي يتطامن على أرضها ووجودي ليس عفوياً بين هؤلاء الناس المهمشين ببيوت لا تتوفر فيها حتى مخادع للأحلام البسيطة.

قال لي شاب الفنون الجميلة ذات مرة: عندما تضع رأسك وتنام في بيت من بيوت هذه القرية يخفّ رأسك وتنطلق إلى حياة لا تسمع فيها أصوات الرصاص ولا ترى وجوهاً قبيحة في منامك..

هذا الشاب الحزين اصطحبني إلى السوق الشعبي المتكاتف.

أخرجني من فورة الأستاذ وأفكاره، وكان يحمل معه أخاه الإصبع في راحة يده يتحرك. قال أن أخاه اشتاق إلى النهر والماء والصيادين.. كانت لديه عادة أن يذرع شاطئ دجلة ويغطس فيه ويصيد من سمكه الصغير.

نزلنا من أحد المنحدرات باتجاه النهر وجلسنا بعيداً عن الصيادين الصغار المرابطين على جرف النهر، لكننا نسمع لغطهم كلما اصطادوا سمكة أو جرّية أو سلحفاة. وضع الإصبع على سفح أذنه بطريقة عَرَضية، كما يضع النجار قلمه في غمرة انشغالاته.. أنه يحب أن يرى النهر هكذا..

اتصل أبي بعد انقطاع أسابيع طويلة. لم أعده بالرجوع غير أني طمأنته إلى أن كل شيء يجري بطريقة حسنة. تبدلت لهجته معي. كان سابقاً يصيح: عُدْ فوراً أنت مجنون.. لكنه الآن يقول بلطافة.. شلونها بغداد؟ إن شاء الله الأمور تتحسن.. خذ بالك يا ابني. تحتاج فلوس؟ متى ترجع؟

قال أنه في سنغافورة منذ أسبوع.. فقلت له أنا على حافات دجلة..

أنا مسافرٌ مثله..كلانا في أرض وسماء لا تتشابه لكننا في سفر وترحال.

قال الشاب بعد انتهاء مكالمتي:

- **لا شك أنك أمضيت وقتاً طويلاً هنا.**

- **وقتي مفتوح على بغداد.**

لفتتنا غيمة سوداء وسط العاصمة. كانت مثل المدخنة المتصاعدة ببطء. كانت بعيدة إلى حد ما. استدرك الشاب:

- **بغداد أصبحت مثل النعجة المريضة.**

كان بعض الصبيان يلوذون بالنهر ويندفعون إلى جزيرة يغمرها القصب في وسطه وسط لغط يتصل بجماعة الصيادين الذين علا لغطهم

بعد صمت. كان الإصبع يلتوي على أذن أخيه.

تحـول اللغـط إلـى صيـاح بين الصياديـن الصغار لفـت انتباهنا أنا والشاب. كانوا شبه عراة. نزل اثنان أو ثلاثة إلى النهر في بؤرة واحدة، فـي حيـن كان أحدهـم يسـحب خيـط سـنارته بقوة وهو يحـث زملاءه بأصوات غير مفهومة لنا.

صـرخ صِبيـة المـاء حينمـا رفعـوا خيط السـنارة من تحـت الماء. وتراكضـوا هلعيـن إلـى الجرف الطيني.. اسـحب.. اسـحب.. أمكننا أن نشعر بوجود خطر أو ما شابه ذلك. فهرعنا إلى الصبية المرتبكين. كان صبـي السـنارة يتشـبث بقصبته الممـدودة، لكنه بدا مهيئـاً للفرار في أية لحظة، فيما تشـجع آخرون بمسـاندته لسـحب سنارته الثقيلة التي بدأت تستجيب لثقل شيء ما تحت الماء.

انشغل الشاب بأخيه الإصبع وابتعد قليلاً كما لو يهدئ من روعه، فوجدت نفسي أسحب خيط السنارة مع الصبية متوتراً بعض الشيء. كان وجـودي قـد أعـاد بعـض الصبية الآخرين الذين فضلـوا البقاء مبتعدين. وشيئاً فشيئاً كنا نسحب ما علق بالسنارة بتمهل وأعصاب متماسكة بعض الشـيء. كنت أشـعر بثقل الخيط الذي يسـتجيب للسـحب. وبات أكثر مرونة والثقل العالق به يتقدم في قرار السحب البطيء. كانت كتلة سوداء غامقة تحت الماء الضحل الذي تعكر بالطين والغرين.

صـرخ أحـد الصبية قبل أن نرى شـيئاً.. جثـة.. وفر مصعوقاً. تبعه صبي آخر مستجيباً لنداء الخوف الغريزي، فيما شق الماء قبل الوصول إلـى الجـرف قطعـة قميـص زرقـاء، ثـم برزت يـد منتفخة. صـرخ بقية الصبيان مذعورين وكانت الجثة المسـحوبة لرجل انتفخ كل شـيء فيه. توقف مع السنارة على حافة الشاطئ واتضح أخيراً أن قدميه مربوطتان بثقل حديدي وأن ثقوباً في وجهه تشي بكمية الرصاص المطلق عليه.

رست الجثة على الشاطئ. لم أتمكن من النظر إليها طويلاً. ناديت

على صبي لم يبتعد كثيراً أن يساعدني في سحبها بعيداً عن الشاطئ. تشجع واقترب مني حذراً. الشاب آثر أن ينسحب بعيداً خوفاً من صدمة متوقعة على أخيه، وفي هذا الجو المرتبك تقاطر أهل القرية نساء ورجالاً وصغاراً؛ أمكنني على نحو سريع من تشخيص الفتاة الشعثاء التي كانت ترافق الأعمى في الشيراتون في جلبة أهل القرية؛ مشدودين إلى جثة رجل مجهول اصطادته سنارة القرية.

لحقت بالشاب إلى المقهى الصغيرة. كان القرف بادياً على وجهي مصحوباً بشرود ذهني. فالمشهد كان مقززاً إلى حد يبعث على الغثيان.

- يحدث هذا دائماً أن تطفو جثث مقتولة. نراها تسير مع التيار منتفخة ومنحدرة إلى أقصى الجنوب ولا تتوقف في قريتنا إلا هذه المرة.

- كانت مربوطة بأثقال. لكن الأثقال فلتت لسبب ما..

- قتلوه وأرادوا إخفاء جثته تحت الماء.

وضع الشاب أخاه في صحن شاي نظيف على المنضدة الصغيرة وهو ينظر إليه ذات النظرة العطوف التي لا يستطيع إخفاءها.

- بدأ يتحسن نسبياً!

دخل الرجل صاحب البيت الأزرق وبيده قارورة الرماد الصغيرة. هببت إليه وعانقته. كانت ملامحه منزعجة. عاد من نهر الجثة مهمهماً. جلس بيننا محشوراً وكلتا يديه تمسكان بقارورة ابنته الشابة.

سلّم على الإصبع. رفعه وقبّله وتمنى له السعادة. وضع القارورة إلى جانب صحن الشاي الذي يستكين فيه الإصبع، وقرف الجثة ما يزال يرتسم على وجهه:

- الحياة صارت كسمك النهر.. من السهل اصطيادها.

التفت لي كأنه يقرر شيئاً ما:

- نحتاج إلى مخلّص يا ولدي. فالبلد سيطفو كله على نهر دجلة!

جذبت أبصارنا حركات صغيرة للإصبع وهو يتلوى في صحن الشاي. كانت قارورة الرماد ساكنة أول الأمر، غير أن رمادها بدأ يتململ. تحرك الخط العلوي من الذرات ورسم حركات قصيرة قريبة إلى التموج. انتبه صاحب البيت الأزرق وطيف غير مفهوم بدأ يتوهج على وجهه، في حين بقي الشاب المسرحي صافناً يتأمل الصحن والقارورة معاً وقتاً أظنه طال بعض الشيء في حين كان الإصبع المتململ في الصحن ينتصب!

رؤساء الصيف والشتاء

ثمة غبار نزل على أفق النهر الممتد مع أول المساء. على سطح بيت الأستاذ بدت الحياة تستكين إلى غروب بطيء. جالَسنا شاب المسرح. كانت أشباحنا الثلاثة المرتفعة على السطح تجتذب العابرين في الحي قبل حلول الظلام. ثمة من يحيي الأستاذ باسمه، ويكتفي البعض برفع ذراعه إلينا.

بدونا كرهبان منعزلين تحت سقف السماء المغبّرة المظلمة.

صوت مروحية من جهة الشمال يربك السماء. كان الليل قد بدأ وأسدل ستاره ملاحِقاً آخر بقعة من الشمس الغاربة على المدينة.

مرقت المروحية بصوتها الهادر، وبعد لحظات تبعتها ثانية وأحدثت ضجة كبيرة ثم مرقت بهديرها فوق رؤوسنا.

قال الشاب موجهاً الكلام لي:

- أخي الإصبع هو نهاية لفاجعة تعرفها.. من هنا تبدأ مَسْرَحتُهُ وصولاً إلى زمن قتله.

عقّب الأستاذ:

- قارورة الفتاة نهاية مثيرة لبداية غير معلومة.. ما نعرفه أنهم قتلوها حرقاً.. والقامة المقطوفة الرأس تنويع على هذه الفكرة..

استكان بي حس الفضول. وتواردت إلى رأسي بعض المشاهدات المثيرة. لعبة الرأس الأميركي المقطوع خلف عمارات شارع حيفا والشرطي المحترق حياً وقامة الزرقاوي الحيّة. خطرت فيها الفتاة الشعثاء التي رأيتها يوم أمس في زحام الجثة الطافية والرجل الأعمى

الذي حاول قتلي والكف الساقطة على السطوح في شارع السعدون وخميس الأسود الصحفي الملتبس في ذاكرتي. ولورا التي أكثرت النصح لي وسافرت. ثمة غبار يلف هذه المشاهد وثمة سواد داكن في الكثير منها.

نهض الأستاذ يتطلع إلى ظلام دجلة وكان يتجلى كعادته:

- لا بد من نهاية شاملة لكل هذه الفوضى.. لا بد أن نكون على قدر جنون الحياة إن كانت مجنونة كما يقول الشعراء المفلسون.. هناك أمل لا يأتي وهناك يأس مقيم فينا. هناك أديان وأفكار وفلسفات تضبط إيقاع الحياة. هناك مخلّصون منسيون في التاريخ تركوا رؤاهم بيننا فتحنطت بين الكتب في مكتباتنا.

استدار إلينا بجسده النحيف ونظر إلينا من قامته الطويلة:

- هل يغيّر المسرح شكل الحياة يا أصدقائي؟ سأنوب عنكم بالإجابة وأقول لا.. لا يتغير مجرى الدم النازف. ستموت الشواهد والشواخص ونحن نبحث عن موطئ قدم في مقبرة الوطن المريض وعلى مسرحه العريض.. نحن نعبث في الوقت الضائع ونبرر هزيمتنا وضعفنا..

جثا على ركبتيه بتعب:

- نحن ضعفاء.. هذه هي الحقيقة وعلينا أن لا نهرب منها. علينا أن نكون قريبين منها لكي لا تتسع فجوتها فننهار بشكل جماعي.. حتى لو جعلنا من أنفسنا أكياساً ونملأ أجوافنا بالتراب لنكون مصداً للرصاص فهذا يقلل نسبة النار إلى وقت قصير.

رجع الأستاذ يقول:

- عندما قرأت التاريخ وجدت أن الحضارات معرفة وعلم في كل وجودها المتصارع. هناك دول تصنّع المعرفة تصنيعاً كما تصنّع السيارات.. مشكلتنا تكمن في التاريخ الشخصي العقيم. صدام حسين

خاض حرباً إلكترونية عن بُعد بعصا الجاهلية وخطابات اللسان العربي وهوسـات شـيوخ العشائر المنافقين. في حين أن الحياة العصرية تتطلب دهاء المعارف والعلوم وتقنيات الحداثة التكنولوجية..

تربّع أمامي وهو يلهث وقد أدركه الظلام كلياً ثم مدّ جسده على سطح الصفيح يتأمل النجوم البعيدة.

قال شاب المسرح:

- المسـرح جزء من منظومة المعرفة أسـتاذ.. لكنه لم يأخذ طريقه إلى الحياة بشكل صحيح.

رد الأستاذ:

- هناك في الحياة معارف كثيرة لم تأخذ طريقها إلى الحياة. لسنا شعباً جاهلاً، لكن سلطاتنا جاهلة منذ تأسيس الدولة العراقية حتى اليوم. أما هذه السلطة الجديدة.. ههههه.

رفع جذعه الأعلى وتساءل بفكاهة مُرّة:

- بربكم هل رأيتم بلداً يتناوب فيه الرؤساء شهرياً!!

اهتز جسده النحيف وواصل تهكمه:

- كل شهر رئيس.. في شباط رئيس شتوي. وفي تموز رئيس صيفي. وفـي أيلـول رئيـس خريفي. وفي آذار رئيس ربيعـي.. هههههههههه.. اللعنة عليك أيها الثعلب بريمر.. لقد كشَـفتَهم وهم في بيضة السـلطة.. لكننا كنا أغبياء..!

جـرّ الأسـتاذ آهـاتٍ متتاليـة كأنما خرجت من روحـه. أخذ يدندن بصـوت خافـت. كان صوتـه مرتعشـاً وبـدأ يغنـي هامسـاً بصـوت ملؤه الشـجن. أنصتُّ إليه بحس مركز. كان يلوّن الأنغام بحنجرته فيطربني، وهذا ما لا أعرفه عنه، الأمر الذي جعلني أتمدد في فراشـي من زاوية رأسـه لأشـكّل معه زاوية منفرجة وأنصت له مسـتغرقاً في شـخصية هذا الرجـل المغـدور الـذي يواصل الحياة بأية طريقة يمكنها أن تضفي جواً

من الوجود الإنسـاني. تمدد الشـاب المسـرحي بين نهايتينا غالقاً الزاوية السائبة فشكلنا ثلاثتنا مثلثاً نائماً على سطح من الصفيح وصوت الأستاذ الشجي يتعالى شيئاً فشيئاً ليطرق أبواب الحي المظلم.

مزار مسرحي

اقتضى يوم المسرحية جهوداً حثيثة لتعديل المقهى الوحيدة، شارك فيه نجارون وحدادون وصباغون وشباب القرية وخطّاطها الوحيد وطالبات الكليات على قلتهنّ، بعمل يومين متتاليين استقر في نهايته على إنشاء منصّة معقولة بالرغم من صغر حجمها كأنها طارمة ضغطت عليها الحيطان من جانبيها. إلا أنها بدت مكاناً جيداً.

كانت فكرة الأستاذ والتي عززها شاب المسرح أن تنفتح القرية على حالة مسرحية يومية متصلة حتى من دون إشعار أهلها. مسرحية طبيعية تجري في حياة القرية.. سوى أن الأستاذ سيتصرف أمام الإعلام بطريقة إرشادهم إلى فحوى الفكرة..

صنع النجارون موقداً لصاحب المقهى وتفننوا بزينته. وتفنن الأستاذ هو أيضاً بتزيين خلفية المقهى بلصق رسومات كهفية وخطاطات بدائية ولوحات عالمية من دون إطارات. ورجا أهل القرية أن من لديه لوحة أو صورة شخصية أو منظر طبيعي من ورق أو قماش أن يضعه في المكان الذي يناسبه في هذه الخلفية حتى لو كانت أدوات زينة يمكن لصقها ودقّها ورايات صغيرة وتحفيات ورقية وشهادات وفاة وميلاد وهويات الأحوال الشخصية وعقود الزواج والطلاق وكتب التطوع والتسريح من العسكرية القديمة والجوازات المسافرة وغير المسافرة ورسائل الغرام المخبّأة هنا وهناك ومظاريف الرصاص التي يستعملها المليشياويون وعناصر القاعدة للتهديد والابتزاز وصور القوات الأميركية

وجيش المهدي والقاعدة والحكومة وأعضاء البرلمان والصحف القديمة وقطع صور السياسيين والبرلمانيين من الصحف الجديدة؛ في حين لعبت الرايات الملونة دوراً تزيينياً بإضفاء تشكيلات فوضوية جميلة على المكان الصغير الداخل بين البيوت، فبدا كأنه مزار لولي متواضع الشهرة.

استأذنتُ من الأستاذ أن أحشد إعلاماً كبيراً لتغطية المسرحية عبر الإذاعات والفضائيات المحلية والعربية والأجنبية.

تردد أول الأمر:

- **الآن لا أريد التنبيه إلى هذا المكان..**

صفن قليلاً:

- **أترى ذلك مناسباً؟**

- **أراه مناسباً..**

وزدت بحماسة:

- **الحالة لن تتكرر وإلى وقت طويل.. أعرف أن الأجانب سيدهشهم هذا المكان الصغير وسط بيوت الصفيح، وسيدهشهم أيضاً هذا الإصرار على تقديم عرض مسرحي في أضيق الأماكن في العالم وأكثرها انحساراً عن البَصَر..**

وقبل أن يرد:

- **والأكثر أنهم سيجدون فيك نوعاً آخر لا تشبه السياسيين بل ولا العامة حتى!**

أخذ يتفرس بعينيّ كأنما يتتبع مسارب كلماتي ومن أي روح خرجت. ربت على كتفي بعد وقت كنت فيه قلقاً من هذا الاختبار وقال:

- تصرف كما تريد.. نحن نثق بك[1].

(1) في مناسبات مختلفة سجلت للأستاذ بعض ما قاله:

* الـذي يضـع سـلاحاً فـي بيتـه بدعوى الدفاع عن النفس هو مسـتعد للقتل؛ ففي داخله بذرة للجريمة. والذي يسـتغني عن ذلك حتى لو كان باسـتطاعته شـراء السـلاح ولم يفعل هو أكثر تصالحاً مع نفسـه ومع الحياة وأكثر تماسـكاً بمواجهة القدر.

- أليس القتل هو نفسه القدر.. أم أن القدر أكثر بشاعة!

- لا.. القـدر انتظـار شـيء غامـض يأتـي أو لا يأتـي وبالتالي لا علاقـة له بالقتل.. شيئان لا يتفقان في السلوك والمنهج.. القدر والقتل.

* يشـغلوننا بالحرب الأهلية كي لا ننتج المعرفة، فالمعرفة تقتلهم، تكشـف أميتهم والأخطر من هذا تكشف نواياهم.

صياد الجثث

كان النهر يجلب النوارس القابعة على موجاته الصغيرة، لكنها سرعان ما تطير قبل وصول حيزوم الزورق إليها فتشكل مظلة غير منتظمة في سماء قريبة. وبالرغم من الغبار الذي ملأ الفضاء، لكن يمكن رؤية أكثر من قماشة منتفخة طافية هي أيضاً، فيقول رجل الزورق؛ وهو يستغفر الله؛ أنها جثث شبعت غرقاً فتجري مع مجرى المياه حتى ينتشلها القرويون في أقصى النهر أو تلحق بها الشرطة النهرية. وكانت كاميرتي تلتقط تلك القماشات الطافية في مرورها البشع.

في الضفة الثانية كانت الحياة شبه صامتة، إلا من حركة قليلة لنساء متلفعات بعباءات سود ورجال لا ينتظرون شيئاً محدداً، غير أنهم يسرعون بين الأزقة أو يصعدون في بطون سيارات النقل الأهلي التي لم أر واحدة منها تقف ولو للحظة واحدة، كأن الحياة البغدادية أصبحت راكضة وأشواطها مختلفة وبشرها تعلموا الركض مرغمين.

خرجت على غير هدى. تركت الأستاذ نائماً على السطح بعد ليلة حافلة بالكلام والرؤى والخيالات المسرحية التي أجهل حتى اللحظة كيف سيكون شكل المسرحية ومن يؤديها في واحدة من الألغاز الظريفة التي تواجهني في هذا المكان الغريب.

ثمة شرطة يمسكون رؤوس الشوارع ومفارق الطرق وجنود يتشبهون بالأميركان بالقيافة وطريقة الاستعراض وانتفاخ الصدور، وأحياء ملبدة بالغبار حتى تكاد تتشابه بألوانها الكابية، فيما كان بائع جرائد مراهق يلوذ بالحيطان كلما سمع رشقة من الرصاص.

وجدت مقهى تنزوي في دربونة يختلط فيها رجال كأنهم مسجونون

تحت سحابة مشتركة من دخان الناركيلات ولم تنفع المروحة السقفية البطيئة أن تبدد الدخان الملتف في كل مكان. ابتعت بعض الجرائد ودخلتُ تتطلع بي الوجوه الخاثرة تحت وطأة انتظار قلق كما يبدو لي.

لم تكن المقهى مزدحمة، غير أنها تبدو كذلك تحت كتلة الصمت المشبوهة التي تتناوب بين الوجوه. جلست في آخر صف من الأرائك وطلبت شاياً وكان أكثر من وجه يتطلع بي. رأيت مثل هذه الوجوه في أمكنة مختلفة من العالم الشعبي الآسيوي. وجوه تشي سحناتها بالبلادة أحياناً وبالمكر أحياناً وبالشرود أحياناً أخرى. ويوم كتبتُ عن الوجوه الهندية كان بوحمد يقول لي يا أخي سنغيّر وجوهنا فأنت خبير وجوه كما يبدو.

كانت مومباي بزحمتها الشديدة تكفي لأن ترصد آلاف الوجوه بأقل وقت يعطيك الانطباعات السريعة عن الوجوه الهندية الغائبة عن منظومتها الجسدية المتعبة في اكتظاظ الحياة الشاقة. وجوه تشكل بمجملها لقطة واسعة لحياة يومية لا تمنح لحظة واحدة لفكر حر من شأنه أن يخطط حتى للدقائق المقبلة. وجوه شاردة، غبية، حائرة، مخيفة، مستسلمة، لاهثة، مستعجلة، راكضة، باكية، نائمة، مخدرة، حزينة، ملونة، تعيسة، شاكية، مقرفة، مترجرجة، ملعونة..

فرشت جريدة "النهضة" أمامي وكانت عناوينها تحذر من فتنة داخلية وخارجية تقود البلاد إلى حرب طائفية بين السنّة والشيعة. ثمة في جريدة "الأيام" عناوين مشابهة وتحليلات سياسية تدعو إلى العقل والتعقل وتنصح إيران بعدم التدخل في شؤون البلاد، كما كانت جريدة "الصباح" تسير في الخط ذاته وتنشر صوراً لقتلى الشوارع من الرجال والنساء، في حين كانت جريدة "الساعة" تفرد صفحاتها الداخلية لصور الخراب الذي حلّ في كل مكان من العاصمة. وتشير أخبارها المحلية إلى شيوع ظاهرة خطف المدنيين وقتل أساتذة الجامعات والأطباء

والعلماء والصحفيين.

شربت شاياً ساخناً وخرجتُ بعد أن انطفأت الكهرباء فحلّت عتمة مفاجئة خلصتني من فضول الوجوه البليدة والعيون الشاردة والأجساد المتهالكة على الكرويتات الوسخة.

كنت قريباً من النهر ومن زوارق تقل إلى الضفة الأخرى. كان الماء أكثر قرباً إلى نفسي في خضم الخوف الذي يعتري المدينة ويتسرب إلى نفوس الناس الخائفين من كل شيء يجري بينهم. كنت أرى في دجلة مقبرة ماء جارية.

قال رجل الزورق الذي وجدته ينتظرني: **هذا زمن الفتنة يا ابني.. راحت العقول مع أهلها.. كل يوم أحمل العوائل من ضفة إلى ضفة كي يهربوا إلى أي مكان.**

بشكل مفاجئ جاءني اتصال من رقم غير مدوّن في ذاكرة هاتفي[1]:

رجل الزورق تجاوز الستين عاماً. وجهٌ اسمر محفور في أكثر من مكان. شوارب خفيفة غير منظمة. غترة مرقطة تحفظ وجهاً تملكه القهر والقلق:

- **حماني النهر أياماً طويلة.. وكاد يقتلني بعض المرات.**

قرّبت عدسة الكاميرا وجهه المحفور. كانت أسنانه الصفر تقضم طرف غترته وهو يجذف:

- **في شدة القتال أحمل أسرتي في هذا الزورق ونهيم حيثما يجري**

(1) وأخيراً عدتُ إليك... هههههههه مفاجأة.. كان صوت لورا يحييني.
أين أنت يا رجل؟
أهلاً لورا متى وصلتِ؟
أمس مساء وافتقدتك.. قالت رندة أنك تركت المنطقة الخضراء!
أين أنتِ الآن؟
في المنطقة الخضراء. أفرغوا لنا بيتاً إلى جواركم.
طيب لورا.. أنا سعيد بعودتك.. سأتصل بكِ بعد ساعة.. أنا في مكان ما..

النهر في الليالي الباردة. نمنا هنا أياماً سوداً وتنقلنا إلى أكثر من مرسى ومكان وكان الموت يطاردنا..

أطلق تنهيدة طويلة وكانت عيناه تتطلعان إلى أمام:

- أول جثة رأيتها في النهر كانت لامرأة مذبوحة. جثة بلا رأس، وجدها ابني الكبير طافية على ساحل النهر بين القصب.. ليلتها لم أنم.. وبعد يومين اصطاد أحد الصغار رأسها جنوب النهر حيثما نحن سائرون الآن.

ترك القارب ينساب واخرج من جيب دشداشته علبة سجائر:

- ظلت الجثث تمرق لرجال ونساء وصبيان مقبلة من أعلى النهر أو وسطه. لكنها تطفو في نهاية الأمر بصورة مقززة.

أشعل رأس سيجارة قبل أن يقف الزورق وسط النهر:

- كنت حائراً بزوجة مريضة وولدين وبنت صغيرة ما يزال الخوف يفززها، تنقلت بهم من جرف إلى جرف. نتّقي الرصاص الذي لا تعرف من أين يأتيك ومن الذي يريد قتلك وما هو السبب.. وبمرور الأيام اعتدنا الحالة. أقصد اعتدنا أن نموت بأية لحظة. لا أحد يعرف السبب ولا ندري من يقتل من ولماذا يموت البعض ولا يموت غيره؟

جذف الرجل وسيجارته معلقة في فمه وكان يتكلم منها:

- أياماً طويلة كنا ننام ليلاً بين قصب الجزيرة تلك في وحشة كأنها وحشة القبور..

أشار إلى جزيرة صغيرة غمرها القصب والنباتات. أمكن لكاميرتي أن تلتقطها وهي قريبة من عيني:

- مرة انتشل ابني الكبير جثة شرطي حفر الرصاص كل جسده. فتش بجيوبه فعثر على هويته وأوراقاً بيتية وشوية فلوس!.. بلّغ ابني أقرب مركز شرطة وأعطاهم هويته والفلوس القليلة التي كانت معه ودلهم على جثته.

اقتربنا من الجزيرة الصغيرة. فرت طيورٌ مائية كانت خاتلة بين القصب الطويل. وعوت كلاب من داخلها وكان القصب يتحرك ويتمايل ويتكسر تحت حركة سريعة:

- هنا كلاب شرسة اعتادت أن تأكل الجثث الطافية بعدما كاد الجوع يهلكها في المدينة.. كل كلب كأنه خنزير وأصبح من الحماقة أن يلتجئ أحد إليها.

كان حيزوم الزورق قريباً من ساحل الجزيرة. هاجمتنا رائحة نتنة، غير أني طلبت من الرجل أن يبتعد كثيراً وكانت الكلاب تتسابق في ضجة عواء مخيفة فعلاً:

- لو تدخل الجزيرة ستجد أكواماً من العظام البشرية المكسرة والجماجم المهشمة.. شيء فظيع. حتى عواؤها لا يشبه عواء ما قبل الحرب!!

تمكنت ثلاثة كلاب أن تصل إلى حافة الجزيرة بأجساد ضخمة مفتولة عضِلة ومنفوخة. وكان أحدها بني اللون قد قفز في المياه باتجاهنا بلا تردد. صوّرته بلقطات سريعة ويدي تؤشر لصاحب الزورق أن يبتعد كثيراً، في حين بقي الكلبان الآخران يثيران نوعاً من الفوضى بعواء متصل كأنه صراخ لحيوانات ما قبل التاريخ.

كان الرجل يسحب القارب بصورة عكسية وكانت كاميرتي تكشف الكثير من الكلاب المرقطة والسوداء التي وصلت إلى حافة الجزيرة، فشكلت أجسادها المتراصّة على الحافة رؤوساً لكائنات أسطورية تبث الذعر بأنيابها وعوائها وصراخها الذي ظل يلاحقنا إلى مسافات بعيدة.

- كل زاوية في بغداد هي مكمن للقتل. لا تثق حتى بالماء الجاري!

قال الرجل بوثوق ويأس:

- جثث النساء هي الأقل في دجلة.

أشـعل الرجل سـيجارته الثانية وأذناي تلتقطان العواء الذي أصبح خافتاً:

- جمعنـا أنـا وولـدي هويـات كثيـرة وأمـوالاً كثيـرة وصـوراً أقل ومستندات معدودة!

كان الرجل ينظر لي وهو يمتص سـيجارته بقوة ثم يطلق دخانها، فوجد في صمتي استجابة لحديثه:

- بدأنا نراقب الجثث الطافية في النهر ونتتشـلها أحياناً لمعاينة ما فـي جيوبهـا من هويات وأموال ومسـتندات.. بعض الأحيان لا ننتشـلها خوفاً من الكلاب المسعورة، فنكتفي بتفتيشها في النهر ونأخذ ما نجده فيها!

فضلتُ الصمت لرجل الزورق:

- صارت الجثث مصدر رزقنا.. تصور! لا نعطي الأموال البسيطة التـي نعثـر عليهـا للشـرطة لأنهم يسـرقونها.. اعتبرنا هـذا باباً من أبواب الرزق فتحه الله علينا في فترة حرجة!

بدأت أنظر إلى وجهٍ غريب أمامي وعادت نظرية المؤامرة تستشري في داخلي بطريقة ما، غير أني أتحصن بقوة داخلية تعلمتها من أسفاري المتعـددة فـي مواجهـات غيـر محسـوبة تفاجئنـي، وهـي قـوة لا أعرف مصدرها غير براءة وجودي في المكان الذي أكون فيه.

- لا تصدق كمية الهويات وشـهادات الجنسـية التي خلصناها من الغرق!

سألني وعيناه تنظران لي:

- هل يمكنك أن تحزر؟

رددت بشك:

- لا. لا يمكن ذلك بالطبع..

- **قدّر.**

لويت شفتي:

- **عشر هويات مثلاً..!**

انفجر الرجل بضحكة مجلجلة غريبة كشفت أسنانه الصفر. انحسر وجهه من الغترة المائلة فبان أكبر قليلاً من وجهه الذي أعرفه قبل ثوانٍ. هدأ وهو يشعل سيجارة جديدة وينظر لي بجدية:

- **لا توجد عندي إحصائية مضبوطة.. لكني أعرف أننا نمتلك أكثر من 700 هوية شخصية ومستند وعناوين مختلفة لرجال ونساء وضعت في جيوبهم شعارات ثورية ودينية متطرفة.. ابني لديه العدد الأكيد....**

صعقني الرقم. كان الرجل جاداً على ما يبدو. سحب عينيه مني ونهض. رفع من تحته الخشبة التي كان يجلس عليها وغمس يده في الفوهة العريضة فخرجت مع قبضة يده هويات كثيرة.. رماها تحت قدمي:

- **هل صدقت الآن؟**

عشرات من الوجوه الصغيرة المكبوسة قريباً من أسمائها تطالعني وهي منكفئة على قش الزورق. هويات لا غبار عليها لأناس قتلوا بطريقة ما وأُغرقوا بعشوائية مفرطة. تناولت إحداها فطالعني وجه شاب يحدق بعينيه الواسعتين إلى لحظة التصوير الصامتة.. أحمد... اسم الأم عائشة.. اسم الوالد عبد الله.. التولد 1985 المهنة طالب.. الحالة الزوجية أعزب... وكانت الثانية هوية شرطي بدا بوجهه الضعيف كأن هناك من يهدده في لحظة التصوير.. الثالثة صورة شابة لم تخف ابتسامتها الخجلة أمام عدسة الكاميرا..

تتالت بين أصابعي الوجوه لشباب وشابات وشرطة وجنود، والزورق يمشي ببطء. تخيلت مقاتلهم المفجعة وغرقهم القاسي وهم يتناوبون بين أصابعي. الرجل يدخن بشراهة والغبار ينقشع جزئياً والظهيرة ساخنة.

رائحة النهر تختلط بعواء بعيد والمدينة تبتعد، والقرية تقترب. ربما الآن أحسست بعزلتها المطلوبة. صوّرتُها من منتصف النهر. شكلها الخارجي يختلف عن داخلها؛ بدت كقطار مهجور عصفت به انفجارات قديمة.

انزلقتْ واحدة من الهويات قرب قدمي وأنا أجمعها بقبضتي. شيء ما جعلني أن لا أعيدها. نظر منها وجه شاب وسيم يطالعني بعينين غامضتي الإشارة.

قلت للرجل وأنا أعيد له أكوام الهويات المقتولة باستثناء واحدة ظلت يتيمة تنظر لي:

- وماذا ستفعل بها؟

نفث دخانه وقال بحيرة:

- لا أدري!

رفعت الهوية ودحستها على عجل في جيب قميصي قبل أن يرسو الزورق. سرقُتها بصراحة لسبب لا أفهمه. كنت اشعر بشيء من الارتباك والخجل في داخلي. لكن الشاب الغريق استقر في جيب قميصي وكنت اشعر بالرضا بالرغم من كل شيء.

رافقنا صِبيان الحي من جانبي الزورق وهم يعومون مثل الجراء الصغيرة. تعلموا على وجودي بينهم وعرفوا أني في بيت الأستاذ الذي يجلّونه. رسا الزورق على حافة الشاطئ. نقدت الرجل أجرة مضاعفة أفرحته على ما اعتقد. وقلت له:

- هل تعطيني رقم هاتفك يا عم فقد أحتاجك في وقت آخر.

توقع مني هذا الطلب ولفوره ناولني ورقة صغيرة خُطّ عليها رقم هاتفه واسمه الثلاثي الكامل.

وأنا أقف على الجرف قلت للرجل وثمة فكرة مضببة بداخلي:

- يا عم احفظ تلك الهويات..

هذه قضيتك يا ولدي

اتصل بي بوحمد وطلب مني العودة، فالفترة الزمنية أصبحت طويلة والإيفاد تترتب عليه حقوق معروفة. قال إنه أرسل لي اكثر من إيميل ولم أرد.. أمْهِلني بضعة أيام يا بوحمد، فأنا في خاتمة المطاف، لكن لديّ ما أنتظره وسأكتب لك حال عودتي إلى المنطقة الخضراء فأنا خارجها الآن.. أي في وطني!

التحقت بلورا ورندة في المنطقة الخضراء بالرغم من سقوط بعض القذائف وانغلاق بعض الطرق. غير أنني وصلت مع دورية أميركية أخرجتُ لآمرها بطاقة الدخول للمنطقة الخضراء. ساعدتني لغتي الإنكليزية لتيسير الأمر.

عانقتني لورا بمودة عالية وعانقتُ رندة التي غبت عنها الأيام المنصرمة.

قالت لورا أنها افتقدتني طيلة الفترة التي مضت. وميريام تزخّ برسائلها عبر الإيميل الذي لم أفتحه كل تلك الفترة.

خرجت لأرى بغداد التي لم أرها فقادتني المصادفات إلى ما قادت إليه في أحياء كثيرة وزوايا غير منظورة لنا. تعرفت على بشرٍ آخرين تعاملوا مع الحرب الطائفية بطريقة جديدة على المجتمع، بل وجديدة على الحروب وردات الفعل العنيفة. حكيت شيئاً عن القرية وطريقة بنائها الكيفية ودور الأستاذ الذي خُطف وعاد بتجربة مجنونة، ومسرحية القرية التي أسموها مسرحية القرية البوذية.

لم أقل لهما عن الإصبع الحي ولا قارورة الفتاة الرماد؛ إذ تركتُ هذا لوقته. أي للرؤية قبل أن أكون أمام المراسلتين مجنوناً أتخيل ما

لا يصح تخيله.

افترقنا على أن نلتقي في الساعة التاسعة مساء في مكان لورا الذي لا يبعد كثيراً عنا في المجمع الصحفي لنقضي سهرة ديسكوية مع الجنود الأميركان والمجندات الجميلات.

وجدت أكثر من عشرين رسالة ميريامية متلاحقة. فتحتها كلها وقرأت ميريام كما أحب أن أقرأها، فكتبت لها ساعة كاملة عن أشواق شخصية ومشاهدات بغدادية وتوقعات مهنية واحتمالات جعلتها مبهمة بعض الشيء كي أطيل إقامتي في بغداد.. فما بيننا أصبح الوطن فاصلة أيتها الميريام، يغريني بالبحث عنه فيه، **فقد عثرتُ على نتفٍ من ذلك المقصي في ذاكرة أبٍ يجول بتجارته الآسيوية، لعلي أقف عليه في نهاية الشوط المضني وفي جيبي هوية وطن غرقت فانتشلها صيّاد ماهر يرتزق على صيد الجثث، وهي في جيبي الآن. شعورٌ جديدٌ بالمواطنة يعز عليّ مفارقته بعد الآن.**

اخترت لها بعض الصور من القرية ونهر دجلة والجثث الغارقة وسطح الأستاذ وقارورة الفتاة والإصبع المتحرك في البيت الأزرق.

لم أكتب لبوحمد أي شيء. عليّ أن احسب الوقت جيداً، وأفحص ما في رأسي من هوى. فكرت أن أتصل بأبي، لكنني أرجأت الفكرة إلى وقت آخر. ثمة قناعاتٌ جديدة انزرعت في داخلي طيلة الفترة الماضية بالرغم من صعوبة الحياة لابن مهاجر مثلي لا يعرف شيئاً عن مكانه الأول. استهوتني المدن العظيمة وبساطة الحياة فيها. لم يدلني أبي على شيء هنا. عندما وصل المارينز على مشارف العاصمة قال لي بيأس **لا تخبرني إذا دخلوا بغداد.** أحسست أن روحه خرجت من زجاجتها بالرغم منه؛ وهو الذي أقفلها عن بغداد ومدّ حاجزاً عريضاً بينه وبينها منذ خمسين عاماً. لم يحك لي عن ذكرى أو نهر أو شارع أو بيت أو صديق.

مددت جسـدي على الفراش لكي آخذ قسـطاً من الراحة في هذه القيلولـة المبـردة. فالنـوم على سـطح الصفيح لبضعة أيـام كان نوعاً من التحنيـط. ودعـوة بوحمد للعودة فـات أوانها. دخلت صورتها في عينيّ فـي أول إغفاءتـي كيقظـة إجباريـة. تريثـتُ قبل أن أفتـرق عنها وقبل أن يهتز البيت والسرير بانفجار مدوٍّ خلط يقظة المنام بحلم اليقظة السريع. وكالعادة سـقطت قنابر هاون أو صواريخ كاتيوشـا. كان عصفها واضحاً وانفجارهـا يـردد صـدىً مضخمـاً، ثم دوّت صفارة الإنـذار في المنطقة الخضراء للتحوط والانتباه كما درجت العادة هنا. وكان بالإمكان سماع الجنـود النيباليـين الذيـن يرطنون ويركضون خلف حواجـز الكونكريت والأكياس الرملية.

سـقطت ثلاث قذائف متفرقة. أعقبتها قذيفة واحدة بعد لحظات. جـاءت رنـدة راكضـة وهـي تطـرد النوم من عينيها.. يـا إلهي متى ينتهي هـذا؟ كانت مبعثرة الشـعر. تعيسـة المنظر لسـرقة إغفـاءة القيلولة منها. وجاء المصوران خلفها يضحكان ليخفيا قلقهما.

اتصلت لورا على الفور وقالت إنها في ملجأ قرب مكانها. أخذتُ رندة بشعرها المبعثر وركضنا إلى الملجأ ولحق بنا المصوران، فالخوف من تناثر النوافذ الزجاجية هو ما جعلنا نترك البيت.

تكـدس جنـود ومجنـدات ومراسـلون وعمـال خدمـات عراقيـون تحت الأرض وقتاً. كنت متعباً أغالب نعاس القيلولة، لكن وجه مايكل وصديقه الوسخ أطارا تلك الرغبة. كانا منحشرين معنا في الملجأ.

قالت لورا: **لن يستمر هذا طويلاً.**

أشـار لي الوسـخ بيده يحييني كأنه رآني لتوه. وجاء مايكل بوجهه الأحمر:

- **كنتُ ابحث عنك تلك الأيام..**

- **لي أقرباء هنا في بغداد وفضلت أن أكون عندهم.**

قالـت رنـدة أن هـذا الرقيب هو من سـأل عنك فـي غيابك وذلك الذي يلبس زياً عراقياً كان معه. قلت بهمس إنهما من الشواذ. لا عليك بهما.

كفت القذائف عن السقوط. ثمة حركة عادية في الخارج. خرجنا متتابعين. وتقصدت أن امسك ذراع رندة وأقودها إلى البيت على عجل كي لا يتبعني مايكل وصديقه الوسخ.

في هذه اللجة البشرية المتكومة في الملجأ اتصل بي الأستاذ وهو يفتقدني منذ يومين:

- لا تغب هكذا.. وينك؟

- سأغيب عنكم يومين يا أستاذ وأعود.. أعود إلى... الأبد.

أخرجتُ "الأبد" من أعماقي وكنت ألهث. لم تكن كلمة بل كانت قراراً.

- نعلّق عليك الأمل أن يكون مستوى الإعلام كبيراً.

قلت له بحماسة:

- سـأجلب كل المراسـلين والقنوات الفضائية والصحف اليومية، ولنجعلها ثورة مضادة عليهم..

ردّ صوته:

- هذه قضيتك يا ولدي.. إسعَ إليها.

- حصلت لك على كم كبير من الهويات المقتولة. مصادفة عظيمة عثـرت فيهـا علـى قتلـى الحرب الأهليـة. عثرت على هوياتهم مكدسـة تصلـح أن توضـع علـى جدار المقهى.. لدي ما يصلح أن يكون أرشـيفاً وطنياً!

تحمست رندة ولورا لرؤية العرض المسرحي.. **نريد أن نخرج من جو الحرب بطريقة ما.**

أقزام العنف

أبداً بالبغضاء لا تهدأ البغضاء.

بوذا

كان يوماً من أيام الحرية المنتزعة من ماسورة الحرب الطائفية يا بوحمد. خرج عن التصنيف القسري لروزنامات الشهور بامتياز، ولعله سيكون يومي الحرج معكم في تشكيلته الغريبة ومفاهيمه الجريئة التي ستضعون تحتها أكثر من خط أحمر! هكذا أضحت الأمور في تسابق عجيب مع الزمن المحتضر تحت أحذية الاحتلال وشواجير البنادق.

الأستاذ بوردته الموسيقية المشدودة على عنقه النحيف يمر على البيوت بيتاً بيتاً وصوته الأليف يملأ فضاء القرية..

دعونا نخرج من هذا المحبس يا أهل القرية..

العالم سيأتي إلينا..

هذه مسرحيتكم وملهاتكم.. هذه كوميديا بوذا التعيس.

قولوا للعالم ما عندكم..

قولوا له أن السلطة ليست عنفاً.

قولوا العنف يثير غريزة الدفاع عن النفس بشتى الطرق..

العنف يجعلهم أقزاماً أمام التاريخ.

فلا الملالي قادرون على أن يعيدوا الحياة إلى الوراء،

ولا أفندية بريمر العملاء يمكنهم أن يخدعوا الناس زمناً طويلاً.

ولا انتهازية السلطة الجديدة يستطيعون الضحك علينا..

تعالوا بقوة وانهضوا من رمادكم وقولوا للعالم لن نموت بطريقتهم.

لا تحتاج القرية إلى أن تخرج، فهي طافية في مكانها كالرغوة. لكن الأستاذ يعرف وقع كلماته وكيف يجعل الرغوة تتحرك لاستقبال الإعلاميين والمراسلين بأعلامٍ ملونة خُطت عليها تواريخ عبثية ورسومات عشوائية ورايات مزركشة مختلفة الأحجام، وطائرات ورقية يقودها صغارٌ وصغيرات، تعلو صفوف النساء والرجال والشباب، وملأت الجو موسيقى شعبية استعملت فيها السكسفونات والأبواق العسكرية وطبول الكشافة وأواني الطبخ المختلفة. حولت المكان إلى مهرجان صاخب خرج عن جاذبيته الأولى في فلك الفرح السعيد، كقرية في غابة بدائية يسرها القادمون من كوكب آخر للاحتفال معهم في مناسبة شعائرية. في حين اخذ الصغار والصبيان كعادتهم يعومون إلى مساحات قريبة من الشاطئ لقيادة الزوارق التي تقل المراسلين الأجانب والعرب كنوعٍ من الترحيب بالغرباء.

ومن الزوارق المتجهة إلى القرية كانت عيون الكاميرات توثق المشهد الملون المصطف وهو يقترب أمامها متمهلاً، لتنكشف مع التقدم البطيء وجوه النساء اللواتي غطست أطراف أقدامهنّ في طين الجرف وهنّ يتقدمن الرجال بزغاريد امتلأ الفضاء بها. واستقبلن المراسلات والمراسلين بطريقة احتفالية أدهشت الجميع وانتزعت منهم إشارات الإعجاب، في حين كان الأستاذ بطوله النحيل البارز يتقدم الرجال ببذلة جامعية قديمة ويلف رقبته بوردة موسيقار مغمور على قميص ابيض، متحدثاً باللغة الإنكليزية بطلاقة مترجم فوري ووجهه يعبّر عن رضا كامل.

هبط حشد مراسلي المنطقة الخضراء على جرف النهر بين صفوف الأهالي بكاميراتهم المختلفة وتقدموا ببطء، قالت لورا: **الخضراء خلت من الصحافة والإعلام.. اليوم هدنة للجميع.. يبدو لنا حتى القتال هدأ**

هذا الصباح!

صعد المراسلون سفح النهر وواجهوا القرية من مقهاها وسوقها وحشد الرجال والنساء والأطفال وزينة المكان بالرايات الكثيرة التي تلفت الأنظار إليها. كان الأستاذ يقوم بدور الدليل العارف:

- هذه قريتنا التي أنشأتها المصادفة بعيداً نسبياً عن العاصمة بغداد.. كنا غرباء. لم نكن نعرف بعضنا من قبل، لكن الحرب الأهلية التي تعيشونها معنا والانفلات السياسي الذي تعرفونه، والاستهتار الذي تمارسه الميليشيات والعصابات الزرقاوية المتطرفة كلها، جمعتنا هنا بطريقة الموت المؤجل والهجرة المؤجلة والبقاء الذي لا نؤجله تحت أي ضغط كان.

كانت الكاميرات المحمولة على الأكتاف توثق أولى لحظات القرية عبر حديث الأستاذ:

- ألفت انتباهكم إلى أن هذه المصادفة التي ندّعيها أخرجتنا أنصافاً من البشر، وفي هذه القرية نحاول أن نستجمع أنصافنا البشرية المفقودة سواء ما كان منها ميتاً أو مخطوفاً أو معتقلاً أو مَن ركبه الوساس الخنّاس خوفاً وهلعاً من حرب يومية تجوب الشوارع حتى اليوم، وتلقي بجثثها في النهر كل يوم وتحنّط الإنسان في منامه ومقامه وخلوته لتقضي على أنفاسه بشكل سادي لم يشهد له العراق سابقة من هذا النوع المتطرف.

استمر الأستاذ بلغة إنكليزية صافية وأفكار سهلة وطيعة:

- أصدقائي.. أهلاً بكم في قرية الحرية، المبسطة، التنكية، الصغيرة، الفقيرة، الحقيرة لتشاهدوا مسرحية اليوم التي سميناها "مسرحية القرية البوذية" من دون أن نقصد تبويذ الناس أو نحثهم على صناعة بوذا خارق يعيد إليهم كرامتهم..

قال يعرّف المراسلين بالحدث:

- هذه المسرحية اشترك أهل الحي من نساء ورجال وشباب

وبنـات وصبيـان وصغار في تأليفها وإعدادها وإخراجها، وهي عبارة عن قريـة وضـع المتكلـم لبنتها بعد عودته من اختطافـه ونهب ماله وإقصائه من وظيفته لأنه وقف ضدهم وحرّض ضدهم. أسسها على التأمل منهجاً وسلوكاً اقتداء بمفكرين وفلاسفة أنبياء وأشباه أنبياء ابتغوا نشر الفضيلة بين الناس وتجنب الحروب وسفك الدماء.

كان يجيد التعامل مع صفوف المراسلين وكاميراتهم المبحلقة في وجهه وهم يشكلون نصف دائرة حوله:

- لنا لقاء موسع في مقهى القرية. والآن تجولوا فيها غير مشروطين بشـيء. ادخلوا المسـرحية من أبوابها المفتوحة. ادخلوا البيوت من دون اسـتئذان. اصعدوا إلى السـطوح وصوّروا النهر الغريق. صوّروا السـماء أيضـاً والطيـور المرتحلـة والطائرات المحتلة. أدخلـوا الغرف والمخادع والحمامات التقوا بالناس في السوق والمحلات فسيقولون لكم شيئاً لم تسمعوا به.. القرية مفتوحة أمامكم.. هيا.. لقد بدأ التاريخ..!

أحنى الأسـتاذ رأسـه كمن ينتهي من فقرة أكاديمية وأفسح المجال للمراسـلين المتجمعيـن علـى حافـة النهر، ويداه ممدودتان باسـتعراض مسـرحي كـي يمـروا.. فانطلق تصفيـق حار وتواترت كلمـات إعجاب. تزاحمـت العدسـات عليـه من زوايـا مختلفة، فكان نجـم اللحظة ومثار الحاضرين.

كانت أجمل فوضى تشـهدها القرية وأجمل لحظات جماعية بين غربـاء مـن العالم تخلصوا مؤقتـاً من جو القتال وانفجارات المفخخات والأحزمـة الناسـفة وتهديـدات القاعـدة بالخطف والذبـح، ليدخلوا حياً عشـوائياً اقترحه قدر الأسـتاذ ذات يوم كان فيه عازماً على اسـتخلاص التجـارب الإنسـانية القديمـة، ليوظفهـا كرأسـمال فكـري ومعرفـي فـي المدينة، غير أن العاصمة الطاردة التي قضت على أحلامه تركته منزوياً هنا في بيت صفيحي ظلت الكلاب تحوم حوله أشهراً طويلة.

تراصفت الكاميرات وأغلقت كل الفراغات الصغيرة بينها، ونوّرت البروجكترات أجزاء مظلمة من القرية لا سيما الشارع الوحيد الذي يكوّنه، فبدا في حلة ضوئية مثيرة تحت السطوع الباهر. تكاتف أهل القرية وتركوا بيوتهم مشرّعة، منغمرين في مهرجان الصباح بحُلل العيد الاستثنائي لقرية لا تشعرهم إلا بأنها مستودع أخير، في حين توزع المراسلون والصحفيون بين البيوت والدكاكين الصغيرة.

تعرفت على **دانيال سميث**[1] في فندق الشيراتون في غرفة لورا ذات مساء لكنه لم يسمع عن هذه القرية، سألني إن كانت لي معلومات عمن يقف وراء بنائها ولماذا لا تحصل بها حوادث انفجارات وهل سكانها من السنّة أم الشيعة أم المسيحيين، فحدثته كالعارف بكل شيء وبتفصيله الحقيقي، لكنني حجبت عنه معلومات الإصبع الحي وقارورة الرماد فهي من شأن صاحبيها.

كان ينظر لي باستغراب وهو العارف بأني قادم من دبي قبل بضعة أشهر، لكنه سألني بتشكيك:

- **هل أنت من أهل القرية؟**

كما لو كانت بي حاجة أن يسألني أحدٌ هذا السؤال، وجدت ذاتي منفتحة على الانتماء إلى شبر واحد من العاصمة، ولم أتردد لحظة واحدة حينما أجبت السيد سميث:

- **ولدتُ هنا.. هذا مسقط رأسي!**

أشرتُ إلى بيوت القرية. كانت ذراعي ممدودة إلى البيوت وهي تتحرك بشكل تلقائي كما لو أن بوصلة مخفية تحركها كيفما شاءت. نظر سميث إلى الاتجاهات كلها، حيث صخب الموسيقى والأغنيات الشعبية والرايات العالية التي تشكل لوحدها قرية ملونة تعتلي السطوح.

---

(1) مراسل حر لعدد من وسائل الإعلام العالمية والمنظمات الدولية، وهو باحث صحفي في مجموعة الأزمات الدولية، يعد من أقدم المراسلين في بغداد.

كان ثمة مراسلون يتخاطفون بين الرايات ويصوبون كاميراتهم إلى أمكنة مختلفة من النهر ووراءه وأمامه.

قال سميث بروح ودية لا تخلو من جدية:

- **أفهم الآن ضرورة ولادتك هنا.. أنت مبدع!**

هز رأسه مستحسناً ودخل بين الجموع على أنغام شعبية راقصة. لم يتوانَ أن يخبط بقدميه الأرض راقصاً عفوياً استساغ لحظة النشوة المحلية التي تعلّم عليها طيلة وجوده.

افتقدت لورا ورندة. دخلت السوق بين زحمة الناس والمراسلين منقاداً بأضواء البروجكترات الساطعة التي أشعلت القرية بنور وهاج. كان الشاب المسرحي يتحدث لإحدى القنوات اليابانية من دون أخيه الإصبع. وكان جرجيس يتحدث بالتركية إلى محطة تركية، وثمة شابات تتجمع حولهنّ أكثر من كاميرا عرفت منها الجزيرة وMSNBC والقناة الفرنسية الثالثة. كنّ كالفراشات المزهرات بألوان ثيابهنّ وسعاداتهنّ المنتشرة على وجوههنّ. في حين كان صياد الجثث سبقاً إعلامياً أميركياً لفضائية فوكس للأنباء. بدا بغترته البيضاء ودشداشته المكوية بعناية كأنه أحد شيوخ الخليج. وكان يمسك بيده قبضة هويات جديدة لم تعرض بعد على حائط المقهى في حين كان خليط من الغرباء ينتظره بصبر فارغ.

أمام محل لبيع الملابس المستعملة كان الأستاذ يتحدث بشكل سريع للـ MBC عن قرية الصفيح التي انفتحت على الجميع بتسمية القرية البوذية كمسرحية شارك الجميع بصياغتها صياغة عفوية من دون التقيد بعرض مفبرك، فالحياة الضيقة هنا يمكنها أن تنفتح وتتسع كأجنحة الملائكة، وسكان القرية مخوّلون بنقد مظاهر الحياة المخيفة في العاصمة الكبيرة والسخرية منها، والبصق على حرب الطوائف التي أغرقت الأبرياء وأحرقتهم في فورتها المسعورة.

مراسل ياباني لم أره من قبل كان يتحدث مع قطة بيضاء عبر نقل

مباشر. لم اسمع الحوار جيداً بسبب الموسيقى المنبثة من كل مكان، وكان الياباني يصغي لها بود ويكثر من أسئلته عبر الهواء. لكن يبدو من إشارات القطة البيضاء أنها كانت تتحدث عن فزعها من الرصاص في بيتها السابق ورعب المفخخات المنفجرة ومخاوف الناس. وعلى مقربة من الحِب المائي[1] كانت مصورة زنجية تصور الكتابة الملفوفة عليه "تذكّر عطش الحسين الشهيد" ثم تتصاعد كاميرتها تلتقط الوجوه القريبة بزومات ذكية ومن ثم تقترب من الكنيسة الصغيرة وتمسك الصليب التنكي بلقطة واضحة.

لم يفلت الأستاذ من الكاميرات المحيطة به..

كان يقول لأحد المراسلين الألمان: **أي عَلم هنا هو علم الحي.. كل علم في كوكب الأرض هو عَلَمنا. أنتم منّا ومن قريتنا، والآن أنتم تكتسبون درجة المواطَنة. نحن بشر لا نطمح بالخلود لكن نطمح أن نكون لائقين في الحياة في أقل تقدير؛ بلا مشاكل دِين وعمائم ملغّمة ولا سياسة عميلة.**

ناداني كي يتخلص من ثقل الضغط الإعلامي عليه ثم انسلّ بصعوبة وهو يبتسم. تبعه آخرون ممن حملوا الكاميرات الخفيفة، وبقيت الأغلبية تحاصرني بأسئلة كثيرة، وكنت أتماهى مع الحالة المسرحية التي كنتها، هي حالة التألق الروحي التي تعتريني منذ فترة ليست قصيرة في بساطة المكان وعظمته حينما وجدتُ ضياعي في بغداد حالة حقيقية آلمتني، وكان خط العودة مفتوحاً إلى سواحلي التي هجرتها وميريامي التي اعشق كل شيء فيها وبوحمد الذي ما كان يتصور أني سأكتب له الاستثناء والمطمور من حرب الطوائف الغبية. لكني أغمضت عينيّ عن ذلك الخط المفتوح وتناسيته عمداً، فقد كانت خطوات الخوف تقرّبني

(1) إناء فخاري متوسط الحجم يخزّن الماء فيه في القرى البدائية التي لا تعرف الطاقة الكهربائية.

إلى ما أجهله، وتفتح أفقاً لكل مجهول يصادفني وحقيقة تتوضح ولو بشكل عجائبي، فمن الحقائق المنفتحة كزهور الصبّار انفتحت خطواتي بالتدريج من فندق الشيراتون حتى هذه القرية - المسرحية.

صار لساني رأسي. انسكبت الأفكار بسلاسة. لم تكن مسرحية القرية البوذية سوى إرهاصة من إرهاصات الحرب الطائفية، إنها مسرحية العصر العراقي المُشتت بين العمائم السود والبيض والدشاديش الملطخة بالوحل والدم والوجوه العفنة المقنعة التي تجيد الذبح بالسيوف. القرية البوذية هي مسرحية تعرض لكم الآن وأنتم وجودٌ فاعلٌ فيها. يراكم العالم في هذه اللحظة وكل شيء حولكم يمضي بيسرٍ وسلام، ما لم يأت المتصيدون في الماء العكر، منبوذو الطوائف أو المتطرفون. أصحاب الفتن الكبيرة والصغيرة. هؤلاء الذين يسلقون البيض بالبارود لتطهيره من حيض الدجاج. ويكنسون فروج زوجاتهم باللحى القذرة قبل أن يلحسونها راكعين.

تعالوا إلى مقهى القرية الصغيرة. هناك نجتمع ونحكي ونطلعكم على آمال العراقي المتجسدة في هذه القرية - المسرحية بشكل مبسط، ربما لا يفقهه العامّة كثيراً كما نريد، لكنهم تطامنوا إليه وفهموا بالسليقة أن العقل هو غنى الروح وان المعرفة التي ينادي الأستاذ بها هي صرخة بوجه الأمية السياسية التي احتلت البلاد والعباد. وان السلام الكبير لا يستوعبه إلا من كانت عقولهم كبيرة وقلوبهم بيضاء مثل الثلج ونفوسهم كريمة وإشراقاتهم تفيض على البشرية أينما تكن.

أهل القرية المصابون بداء الحروب عليهم إدراك السعادة مهما ابتعدت عنهم، فلا حقيقة واحدة ثابتة في الحياة، لهذا بقينا فترات نعيش الشكوك. الشك زورق يتنقل والحقيقة زورق يتنقل وعلى البشرية أن تتنقل بزوارق الشك واليقين لتصل إلى مرفأ السعادة المنتظّر.

بدوت استوعب أفكاراً جديدة وأنا أنتمي إلى لحظتي الأليفة في

تجليات نفسي الحبيسة التي أخذت تنطلق إلى أفقها الرحب بطراوة وليونة لم أعهدها في نفسي من قبل.

تحولت القرية بعد لحظات إلى مطعم متجول. أمهات سعيدات بهذا الجمع الغريب طبخن الغداء البيتي المختلف، وأخوات وجدن الحياء لا يناسب هذه المناسبة فخرجن يوزعن الحلوى والزهور والهدايا على الضيوف. وشابات ملأن القرية جمالاً بأغاني العصر التلفزيوني الذي يختصر ألوان الحب ولو بسذاجة العشاق الصغار. وصبيان يصطادون السمك الصغير ويأتون به معلقاً بسنّاراتهم أمام الكاميرات.

يبدو أن المقهى اكتسبت صفة متحف مرتجل وبسيط للمراسلين الذين يدققون بالهويات المتراصفة وقصاصات الصحف العائدة إلى أيام الاحتلال الأولى وصور البيوت القديمة وهويات عثمانية قديمة فقدت شرعيتها الرسمية، والشخصيات السياسية والغنائية المعروفة. وجدت عبد المحسن السعدون صاحب التمثال الصغير في شارع السعدون الذي كنت أجهله يوم كانت الكف الانتحارية على كرسي المخلمة. وخرائط بريطانية للعراق الواسع من شماله إلى جنوبه. كانت فرصة لي أن أبحث عن مكان ما، فوجدته منحشراً في مدينة البصرة ويكاد لا يُذكر كأنه بصقة جافة عبرت عليها أحذية الأميركان. هذا هو الرصافي بشاربه الهتلري يقف على قاعدة تحيط بها أزبال الديموقراطية. وهذه أطوار بهجت ميتة في سامراء، أطوار التي حفزت روحي الغريبة كي أكون هنا؛ فتاريخي الشخصي بدأ من لحظة ذبحها البشعة. وهنا الأبشع: فضيحة سجن أبو غريب التي كشفت بؤس الحكومة وضراوة الاحتلال.. أجساد مهانة وعري مستباح وسياسيون ضعفاء ومنافقون.. سجناء عراة تخلت عنهم مروءات الآخرين، وتبرأ منهم سياسيون كذابون وافترسهم سجانون وكلاب مدربة، فتلاشت فيهم روح الحياة وانحشرت بين عريهم الخجول أوقاتاً مضنية من الخوف والموت في

جمهورية الاحتلال الساقطة.

حشـود من النسـاء والرجال تزاحم المراسلين وهي تعاين بهويات الصيـاد التـي علقهـا هنـا ناقصـاً واحدة وضعتها في جيبـي يوم كنت في الـزورق. والصغـار يجلبـون المزيـد من النفاخـات والنشـرات الضوئية لتعليقها في أية فسحة ممكنة على المقهى الممسرح.

الضوء المنتشـر في كل مكان غيّب الوقت الذي يمضي باحتفالية عفويـة تركنـا فيهـا أهـل القريـة يتصرفون بالشـكل المناسـب ويبتكرون فقرات من الألفة والحب الجماعي.

ربما هو الضوء الساطع أيضاً الذي جعلني أرى عينين تحدقان بي طوال الوقت. عينان جميلتان لشابة رأيتها في مكان ما. ابتسمت وهزت رأسها وهي تحاول أن تتخلص من زحام الأكتاف وتقترب مني كعصفور وجد غصنه الحي.

- أهذه أنتِ؟

اتسعت ابتسامتها وصافحتني:

- هذه أنا..كنت أراكَ منذ بضعة أيام مع الأسـتاذ ولـم أجد فرصة لتحيتك.

- هذا يعني أنت هنا..؟

- أنا هنا...

- لم أركِ بعد تلك المرة.

- جئت مرتين ولـم أجدكَ.. أقصد لم أركَ..!

رأيتُ زهور عينيها في خليج عينيها.

قالت كالمعتذرة:

- قتال الشوارع منعني من الوصول...

وأضافت:

- قضيتُ الوقت اصلّي في الكنيسة..

هذا كل ما تستطيع الفتاة قوله وما عندي تلجلج في صدري. لفتني وجهها المشرق الذي كان الحجاب يغطيه في المرة السابقة، وعيناها السوداوان وشفتاها اللتان تعضهما في أوقات الحرج. كانت صغيرة مثل أرنب أبيض. و.. لا بد أننا جميعاً اختلطنا بطريقة فوضوية وفي زحمة الشارع الوحيد الذي يُطبق على الأكتاف والأجساد. فابتعدتُ عن زحام السوق إلى زحام المقهى في المتحف الذي تزداد الشواهد فيه من صور وآثار وهويات ومستندات وشهادات مختلفة.

لم تعكّر صفاء المهرجان المرأة التي صرخت وهي تشير إلى إحدى الهويات المعلقة.. **هذا ابني**.. كانت الصورة الصغيرة تنظر إليها وكانت المرأة تخمش خديها وصوتها يترنم بالوليد الضائع في بطن دجلة. ابتعد الصياد ليمنع حرج السؤال عن هذه المصادفة وقد تبدلت سحنته واعتراه أسفٌ واضح.

صرخت المرأة بحرقة. كانت فرصة للمصورين أن يضعوا المرأة في صورة المصادفة العجيبة التي كشفت غريقاً يسكن القرية أهلُهُ. تدخلنا جميعاً لمواساتها ونقلتها النساء إلى بيتها القريب بألم مشترك ضرب وجوههنّ.

وحده كان الأستاذ يقف في منتصف مسرح المقهى الصغير وما تزال وردة الموسيقار في عنقه تحدد ملامح وجهه. تجمع المراسلون وأهل القرية في مساحة ضيقة. تراصفوا في محشر واحد وكان الأستاذ بؤرة الأبصار المتوجهة إليه:

- أيها الأصدقاء.. امرأة وجدت ابنها المقتول الغريق في آن واحد. مصادفة لكم، ولنا حقيقة متوقعة.. خرج الابن يوم أمس إلى رزقه في العاصمة وعادت هويته الشخصية حسب وبالطريقة التي ترونها الآن..!

عدّل الأستاذ من قيافته واسترسل:

- سيأتي آخرون ويجدون أبناءهم الغرقى في دجلة.. هنا أكثر من 700 وثيقة رسمية وهذا يعني أن 700 غريق تعرف عليهم صيّادٌ واحد، فما بالكم لو عثر عشرة صيادين على مثل هذا العدد من الهويات على امتداد نهر دجلة! هذه هي القصة التي تربكنا جميعا ويريد منفذوها خراب الإنسان وتحطيم كرامته باسم الدين والديموقراطية المسلحة

ساد صمت إلا من بكاء امرأة وجدت ابنها القتيل قبل قليل، فشكّل بكاؤها خلفية مسموعة لخطاب الأستاذ:

- أعلن لكم أن المسرحية تنطلق الآن من هذه النقطة الحرجة.. نقطة الضياع الجماعي الذي يحل بيننا.. وثمة مجموعة أسئلة يسألها الناس كل يوم: ماذا لو سادت شريعة القتل والخطف والتعذيب والغرق والتنكيل بالإنسان باسم الدين حسب! ألهذا الدين كل هذه القدرة على تحطيم البشرية وإلغائها من دون مراعاة لقيم السماء؟ أمن أجل هذا أوصل الله من سمائه البعيدة الأديان لتضع الإنسان بين أسنانها وتقضمه حينما تتوفر الظروف لها! هل الدين وحش مفترس أم هو عبور إلى قنطرة الفردوس الأزلية بطريقة الفضيلة والسعادة والسلام والعدل!

كانت عيناه تتوزعان على الجموع ويداه ترسمان خطوطاً وهمية أمام الأعين الصامتة:

- يقولون لماذا تنظرون إلى الغرب أنموذجاً في حقوق الإنسان والديموقراطية والمساواة الاجتماعية وهو الذي أقصى دينه السماوي في كنيسة الفاتيكان؟ حسنٌ. ماذا لو اقترحنا فكرة واحدة تستخلص عصارة الأديان كلها إذا آمنّا برب واحد وخالق واحد؟ ما المشكلة؟ ستقولون كل دين نزل في وقته وتاريخه وعلى بشر مختارين.. هذا كلام واقعي، فهل هذا يعني أن الأديان وقعت فريسة التاريخ؟ هل يعني أن هناك منتفعين من بقاء أديان قديمة لكسر شوكة الإنسان في كل زمن وكل مكان؟

تعرق وجه الأستاذ وهو يكظم غيظاً لا يريد الإفصاح عنه الآن. أعرفه يكبح كثيراً من الأفكار داخله، لكنه حقيقة كان سيد الكلام بجرأته التي نعرفها، من يفهمه ومن لا يفهمه.

خرقت الصمت مروحيتان أميركيتان في دورية يومية. وتركتا وراءهما هديراً أخذ يتلاشى بالتدريج:

- مسرحية القرية نتاج هذه الأسئلة وهي أسئلة منطقية طالما أن الحرب الطائفية يقف وراءها من يقف. هناك احتلال أميركي صريح. وهناك مقاومة غامضة انحسرت وراء شعارات دينية طائفية متطرفة. فانكشفت أكاذيبها في العموم وصار الدين متوزع الأشلاء بين الشيعة والسنّة وولاية الفقيه وأفكار الظلاميين السعوديين ومن على شاكلتهم من القاعدة وتلك هي بعضٌ من النتائج (أشار بيده إلى حائط الهويات المعلقة) **أن يموت الناس غرقى مذبوحين!**

تقدمت فتاة صغيرة وناولته قدحاً من الشربت. احتساه دفعة واحدة وأكمل:

- قرأت تاريخ البشرية كله. استخلصت فاكهة الأديان وسمومها كلها. اعتكفت سنوات وأنا أتملى بتطور الفكر الإنساني الذي بدأ من الأسطورة والدين؛ بعدما أهانني طلابي باسم الدين؛ واختطفوني شهوراً ثلاثة باسم الدين؛ ومن ثم سرقوا مالي باسم الدين أيضاً.. لكن يبدو أننا نحتاج إلى غاليلو وكوبرنيكوس ونيوتن ليفصلوا هذا عن ذاك كي تعيش البشرية حياتها بلا حجرات مظلمة وكتب أكلتها العثة..

صمت قليلاً وأضاف:

- لم يُقتل من بيتي لا ابنٌ ولا بنتٌ ولا أخٌ ولا أختٌ ولا زوجةٌ ولا من الأقربين ولا الأبعدين منهم، ولو حدث مثل هذا لكان أهون عليّ من هذا العار الذي أحمله الآن بينكم..!

أخذ صوت الأستاذ يختلج ووجهه يتعكر، لكنه تمالك نفسه:

- هداني التاريخ إلى المعرفة التي لم أكن أجهلها. لكن سنوات الظلم التي مرت كانت معلبة على ثقافة واحدة وصنم واحد. لذلك أجلت المعرفة إلى حينها الذي حلّ اليوم بمناخ لا يختلف كثيراً عن ذلك الجثام إلا بتسمياته الفضفاضة.

هداني التاريخ يا سادتي إلى سادة الحكمة ومؤسسي السعادة بين الناس. قالوا لي اخرج من اعتكافك ولا تدع الناس تأكل الناس. انشر الفضيلة بينهم واجمع شملهم. قلت لهم ما أنا برسول كي أنقل الفضيلة للناس وما أنا وليّ تتبعني الناس، وما أنا بقديس تتلمس أطرافي الناس فهم من أسقط المتاع. أنا نفسي أريد أن أتعلم الفضيلة منكم. قال لي أحدهم: انصر شقاءهم، علّمهم كيف يتجاوزون الشقاء.. قلت له يا أخي بوذا أنت لست نائباً في البرلمان العراقي، ولا يعرفك عارفٌ بين الناس هنا. وحتى هؤلاء النواب لا يعرفهم أحد من الناس. لا صورة لك ولا حكمة ولا قصيدة في مدارس البنات والبنين.. قال أيها الأستاذ ما أنا نائب في برلمانكم ولا مرسل ولا وصيّ على أحد ولا شاعر ولا صعلوك. قلتُ له قلِ لي ماذا أقول للناس عنك وعن زمنك؟ قال لا تذكر اسمي بينهم. خذ مني ما يناسبهم ومن أقوالي حجة لهم وقل هذا من إلهام الله أيها الناس؟ ولكن هل أنت تتكلم من الله أيها النائب بوذا؟ لا أيها الأستاذ النبيل. الله أخرجني من قصر منيف وتركني في برية مظلمة.. أودع في قلبي نوراً فخذ مني ما تشاء وفصّله على مقاماتكم. لكن خذ من قبلي ما تجده صالحاً لينمو بينكم كما ينمو العشب على أهداب نسائكم الجميلات. ومن بعدي خذ ما تراه موثوقاً من حِكَم الأنبياء والمرسلين من أولئك الذين مشى النور في عروقهم كي يمشي النور النبوي في عروقكم. قلت له أيها المستنير أنِرْ طريقي بحكمة أخيرة. ضحك المستنير الحي وقال خذ وردة من كل حديقة وازرعها في سندانة تَسَعها كلها واسْقِها جمعاً لا فرادى من ماء دجلتكم كي تتآلف

عروقها وتترقق، ثم اسقِها بعد وقتٍ حسب فصولها وألوانها ومزاجها ستجد أنك بستاني ماهر.. ضحك الرجل ونمتُ ليلتها تحت وافرٍ من المطر نوماً مرتاحاً؛ وفي الصباح وجدتُ نفسي منشغلاً بتأسيس مسرحية على شكل قرية ابتدأتها ببيتي الصفيحي المتواضع الذي لا توجد فيه إلا كتب مؤسسي الحكمة.

صفقت الحشود للأستاذ النبيل وزغردت النساء بعد هذا العرض الحواري مَسْرَحَهُ الأستاذ وفرض الصمت بطريقته الخطابية التي وجدت أصداءها بين المراسلين.

مريم.. اكتشاف النهر

صرخت النساء قبل الرجال أمام مشهد مفاجئ لم يكن بالحسبان، ومع رهبته وغرائبيته، لكن حضوره أضفى أسئلة في قرية الأسئلة الكثيرة. كانت القامة المديدة التي اقتلع الزرقاوي رأسها تخطو ببطء ساند من يدي أخ لا يفارقها. القامة ترتدي بنطلوناً وقميصاً وتمشي باتجاه الحشد الذي نفر منها، عدا المراسلين الذين رأوها مرة في فندق الشيراتون. أعادوا اللقاءات الملحّة والأخ يرد بالتلعثم ذاته. والناس تقترب بحذرٍ وخوف لترى رجلاً مقطوع الرأس لكنه لم يمت!

وجدتني لورا ووجدت رندة وكنت ابحث عن عينين سوداوين وسط الزحام. انطفأت بعض البروجكترات القوية فخالطت الضوءَ شمس الظهيرة في إنارة متوازية.

صعد أحد الشباب إلى مسرح المقهى وقال بصوت سمعه الجميع:

- صديقاتنا وأصدقاءنا. نلفت انتباهكم إلى أن إحدى المحطات الأميركية ستجري حواراً مباشراً مع الأستاذ بعد فترة استراحة قصيرة في السوق. كما نلفت انتباهكم إلى أن هناك مفاجآت معينة سنقدمها لكم، لذا نرجو من المحطات الفضائية التي ترتبط بالأقمار الصناعية مباشرة أن تُبقي اتصالها حاضراً لنري العالم أن هناك معجزات غير مألوفة حدثت في الحرب الطائفية.. فالمعجزات تظهر في الحروب، والسحر والدجل لا يظهران إلا في المدن الفقيرة على مدار التاريخ.

عبدو مراسل القناة الروسية، قال بمزحة وصوته بيننا نحن القريبين منه:

- معجزات إيه يا عم.. فيه نبي جديد غير الأستاذ!!

ثم التفت لي قائلاً بالطريقة ذاتها:

- **اللقاء اللي حيتم هو جزء من مسرحية القرية البوذية ولا إيه!**

كانت بنا حاجة إلى الطرافة فعلاً، وهذا المصري يحتبس صدره بالقفشات في جو جدي يفصح عن جدية مفرطة بأفكار الأستاذ غير المتوقعة.

استحوذت القامة الفارعة على دهشة الجميع ونسجت لفورها حكايات من الأسطورة والتاريخ والخيال الذي يشتغل على حاسة الخرافة كثيراً.

تدخّل الأستاذ وقال للآخرين : **حبه للحياة جعله يفر من قاتليه.. شعوره بالظلم في لحظة حز رأسه أبقاه حياً.. هذه هي حكايته.**

يتجرأ رجال القرية مترددين: **هذا لا يحدث إلا في الحكايات المخيفة.. هذه قصة من قصص الجن العراقي الذي جاء مع الاحتلال.. نشكر الله الذي وضع معجزته في رأس هذا الرجل.. أين رأسه..!**

يرد الرجل: **نفهم من إحساس الأخ أن رأسه حي.. لكن لا يدري أين!!**

يهمهم المحيطون به ويقول بصعوبة: **ساعدونا بالعثور على رأسه جزاكم الله خيراً!**

تخلصتُ من نفسي بصعوبة من فخاخ الأسئلة. لا أفهم لغة الرؤوس المقطوعة ويقرفني كل شيء يجري عكس الطبيعة.كانت القامة رؤيا ورؤية تشغل الحاضرين بمعجزتها الحية التي فاقت معجزات الخرافات والأساطير.

خاطرة سريعة قادتني إلى فضاء خارج السوق، حيث النهر المنسرح وفتاة الحجاب السابقة التي فاجأتني اليوم تتملى بمويجات صغيرة تتمطى ثم تتلاشى على حافة رجليها؛ وكما هي الحال لمخرج رومانسي أن يجعل من شابين يلتقيان على ضفة نهر بعيداً عن ضجة

المدينـة وصخـب الناس، قادني إلى النهر وفتاته الوحيدة الجالسـة على مرتفـع صخـري يسـتخدمه الشـباب والصبيان لصيد الأسـماك الصغيرة، متدلية القدمين تنظر صامتة أفق الماء الساكن.

اقترب ظلي وتسـلق ظهرها المكشـوف. لم تلتفت للغيمة الخفيفة التي تسـلقتها كما لو كان فيها حدس طفولي من أن عينيها الصارختين بالسواد كافيتان لسحب الغيمة إليها.

جلست إلى جانبها يقودني عطر النهر المنتشر حولها.

- ماذا وجدتِ في النهر!

- لم أجد شيئاً.. ماؤه متعكر.

التفتت لي:

- أنتَ.. هل وجدت شيئاً فيه؟

- وجدتُ شيئاً مني هنا..!

لمعت عيناها بنور الشـمس. كان وجهها أليفاً يكتسـب لوناً خمرياً مغرياً. وكشـف ثغرها المبتسـم عن أسـنان بيض مصفوفة بشكل جذاب وكانت تعض شفتيها اللتين تشبهان فلقة وردة حمراء لم تنضج بعد.

- كل الأشـهر التي قضيتها في بغداد كان هاجس العودة إلى دبي يراودني، لكن النهر أعادني إلى شيء حميم يغلي في صدري.

استدركتُ حينما وجدتُ كلامي عائماً وعاطفياً:

- أشياء كثيرة كانت غائمة أمامي، لكني اكتشفتها في هذه الحرب.

أدارت جسـدها كلـه إلـي. رأيت الصليب يشـق المجرى الخمري تحت قميصها الشفاف في أول زر صغير بعد عنقها.

قالت بعناد الأطفال:

- لكن النهر ليس من اكتشافك!

- حينما نكتشف موجة صغيرة من النهر يكون اكتشافاً.. حتى لو

كان قطرة ضالّة عن قطيعها..

مطت شفتيها فبانت حمرتهما:

- **هل النهر عميق؟**

- **كان عميقاً..**

- **وما الذي حصل؟**

سكتُّ. كانت لغط أهل القرية قريباً.

قالت بذكاء:

- **سمعتك تقول لأحد المراسلين أن النهر الذي ليس فيه عمق يشبه الوطن المكشوف.. صح؟**

نظرتُ في عينيها الجميلتين. وإلى وجهها الصغير. كانت اصغر مما كنتُ أظن. صغيرة إلى حد البراءة. رمت حصاة صغيرة إلى النهر وتأملت تدافع دوائر الماء وعادت تسأل:

- **إلى أين يمضي النهر؟**

تقدم لغط الحي صراخ مفجوع لامرأة. ظننتها امرأة الهوية التي وجدت ابنها غريقاً قبل ساعتين. غير أن صبياً نطّ إلى النهر وأخبرنا أن امرأة غريبة جاءت إلى الحائط بالمصادفة ووجدت هوية زوجها معلقة بين الهويات بعد انفضاض الزحام.

تمتمتُ: **الهويات. كلنا نبحث عن هوياتنا. حتى الموتى لهم هويات في آخر المطاف.. سامحك الله يا أبي.**

ضحك أبي مرة حينما عدت من قنصليتنا في دبي أحمل جواز الاحتلال الجديد. هزأ بي.. مبروك يا ابني.. **أرني توقيع هوشيار زيباري..** دعني أرى توقيعاً كردياً على جواز عربي.. ههههههههههههه ضحك بطريقته المجنونة عندما يستخف بالأشياء وهو يرفع الجواز بيده كأنه يمسك طائراً نجساً لم يره من قبل..

نادى المنادي بالميكرفون من أن الحوار سيبدأ مع الأستاذ وستنقله بعض الفضائيات الأميركية والعربية..

همست الفتاة بصوت خالطه قلق:

- **من اليوم سأخاف على الأستاذ!**

- **وما الذي يخيفك يا..**

- **مريم..**

- **مريم! كاثوليكية؟**

هزت رأسها وأخرجت الصليب من صدرها وقلبته بين يديها، ثم أعادته إلى دفئه كأنما تحميه من شيء خطر على بالها. في حين اصطدم اسمان على لساني بصوت خافت يحملان الصليب ذاته.

نهضنا. قامة متماسكة. طويلة الشعر. وجسد مشدود.

قالت:

- **الآن ربما أكون قد فهمت أن الأفكار العظيمة لا تأتي جزافاً.. ولا تخرج إلا من عقل مكابِد ونفس معذبة..**

- كيف توصلتِ إلى هذا؟

- **الأستاذ.. حياته ونهايته العلمية.. اختطافه واعتكافه الطويل وجنونه المتصاعد.. وأفكاره الصادمة..**

الأميركي المبصوق عليه

لا ولادة للوعي من دون ظروف.

بوذا

جلس المراسل الأميركي والأستاذ متقابلين على كرسيين لا يتشابهان، أحدهما واطئ، في حين أعادت الإنارة الضوء السابح في سوق القرية وترقرق على الرؤوس الداخلة والخارجة من عتمة السوق.

رأيت الأستاذ نحيلاً ورقبته أنحف ما في جسده، ويبدو أن الوردة الموسيقية حصرتها لتكون بهذا الرسم.

استقبل المراسل وجه الكاميرا المربعة وقدم الأستاذ بطريقة واضحة وغامضة في آنٍ واحد. وهي حيلة ذكية يلجأ إليها مقدمو البرامج والمراسلون لإيقاف حركة الكونترول التلفازي بأيدي المشاهدين في حين وضعت جهاز التسجيل الصغير يتوسط الاثنين:

مؤسس حي من الصفيح في بغداد.. مفكر غير معروف يخلط الأديان في دين جديد قوامه شخصية بوذا وأفكاره. أكاديمي سبعيني يعد أستاذ الأجيال في العراق. يُختَطَف ثلاثة أشهر وتخلصه فدية مالية ضخمة.. مؤسس حركة اجتماعية تأخذ من الأديان جوهرها وترمي بتفاصيلها في قاع النهر.. رجل الساعة في بغداد يقود حركة تصحيحية ضد رجال الدين المتزمتين. يؤمن أن الخلاص الثقافي والمعرفي هو الطريق الأمثل لخروج البلاد من أزماتها السياسية.. أستاذ جامعي متمرد على سلطة يراها جاهلة وأمية، استبعدت الثقافي واتخذت من السلاح ذريعة لمحاربة معارضيها، ولا يعفيها من العمالة إذا أراد.. يقترح مسرحية

تعرض الآن وهي عبارة عن مقطع عرضي لحياة يومية في مكان بغدادي فقير هرب الناس إليه من الحرب الأهلية. وهو عرض غريب سيستمر إلى الأبد! وجاء بعنوان (مسرحية القرية البوذية).

هكذا بدأ المراسل يقدم الأستاذ بشكل تكتنفه الإثارة، بل وتحبس الأنفاس في طريقة العرض المتسلسل في قوة خطابية بارعة..

الأضواء في استقرارها الفضي الساطع تتركز على الأستاذ، ووردته الموسيقية التي تخنق عنقه:

المراسل:

- ننتظر منك توضيحات عن هذه الحركة التي تقودونها في بغداد مع سيادة الميليشيات التي اتخذت لها تسميات مختلفة كما هو واضح.. لا سيما وأن المسرحية القائمة حتى هذه اللحظة اتخذت عنواناً مثيراً للجدل إلى أي مدى وصلت هذه الحركة؟

الأستاذ:

- نحن الآن في عرض مسرحي مرتجل منذ أربع ساعات. ولم يتحدث أحدٌ في القرية عن حركة أو دين أو فلسفة أو تنظيم. ولو تحركت كاميرتكم قليلاً سيرى مشاهدوكم أن القرية تتحرك وفق نظامها الاجتماعي اليومي من دون تدخّل مخرج مسرحي أو سينمائي، وبذلك ترى أن هذه المسرحية التي لا نعرف متى تنتهي لم يكتبها أحد ولم يمثّل بها وأخرجها الظرف السياسي المرتجل، وأنتم أصبحتم جزءاً حياً منها، وهذا ما لم يفعله المسرح طيلة تاريخه: أن يكون جزءاً من الزمن..

المراسل:

- ولكننا ننتظر منكم إيضاحاً حول قصدية هذه التجربة المفتوحة وجعل الجميع مشاركين ومساهمين فيها؟ ومن ثم ما هي الأسس لحركة يبدو أنها نظامية إلى حد معيّن في استثمار الحيلة المسرحية لتمرير قوانين فكرية وثقافية تتعارض مع الدين كما نفهم ولو بشكل مبسط

بعد لقاءاتنا مع مواطنيك هنا؟

الأستاذ:

- لا توجد حركة منظّمة ولا توجد أفكار مسبقة. لسنا حزباً سياسياً ولا يشرفنا ذلك فالحزبية في هذا البلد عبارة عن مشجب أسلحة. نحن قرية ولا غير ذلك. بالنسبة لي شخصياً معروف باستقلاليتي ولا تمر عليّ إشارة من دون أن أفهمها. أما أهل القرية الكرام فهم على أديانهم وأحزابهم يقعون. سعينا إلى بناء مسرحية واقعية لا خيال فيها إلا خيال الواقع المباشر، وهذه لحظة مسرحية أظنها مبتكرة لقلب الواقع إلى مصادفة يقينية لست مسؤولاً عن تفاصيلها التي تفاجؤنا لحظة العرض الحي.

المراسل:

- ولماذا أسميتها "القرية البوذية"؟ ألستَ متقصداً لبناء علاقة آنية بين بسطاء الناس وبين بوذا ككيان فلسفي عمره اكثر من 2500 سنة؟ أقصد لماذا تريد أن تعيد سيرة سدهارتا في قرية بغدادية من صنيعتك.. ألست تقصد التنبيه إلى أخطاء الأديان؟

الأستاذ:

- أين هو بوذا؟هل حدثك أحد هنا عن بوذا؟

المراسل:

- لكنك تبشّر به بطريقة أو بأخرى؟

الأستاذ:

- كيف؟

المراسل:

- ألا يكفي أن اسم المسرحية القرية البوذية؟

الأستاذ:

- لا يكفي هذا دليلاً على جريمتي البوذية. أستطيع الآن أن أعلن أن اسمها تغير إلى القرية الكونفوشيوسية. أو القرية الغاندية. لا فرق بين الكبار والمصلحين وذوي الأفكار النيّرة.

المراسل:

- ألا تعتقد أنك تسعى إلى خلط الأديان في قارورة واحدة وتذوّب المذاهب في سلة واحدة؟

الأستاذ:

- ولـم لا مـا دامـت الأديان كلها تسـعى لعبادة إلـه واحد. نضعها كلها في سـلة واحدة ونشـرب من مائها مرة واحدة.. ما الضير من ذلك أن نجعلها في إقليم واحد أو تحت أية تسـمية لا تسـتفز المسـلكيين من المتدينين ولا تنتف لحاهم!

المراسل:

- لكـن بـوذا لا يشـغله الخالـق ولا يعنيـه من خلـق العالم.. وهذا يتناقض مع فكرتك في استخلاص ما تريده في سلة واحدة؟

الأستاذ:

- هذا شأن بوذا وليس من شأني إن كان لا يريد معرفة الله.. فأنا أعرفه حق المعرفة.

المراسل:

- أقصد تجلب عليك لعنة المتدينين من الأصناف كلها.

الأستاذ:

- تقصـد لعنـة المنتفعيـن مـن الأديـان.. أولئـك الهلافيـت الذيـن يحكمون الكنائس والجوامع والمعابد..

المراسل:

- لكن الفكر البوذي يأخذ مساحة غير قليلة من تفكيرك!

الأستاذ:

- بوذا فكرة من أفكار كثيرة.. وغاندي فكرة أخرى تعرفون جوهرها. حتى نيلسون مانديلا هو أيضاً فكرة عظيمة.. قد تتحول أفكارنا لاحقاً إلى إقليم من أقاليم العراق حسب دستور اليهودي بريمر.. ونسميه إقليم غاندي فنحن مسالمون كما ترون، أو نسميه إقليم بوذا أو إقليم شاه أكبر[1]!

المراسل:

- هل تفهم الناس مثل هذا الإقليم الذي تسعى إليه؟

الأستاذ:

- لا أسعى إلى مثل هذا وليست لدي القدرة العظيمة أن ألخبط أفكار الناس بمشاريع وهمية.. أنا أكاديمي. عملي. مهني.. ناسنا يفهمون أن السعادة والخلاص من هذه التبعية أمرٌ ممكن في مثل هذه الظروف الصعبة.. ألا ترى الناس تُقتل على أسمائها وأديانها ومذاهبها؟

المراسل:

- أرى ذلك وهذا عمل شرير. أتفق معك، لكن الخلاص بهذه الطريقة المباشرة لن يعفيكم من مسؤولية ردود الفعل عند الآخرين من المتدينين.

الأستاذ:

- بوذا لم يقل أنني نبي مرسل إلى البشرية، ولم يقل غاندي أنا نائب إيراني في مجلس النواب، ولا قال كونفوشيوس انه عضو في

---

(1) جلال الدين أبو الفتح محمد أكبر هو أحد السلاطين المغول الكبار الذين حكموا الهند عاش بين عامي 1556 و1605، عرف بسياسته المميزة في الحكم، حيث عامل الهنود كمواطني دولة بدل أن يعاملهم كسكان أراض مفتوحة. ودخل هو وعائلته في علاقة مصاهرة مع المجموعات الدينية والإثنية المختلفة في الهند مما وطّد حكمه.

مكافحة سرطان الثدي. هؤلاء بقوا في حدودهم الإنسانية وتركوا العبث مع السماء.

المراسل:

- المتدينون لا يعنيهم هذا. التزمّت الديني يقتل من يرتد عليه.

الأستاذ:

- قبل الأنبياء كلهم قال الحكماء: لا تسرق. لا تقتل. لا تزنِ. لا تكذب. لا تسكر.. هذه قوانين عادلة للبشرية. فماذا تريد هذه الحثالات أكثر من هذه الوصفات العظيمة!

المراسل:

- هل يتوقع منك الناس هنا أن تعلن أن إقليم بوذا مثلاً هو الأصلح لهم؟ وما هذه المسرحية والإعلام الضخم الذي يرافقه إلا غطاء مناسب لتثوير الجماهير كي تتخلى ولو عن أجزاء من أديانها السماوية؟ وبذلك تضع نفسك في موضع الشك وستواجه المتشددين في بلد تحكمه الفوضى السياسية والدينية؟

الأستاذ:

- كل إنسان حر فيما يفكر ويريد. كل واحد من هؤلاء يستطيع أن يكون بوذا لوحده. أو كونفوشيوس. او زرادشت. أو غاندي أو مانديلا أو جلال الدين محمد أكبر شاه. أن يعتمد على قواه الذاتية حسب. أن تواجه الشقاء وحدك أو ترتحل مع الجماعة وتنتصر عليه. كل واحد يستطيع أن يختلي بنفسه ويتأمل ما وصلت الحال إليه كي يخرج إلى الناس بقميصه الجديد.

المراسل:

- وما هي نظريتك! ألديك نظرية!

الأستاذ:

- هو طموح. أطمح بإنشاء مجتمع المعرفة ومحاربة الأمية السياسية وإقصاء مرتزقة السياسة، واللاعبين على حبالها، وإقامة منظومة ثقافية تهيئ للأجيال المقبلة أرضية وعي مشترك بضرورة تكريس الهوية الوطنية المنفتحة على الهويات الثقافية في مجتمعات العولمة، كما أؤمن بإعادة الاعتبار للمثقف المجهض والمحبط وتقوية دوره الاجتماعي الفعال، وتوطيد الصلة الحميمة بين أجيال الشباب وإشراكهم في بناء مؤسسات الدولة، مع إعطاء الأولوية للعقل في تشكيل نظام سياسي واجتماعي واقتصادي يؤسس لحضارة العقل العراقي الجديد.

المراسل:

- أنت تتحدث عن مشروع ضخم تقوم به في العادة دول ومجتمعات لها إرث سياسي ومعرفي عميق.

الأستاذ:

- الأفكار الكبيرة جاءت من رؤوس صغيرة.. من مجانين إذا أحببت..

المراسل:

- هل أنت مجنون!؟

الأستاذ:

- نعم أنا مجنون.

المراسل:

- في هذه الحالة يكون الجنون انفلاتاً كما هو حاصل الآن.

الأستاذ:

- الجنون أحد الطرق الممكنة التي تؤدي إلى الحكمة. وهو شكل من أشكال طاقة العقل الفائضة. وما يحدث في بلدي هو حماقات سياسيين بعضهم عملاء ونصفهم زبالات..! هؤلاء ليسوا مجانين لأن

الجنون موقف.

المراسل:

- **أهو إحساس حقيقي أم استيهام خيالي مشاكس يتلبسك؟**

الأستاذ:

- **الجنون هو يقظة في وقت قد يكون مناسباً أم لا. وهو ما تم إخفاؤه بعناية داخل يقظة العقل الكبير. لكنه ينزاح تحت ظرف ضاغط ليكون مرئياً، وحينما يكون كذلك فإن صورة السلطة تتوضح أمامه بشكل لا لبس فيه.. صورة الفراغ الجوهري والمعرفي الذي تعيشه السلطة.**

المراسل:

- **ألهذا تحارب السلطة هذا النوع العقلي المتقدم؟**

الأستاذ:

- **أنا أعمل بخيال نجّار.. والسلطة تعمل بنظام اللسان الطويل..!**

المراسل:

- **هههههههههههههههه.**

الأستاذ:

- **أنا أعمل برأسي.**

المراسل:

- **وكيف ترى القرية بعد انتهاء العرض المسرحي الذي يستمر..؟**

الأستاذ:

- **ابتدأت المسرحية ولن تنتهي! المسرحية معروضة كل لحظة وكل يوم.. متى تأتي إلى هنا وفي أي وقت تجد القرية عبارة عن مسرحية مستمرة لا تتوقف.**

المراسل:

- **وما الغرض من ذلك أن تبقى القرية مسرحية إلى وقت غير**

معلوم؟

الأستاذ:

- المسرح في عمومه التقاطات مبسترة من الحياة. صغيرة وسريعة وغير كافية. ومسرحيتنا لقطة مكبّرة إلى حد ما. حقيقية وواقعية ومباشرة.. إننا نفتح القرية كمسرحية مرئية غير مختزلة إلى وقت غير معلوم.

المراسل:

- انك ستقضي على هؤلاء البسطاء بأفكار لا نقول خيالية، لكن يمكن القول أنها أفكار غير قابلة للتطبيق.

الأستاذ:

- هؤلاء تعلّموا أن يأخذوا من كل حديقة وردة عطرة.. تحسنت عندهم حاسة الشم.

المراسل:

- أأنت مُصرٌّ على الضياع حتى النهاية؟

الأستاذ:

- لا بد أن ننشئ في الأوطان حديقة واحدة مزهرة ومنتجة عندما نسعى إلى السلام.

المراسل:

- الحديقة الواحدة قد تتشابه فيها الحياة وتصبح آلية!

الأستاذ:

- التنويع فيها يجعلها جنة وليست حديقة..كالمعرفة نغترف من كل فكر رؤيا ومن كل كتاب سطراً أو صفحة..كي ننشئ خصوصيتنا المعرفية..

المراسل:

- هل أنت مصلح حالم؟

الأستاذ:

- حالم جداً لكن بواقعية مفرطة. وعاء المعرفة يتجدد وسلطة السيف لا تطوّر نفسها لأن السيف يبقى دموياً مهما تغيّر شكله وحجمه ولونه.

المراسل:

- وكم سيطول حلمك؟

الأستاذ:

- بطووووول المعرفة..

المراسل:

- المعرفة لا تنتهي..

الأستاذ:

- نشوء بذرة المعرفة سيقوّي من الشارع الديموقراطي، وبما أنهم لا يريدون ذلك، لكن حتمية الثقافة المحلية بقوتها المتحررة، والإنسانية المتدفقة بعلومها العظيمة ستقوّي من شكيمتها.

المراسل:

- أنت في طور التنظير حتى اليوم!

الأستاذ:

- لا تستطيع أن تؤسس شيئاً مفيداً والرصاص من حولك يهدم كل شيء.

المراسل:

- ألك كلمة أخيرة؟

الأستاذ:

- يكفي السماءَ عابدٌ واحدٌ يتعبد وألفٌ يتبركون به وآلاف يشكّون به فالشك هو معرفة.. عندها ستصل الرسالة مهما كان زمن وصولها

طويلاً..

وقف الأستاذ وعيناه تمسحان الحشد المتوقف أمامه وقد تبدلت سحنته من الجدية المفرطة إلى الفوضى المفرطة حينما غازل الناس بأغنية شعبية راقصة.

هتفوا مصفقين، وتحولت المقهى الصغيرة إلى انطلاقة غنائية بدأها الأستاذ هازاً جسده السبعيني بصوتٍ خبير أثرى الأسماع وناشد القلوب في لحن محلي يثير الشجن والتطريب، ولم تستطع الكاميرات بعد لحظات قصيرة من الإمساك بالفوضى السعيدة على مسرح بحجم اليد الذي شغله من شغله بذوبان الأستاذ بين الجموع التي أحاطته والغبار المُثار في اصطفاق الأرجل والأجساد التي انغمست بهدير الأصوات المغناة بلسان واحد.

وعلى مقربة من هذه الضجة الغنائية التي اختفى الأستاذ فيها تاركاً الوقت لمواطنيه في القرية، يلتفت الأهالي إلى صوت حماسي حاول لفت الأنظار إليه في مكان ما من العالم وفريقه ينقل عرس الأغنية من جوانب مختلفة: "**ستكتسب هذه القرية ابتداء من هذا العرض المسرحي شهرة عالمية فريدة نبّهت إلى وجودها الهامشي في العاصمة**"

كان مراسل NOS يقوم بنقل مباشر إلى الهولنديين وهو يختلج بالحماسة ويشير بيديه إلى المسرحية المرتجلة والقرية المرتجلة التي اختلط الجميع بالظهور فيها، وقال أن هذه التغطية الحية هي جزء من المسرحية التي يمثل الجميع فيها شاؤوا أم أبوا، غير أن دهشة المراسل وفريقه تعاظمت حينما قدّم شاب الفنون الجميلة الإصبع الشهير الذي ما زال حياً، فاحتدم التصوير والجدل واللغط بشكل جعلها فوضى حقيقية؛ فالمغامرون من المراسلين والباحثين عن الاستثناءات في حرب الطوائف احتشدوا في القرية بطريقة لم يسبق أن احتشدوا فيها في مكان ما من حرب بغداد الداخلية.

باللحظة ذاتها كان مراسل الـ CNN يقوم بالنقل الحي لقامة الرجل الذي فقد رأسه بسيف الزرقاوي، ليشاهد الأميركيون؛ كما قال؛ كيف يحتال العراقيون على الموت ويخرجون أحياء من القبور بطريقة واقعية أو يتركون أعضاءهم عند أعدائهم ويعودون، ثم تحولت كاميرته بفرز الإصبع الذي أخذ يتمطى ضجراً من الأضواء فهدّأه الأخ وأرجعه إلى وضعه الطبيعي وقام بترجمة حركاته وامتعاضاته ورغباته.

كنت أرى الإصبع على شاشة الكاميرا مقرَّباً وقد تفنن المصور بوضعه في كادرات مختلفة راصداً حركاته المثيرة، كي لا يكون هناك شك ما، قام مراسل الـ CNN نفسه بوضع الإصبع في راحة يده لاختبار هذا الكائن الحي اللافت للانتباه. أكثر من حركة قام بها كسحلية محاصرة تريد الانعتاق فينتصب بوجه المراسل الأميركي متوتراً، ففسر الأخ باللاقطة المعلقة على صدره أن أخاه غير سعيد وهو يوضع على هذه اليد الأميركية ولا يريد البقاء فيها.

ضحك المراسل طويلاً محمر الوجه وهو يقول: حتى الأعضاء المقطوعة لا تريد الأميركيين أن يبقوا هنا هههههههه وكان يرفع إلى عدسة الكاميرا الإصبع الغاضب وهو يتلوى بوضوح، حتى استكان بيد صاحبه وهدأ. فتمتم الشاب بأسف: **لقد بصق عليك أيها الأميركي!**

وفي حركة مفاجئة، ترك فيها الناس الأميركي المبصوق عليه، دخل إلى مسرح المقهى صاحب البيت الأزرق يحمل القارورة بيده متحرجاً بعض الشيء، لكن جرجيس وغيره كانوا يشدون من أزره ويقتادونه أمام فوهات الكاميرات.. وكان لقارورة الرماد حكاية صعبة التصديق في هذا العرض المجنون.

زينب الشعثاء

اتصلت ميريام حينما كانت مريم إلى جانبي. ذهبت لورا ورندة مع المراسلين عبر دجلة إلى الضفة الثانية حيث المنطقة الخضراء. كان صوت ميريام يتهدج ونبرته فيها من القسوة ما جعلني أبقى صامتاً طيلة وقت المكالمة.

هدأت القرية وهدأت ضجتها برحيل المراسلين وكاميراتهم قبل غروب الشمس. انتهت المشاهدة التي استمرت نهاراً طويلاً، وكانت مريم تتمشى على الضفة تراقب الغروب السريع للشمس البرتقالية التي بقي نصفها معلقاً خلف بنايات بعيدة.

الصبية الشعثاء، فتاة الشيراتون، كانت تحجل وهي تتوجه إلى مريم. بينهما حوار قصير ومريم تشدّ لها شعرها من الخلف وتنظّم لها جديلة قصيرة، وبيني وبين ميريام حوار لا أستطيع التركيز على تفاصيله. حب واشتياق وغياب ونسيان ولوثة وتردد وتحولات.

شدّني منظر الشعثاء، فتاة المسدس والرجل الأعمى الذي كان عليه أن يختارني ضحية عشوائية في أول مجيئي إلى بغداد.

قطعت ميريام الاتصال حانقة لبرودي. اقتربتُ من الفتاة بتوجس حتى صرت أمامها. لعلها تتذكرني.. كنت أقول لنفسي وأنا أثني ركبتي وأبرك أمامها كي أكون بطول قامتها. كان وجهها الصغير يشي بملامح غامضة. وضعتُ عينيّ في عينيها بلا تردد. ثمة ابتسامة ماكرة تجول في وجهها. كانت مريم تبتسم لهذا اللقاء الصامت بيني وبين الفتاة. نظرتُ إلى عيني مريم مستفهماً:

- **هذه زينب.. لم تأخذ دورها في المسرحية بشكل جيد.**

مددت يدي لمصافحتها.. **أهلاً زينب الحلوة..**

مدت يدها الصغيرة لي. قبضت على عصفورة يدها الباردة.

- **وين شايفك يا شاطرة؟**

- **هنا..** أجابت لفورها..

أنهت مريم ضفر جديلتها ونسقت شعرها من الجانبين.

مدت الفتاة لي لسانها بشيطنة وحجلت متجهة إلى مدخل القرية.

- **من هذه الصغيرة؟**

سابقاً كنت أكتفي بالنتائج وأراقبها، لكن القرية علمتني على الأسئلة، فالأستاذ يردد أن الأسئلة نصف الأجوبة والسؤال يحمل بين سطوره الجواب. لكن أحياناً تشذ هذه القاعدة يا أستاذي.. الشذوذ يقوّم القاعدة فلا قاعدة بلا شذوذ، والشذوذ مثل السؤال إلى حد بعيد.. ولكن يا أستاذ عندما نسأل فإننا نبحث عن نقص معرفي في مسألة ما.. غير أن الشذوذ هو الفائض من القاعدة أو الناقص منها أحياناً..

قالت مريم:

- **زينب الصغيرة اختطفها ملثمون من مدرستها لمدة ستة اشهر في بداية الحرب الأهلية وغابت من دون أثر ثم رجعت بعد صلاة جمعة.. جاء بها رجل مُسن وسلمها إلى أهلها.. هذه هي قصتها بالكامل..**

أعدتُ في رأسي شريط الشيراتون. الرجل الأعمى الذي تقوده إلى كل مكان. مقتل خميس الأسود. الأميركي قال أن الرصاصة أخطأتني وذهبت إلى صديقي مراسل الصحيفة الكويتية. مايكل الرقيب الوسيم.. الشاذ.

- **وماذا قالت عن الأشهر الستة؟ أين كانت؟ ماذا فعلوا بها؟**

كانت عينا مريم تقولان أنها لا تعرف كل شيء:

- **أسرتها فقيرة.. هجروا مدينة الصدر وجاءوا هنا..**

لم أقل شيئاً لمريم لكن عيني ظلتا تتابعان الفتاة الصغيرة وقصيبتها تتطافر وراءها.

صحف بغداد

صباح القرية ينشط على غير العادة. لم أستطع استيعاب هذيانات الناس وظنونهم وأسئلتهم. كثيرٌ من الأسئلة لا أجوبة لها. لست بارعاً بتبرير كل شيء. تركت المقهى بحلته الجديدة المريحة بعد عرض يوم أمس. لم أكن خائفاً بل اضطربت الأسئلة في داخلي أنا.

توجهت إلى بيت الأستاذ مسرعاً وعلى الطارمة فرشت صحف الصباح على الأرض وأثنيت جسمي كتلميذ صغير يتهجى حروفاً كبيرة، فداهمتني المانشيتات المخيفة والمقالات الافتتاحية غير السارة، ولم استطع أول الأمر في القراءة العاجلة التي كانت عيناي فيها تلتهمان العناوين الوقحة والمستفزة أن ألمّ بحزبية الصحف المحلية وتوجهاتها ومناطقيتها وأفكارها الملتبسة دائماً، غير أن الوقت الذي كان يمضي مسرعاً قبل مجيء الأستاذ لمشاركتي القراءة، أعطاني لمحة معقولة عن هذا الغواط الصحفي الذي تعج العاصمة به:

- قرية صفيح مجهولة تؤسس للإلحاد على أطراف بغداد.
- عاجل.. يهوذا في بغداد بزي أستاذ جامعي مطرود.
- مسرحية القرية البوذية تجمع العراقيين في قرية من تنك!
- تنظيم سري يعلَن يوم أمس في مسرحية فوضوية.
- ساحر كبير يقود سَحَرَة صغاراً في قرية من تنك.
- حي بغدادي فقير يتمرد ويدعو إلى ثقافة السلطة.
- تنظيم سري خطير تكشفه فضائية أميركية يدعو لإلغاء الأديان!
- أستاذ جامعي مجنون يأسر قرية كاملة بدعوى الإصلاح!

- مسرحية مرتجلة تخترق الحرب الأهلية وتقترح وحدة البغداديين.
- الدعوة إلى إنشاء أول إقليم في العراق بعد إقليم كردستان.. إقليم بوذا!
- جريمة بوذية يخرجها أكاديمي مجنون في حي مجهول على أطراف بغداد!
- القاعدة تتستر في مسرحية شعبية.. والفضائيات تكشف المستور!
- انصهار الأديان والطوائف ضمانة للسلام.. مسرحية جدلية في بغداد.
- تأسيس قرية غجرية تحارب الإسلام!

تساءل الأستاذ باستخفاف بعد إن راجع معي العناوين المثيرة:

- شفت! هؤلاء يريدون تأسيس دولة مدنية ديموقراطية تنادي بحقوق الإنسان!

تساءلتُ وروحي منقبضة:

- لكن قل لي ماذا نفعل؟

- لا شيء..

حسمها بسرعة البرق. رجلٌ لا يفكر في الأمور الصغيرة ولا يوليها بالاً. مرة قال إن من يعيش في خرابة لا يتوقع خرابة أفضل منها وعليه أن يتمسك بخرابته ويدافع عنها بضراوة السباع. خرج وملامحه تزداد جدية أكثر من أي وقت مضى وهو يتمتم بأشياء لم أسمعها.

أعدت قراءة المانشيتات والعناوين الفرعية الصادمة والصارمة أيضاً. قرأتها أكثر من مرة فوجدت العفونة الكبيرة في بعضها. صحف صفراء لا تقوم إلا على التحريض وإيذاء الناس بكل طريقة ممكنة. تأملت أزبال العناوين المتراكمة في واجهاتها وتطلعت بين فرعياتها المكتظة بحوادث الخطف والقتل والتفجيرات والقاعدة والتهجير.

قـرأت بدقـة الافتتاحيـات[1] التي برع فيها بعض رؤوسـاء التحرير بتسقيط الأستاذ وتحميله مسؤولية خراب الدنيا والآخرة..

خرجـت إلى النهر أشـم هواء الصباح ومشـيت بيـن خرائب كثيرة أبعد منه. أعطي ظهري إلى المدينة. كان جرف النهر يتآكل كلما تقدمت جنوباً وتنفتح الأرض على فراغ ينتهي بمزارع وبساتين. تحسست الهوية فـي جيبـي كأنـي أقبـض على حيـاة خرجت من قمقـم النهر ولاذت في جيبي الصغير.

رؤيـة مشوشـة زرعتهـا صحف العاصمة برأسـي. هـل هو خوف؟ ربمـا. انفـلات البـلاد بيـن عصابـات وجيـوش محلية وصحـف تحرّف الحقائـق وتغـزل القصـص المميتـة، وحكومة عاجـزة وبرلمان لا يعرف الناس أعضاءه بالكامل، ومجتمع تكفّن بالسـواد ويسـار سياسـي يلوذ به من الرصاص والأحزمة السعودية الناسفة.

تأتي صورة مريام وتبتعد ومن حولها ضباب وغياب، لتحل صورة مريم الصغيرة وهي تضفر ضفيرة الصبية زينب الشعثاء التي مر مسدس قتلـي مـن تحـت ثيابها. شـيء غريب يحدث يـا بوحمد في هذه المدينة المتناثرة إلى أشـلاء، لكنها تُصدر عشـرات الصحف اليومية من البيوت

(1) "هذا مجنون يتوخى تخريب عقول الناس ببدع بوذية ملحدة ويتستر وراء مسرحية ارتجالية ليضحك على الذقون حتى يكسب شهرة لا يستحقها ومن ثم يدفع الأبرياء ثمن هذه الغفلة..".
"الأسـتاذ الذي يريد أن يكتسـب شـهرة مجانية هو منافق كبير وعلى الحكومة أن لا تسـمح باسـم الديموقراطية تمرير أفكاره بين الفقراء.. وإقليم بوذا بدعة تخرب وحدة الصف العراقي الديموقراطي الاتحادي الفيدرالي مثله مثل إقليم غاندي.." الخ الخ الخ.
"ليس من السـهولة أن نتغاضى عن تاريخ هذا الرجل البعثي.. فبعد مرور أسـابيع قليلـة علـى سـقوط الصنـم فـي سـاحة الفـردوس حـرّض طلبته على عـدم الدوام وطالبهم بإقامة تظاهرات لطرد بعض المناضلين الثوريين العائدين من المنفى إلى مواقعهم الجامعية..".

والمكاتب والمطابع المختفية بين الأزقة. هل هي روح تكافح كي تبقى أم هي رفسة النمر الأخيرة!

أعـود أدراجـي بعدما وصلت إلى مصدات حجرية وأزبال متراكمة وكلاب تنبح. أسلك ذات الطريق المتعرج لتكون المدينة باستقبالي في صباح مسحت فيه الشمس خريطتها تحت حرارة وافرة.

اصـل جـرف النهر. الصيـادون الصغار يبكّرون إلـى النهر بأدوات صيدهم أو يغطسـون في ألعاب مائية لا تنتهي. تسـلّم عليّ نسـاء القرية المتوجهات إلى الجرف لغسـل الملابس والصحون. والمعلمة الصغيرة تقبـض علـى حقيبتها السـوداء تحـت غطاء خفيف ينسـدل على وجهها المشـرق، ذاهبـة إلـى دائرتها وهـي مضطربة مثل النسـاء اللواتي يذهبن إلى دوائر المدينة مترددات وخائفات من كل شيء.

- هل هناك طالبات يخرجن إلى المدارس في مثل هذه الظروف؟

- الصفـوف شـبه فارغـة.. نجمـع الطالبـات في صـف واحـد.. لا نملك إلا هذا الإجراء.

مضـت مريـم إلى الشـارع العام تواجه يومهـا. كانت حلوة وفاتنة. وددت أن لا تذهب، لكن..

اتصلت رندة تتساءل بامتعاض: **الصحف! هل قرأت..!**

قرأتها يا رندة وهي إشـارات اسـتباقية عدوانية لمنهج المسـرحية ورفضـه والفهـم المغلوط لعرض شـعبي هدفه تنبيـه الآخرين على ظلم النـاس الذيـن اضطـروا لأن يتوزعـون بيـن طوائـف وملـل لا يؤمنـون بتوجهاتها كلياً.. القرية تقبلت فكرة الاندماج الإنسـاني عبر المسـرحية المفتوحة من دون بدعة دينية أو طائفية..

رنـدة تقـول أنهـا لـم تشـاهد مسـرحية، بـل شـاهدت بشـراً فقراء وبسطاء يتنقلون بسلاسة وسلام، ونحن المشاهدين علينا أن نمسرح ما رأينا بحيادية وجمالية... يا صديقي أنتم قدمتم أفكاراً ناضجة وعلينا أن

نبلور هذه الأفكار.. هذا كل شيء من وجهة نظري...

لحظة هذه لورا معي تريد أن تكلمك.

كانت لورا تضحك وهي تقرأ لي عناوين الصحف الأميركية والبريطانية عن عرض الأمس الذي اتسم بالجرأة والغرابة وتقديم الحلول المنطقية لبلد يتقاتل أبناؤه على عمامة أو منارة كأنهم أصدقاء الله، وقرأت لي اسطراً مما كتبته الصحف. كانت تضحك من قلبها وهي تردد: الآن اختبارك الحقيقي يا شاطر.. قرأت لي رندة شيئاً من ردود الفعل المحلية وهي ردود عليكم أن تتوقعونها وتواجهونها بصرامة..

رجل النهر يأتي وفي قبضته هويات جديدة! ساعده الصغار على إرساء زورقه وسحبه إلى الساحل الطيني. حياني بيده وركض إلى المقهى لتعليق صيده المخيف. فقد وجد هذا الصياد طريقه إلى الحقيقة الثمينة التي أراد النهر ابتلاعها فاطمأنّ إلى القرية ولي وللأستاذ الذي وجده ضلع القرية الآخر في الضفة الثانية..

هل سيبتلعك النهر ذات يوم يا صياد الهويات!؟

وجه ميريام يأتي ويروح مثل صورة غير مستقرة على شاشة يتراقص بها نمش إلكتروني ويحيطها من كل جانب. لم يحدث أن رأيت غيرها من النساء أوقاتاً ليست قليلة في ترحالي المستمر بين عواصم ومدن وقرى وأرياف آسيا. لم يحدث أني أفارقها كل هذه الأشهر الطويلة ولا أراها. تبدل الوقت يا ميريام، فقد حشرتني عقارب الساعة البغدادية بين أنصالها. أينما أتحرك يواجهني عقربٌ منتصب بنصله ويعيدني إلى نقطتي. ما زلت أحبك يا ميريام وستفرحين حينما أخبرك أن عندي هوية شخصية حصلتُ عليها أخيراً من النهر بعدما صعُب علي الرجوع، لتكتب لي نقطة الصفر ابتداء من النهر. النهر منحني هويتي وهويته في لحظة حرجة يا ميريام؛ رغماً عن أبي المرتحل حينما كتب اسمي على ساحل غريب وعمّدني بمياهه كل هذا العمر، لكنه أغلق عليّ ممر الحياة التي كان يجب أن أكونها منذ وقت طويل.

بول الكلاب

لم أخْطُ إلى القرية. غبار خفيف دفعني عنها إلى الشارع العام. لم تكن في داخلي لحظة استقرار أطمئن إليها. ثمة حياة أخرى تنمو بين ظلال البنايات. عابرون وسابلة وسيارات وشرطة وعسكر وجسر ونقاط تفتيش وسيطرات وكونكريت. كنت أتخيل العالم ينظر لي أنا الهامشي العابر في مدينة تتقاتل ليل نهار، وكنت أتفاداه بعينين لا تنظران إليه. هذا شعور أول بشيء غامض يسري بي ويسير معي لم يسبق لي أن عشته وأحسست به وسار معي كما الآن.

الباب الشرقي لم يتح لي النظر جيداً بجدارية نصب الحرية. عيون كثيرة تترصد الغرباء والغرباء معروفون بترددهم. خطواتهم تتعثر حتى على أرصفة المرايا والأزهار. أعرف هذا جيداً وأفهمه حتى تطبعت عليه في كل مكان أكون فيه. لكني لا أفهم سر هذه المراقبة حتى اليوم ولماذا يبدو الغريب غريباً، ولم أتعلم حتى اللحظة كيف لا أكون غريباً في بلادي وفي جيبي هويتي الشخصية!

لم أجد مكتبة واحدة مفتوحة في طوافي الطويل هذا النهار. محال مقفلة. كلاب تتجول وتتبول على واجهات الدكاكين. انفتحت الجسور بين جانبي المدينة على نحو مقبول، لكن زعيق سيارات الإسعاف يمكن سماعه على مدار الوقت. كأن القتال يجري سراً بين أطراف غير معلنة في العاصمة. مواكب المسؤولين تتحرك بين لحظة وأخرى بطريقة استعراضية بهلوانية حتى تملأ الشوارع رعباً بحماياتها المنتفخين بالأسلحة وهم يصوبونها باتجاه كل شيء أمامهم.

أعادني الوقت إلى القرية، بؤرة التمرد الديني كما سمتها صحف

بغداد هذا الصباح. كانت المقهى مزينة بزينة أمس تقريباً. زاد عدد الهويات هذا اليوم بضع هويات ما يزال دم النهر ينقّط على جلدها البلاستيكي. وكان جرجيس الخائف من نفسه يحذر من غرباء يراهم في القرية. يحتسي شايه الساخن ويمضي مسرعاً ويكاد يصطدم بالأستاذ الداخل بوجهه العبوس، لكنه لا يخلو من ابتسامة جامعية مفقودة.

الغرباء.. يصيح بوجه الأستاذ ويختفي في السوق. والأستاذ يحمل بيده رزمة من صحف اليوم ويجلس على كرسي إلى جانبي.

- مشيتُ طويلاً.. الحياة ميتة ومنهارة إلى حد كبير.. ما من شيء يجعلك مطمئناً وأنت تمشي.

يسألني الأستاذ بضيق:

- ألا توجد دلالة واحدة في الأقل على أن العاصمة يمكن أن لا تموت!

أقول بوضوح:

- الناس والكلاب.. الدلالة الوحيدة التي أراها في كل مرة.

يضحك الأستاذ على هذه المزاوجة، فيقطعنا بوحمد بمكالمة. لم أجبه. ففي داخلي بركان متقلب ومزاج ليس على ما يرام. الناس والكلاب وحدها تنبئ عن حياة بغدادية منطوية تحت السراديب. الكلاب استطعمت الجثث المرمية في كل مكان والناس تأكل الخبز والدود، وأنت يا بوحمد من جعلني في هذه المعمعة التي لم أكن أتصورها على هذا القدر من الفداحة، بأن يكون الإنسان على هذا المستوى من الذل المخيف. كنت أسافر بقميص واحد وأعود بقمصان من الأشجار والأزهار، فبماذا تريدني أن أعود إليك من بغداد؟

تساءلتُ:

- برأيك لماذا هاجمتنا الصحف؟ هل عنوان المسرحية هو السبب؟

- لا..

أشعل سيجارته وقال:

- **صدمتهم الحرية من خارج إرادتهم ومن خارج طوقهم..**

لم أعتد التدخين، لكني طلبتُ سيجارة من الأستاذ وأشعلتها متأملاً لفائف الدخان الخارجة من فمي. مؤامرة! هذا ممكن. التاريخ شاهد على خدائع مثل هذه. وليس غريباً أن تكون السلطة هي الأداة الجارحة والقاتلة. الأستاذ يقول دائماً أن الثقافة هي سلطة والمعرفة سلطة، لكن سياسيينا الخارجين من إرث معروف لا يعرفون هذا. في المقهى قال لي بعد نقاش: يتوقعون أن السلاح هو ثقافة السلطة.. أغبياء. فرصة العمر العراقي أن يتغير فيه مفهوم السلطة إلى جوهر جديد تسود فيه الثقافة والتعليم والمعرفة، السلاح لا يطوّر السلطة، بل يهينها، الثقافة تطور السلطة. إنها وعاء لا يمتلئ. المعرفة ثروة أكثر قوة من النفط.

وحينما أقول له الكُرْه يجلب النحس ولا يقيم حواراً مع السلطة، يجيبني بأعصاب باردة: اليابانيون يصنّعون المعرفة في الأجيال الصغيرة وفي المدارس.. وهؤلاء يصنّعونها بالتراتيل. سياسيونا وملالينا بينهم مسافات ضوئية.. انهم مثل السلاحف والأسماك والأفاعي موضوعون في حوض واحد.. الأسس المعرفية لا تُبنى بالعويل والنخوة العشائرية. هذا زمن اقتصاد الحاسوب والإعلام الحديث والإنفوميديا وتكنولوجيا علوم الاتصالات. زمن العقل والدماغ الساخن.. لا تتصورني أكرههم، حتى الكُره لا يليق بهم.. هؤلاء ذوات تنكروا للمعرفة فلا بد أن نتنكر لهم..

كان السوق يتخفف بسبب حر الظهيرة. طالَعَنا وجه جرجيس المذعور واختفى. دخل رجل لم أره من قبل وطلب شاياً.كان الأستاذ يتأمل جدار الهويات ويقرأ الأسماء ويتملى بالصور. دخل صاحب البيت الأزرق يحمل قارورة الرماد ووجهه يحمل هماً واضحاً:

- **طبيب المستشفى يقول أن مزاجها النفسي سيئ جداً.**

تدخل الأستاذ وهو يأخذ القارورة برفق من الرجل:

- لم أرها أمس في القرية المسرحية!

قال رجل القارورة:

- هيأتْ قصيدة للمناسبة غير أنها كانت مترددة وخجلة.. ظهرت قليلاً وارتبكت.

- شفاها الله..

مسّد الأستاذ على القارورة الصغيرة وكلمها كلاماً طيباً ثم طبع قُبلة على رأسها!

عاد الأستاذ يقول:

- الحرية مخيفة يا أخي.. حملٌ يثقل كاهل أية سلطة.

- ألم تأت هذه السلطة من أجل الحرية.. أم ماذا!

- صح. جاءت وانتزعت الدبابات الأميركية الحرية من عيون صدام وأهدتها إلى المعارضة حتى من دون بروتوكولات.. لكن المعارضة؛ وهي السلطة الآن؛ لا تعطيها لأحد إلا بشروط.. أفهمت؟

- لا...!

- حاول أن تفهم ما دامت في جيبك هوية عراقية صالحة للاستعمال حتى الآن!

أم....

في زاوية من القرية كنت قد رأيت بيت مريم في وقت سابق. يجاور بيت القصاب وعلى سطحه رايات ملونة كبقية البيوت. لا يبعد عن البيت الأزرق سوى خطوات. البيوت تتشابه في كل شيء. تكررت صورتها السابقة في ذهني. أودعتني مذكرة أو شكوى في الشيراتون قبل شهور. وقتها كان حجابها يمتص نضارتها. والمائة دولار ترفرف بين يديّ مع الشكوى. أنقبضُ اليوم لتصور المشهد الساذج الذي كنتُ فيه. لورا وصفت لي الحال السيئة للناس وقالت انهم محتالون وفقراء. الآن يمكن أن أفهم معنى أن ترتدي المسيحية حجاباً قسرياً فتفقد الكثير من مقوماتها النفسية والجسدية.

اتصل بي جرجيس على غير عادته:

- **أستاذ أين أنت! امرأة غريبة تبحث عنك.**

وشدد على "غريبة" كي يجعلني مهتماً بالأمر.

- **الغريبة.. تريد أن تراك!**

كانت المرأة تتفرس بالهويات التي بقيت على حائط المقهى وهي منحنية تفتش عن اسم ما لإبن أو زوج على ما يبدو.

- **ها هو الأستاذ..**

صاح جرجيس لينهي أسئلة هذه المرأة وهو لا يثبت في مكانه.

- **تفضلي خالة...**

كتلة من السواد اسمها امرأة غريبة. عينان تجمعان حزناً أسطورياً لا نظير له ووجه محتقن يلوذ بالقلق والخوف والرجاء أيضاً.

- أتعرفين القراءة؟

- لا.

خرج صوت متحشرج منها وهي تنظر لي بضعف:

- أعرفه من صورته..

- ابنك؟

- ابني.. ابني الوحيد.

- ما اسمه يا خالتي وكيف عرفتي بأمر الهويات هنا!

- كل الناس شافتها بالتلفزيون.. كثيرون سيأتون إلى هنا يا ابني. بارك الله بكم..

لم تمنع عينيها من البكاء وهي تعيد النظر بالصور عشرات المرات وأنا أقرأ معها الأسماء وأطابق الاسم الثلاثي مع الهويات المعلقة..

- اسمعي يا أمي.. اسم ابنك غير موجود مع هذه الهويات.. قد نجد هويات أخرى ونعلقها في الأيام المقبلة..

- يعني ابني حي للآن!

- الله العالم.. النهر سيخبرنا.

- والحكومة؟

- لا تعلم شيئاً.. الشغلة مو يم الحكومة يا أمي!

- يعني النهر يعلم والحكومة لا؟

- إي أمي العزيزة.. النهر يعلم والحكومة لا تعلم..

بهتت عيناها. لم تكن كبيرة السن. السواد الداكن أضفى عليها سنيناً إضافية وكتب الإرهاقُ على وجهها تجاعيد مبكرة جاءت في غير مواسمها. رفعت يديها للسماء وتقاطرت دموعها بشكل أفزعني! ثم نظرتْ لي بأمومة تتوسلني ونظرتُ لها بإشفاق لا حدّ له حتى كاد قلبي يتفطر وأنا أنظر إلى دموعها المتجمعة في نقرتي عينيها ككرة ماء،

وكأني أرى صورتي تنعكس فيهما جليّة، واضحة.

اختطفني صمتٌ مؤذِ. تحسست الكائن في جيب قميصي. لم أجرؤ على مطابقة اسمه مع ابن المرأة، غير أني كنت أكثر حزناً منها.

أخذتُ عنوانها وأعطيتها بطاقة أعمالي "**دعي أحداً يتصل بي كل يوم**" ووعدتها أن أكون أول المخبرين لها لو نجد هوية ابنها الوحيد.

أوصلها أحد الصبيان إلى الشارع العام وعيناي لا تفارقان كتلتها السوداء وهي تدب دبيب العاجز.

على جرف النهر حطّ زورق الرجل الصياد وسحب الصغار مقدمته إلى اليابسة. نزلت لورا متأرجحة بجينزها الصحراوي وقبعتها العسكرية. حمل لها الصبيان حقيبة متوسطة وسبقوها إلى المقهى، فهي سُرّة القرية ونقطتها المركزية. عانقتني كعادتها وهي تتمتم: سأكون معكم ضد حملات التشويه التي طالت هذا القرية العظيمة.

كان الصياد يقف وينظر إلينا. وكانت يده تقبض على هويات أخرى. اضطربت وأنا أتسلمها منه. قلت له: **يا عم.. متى تنتهي هذه القصة الطويلة!** نظر لي الرجل بحيرة قائلاً: **الذي فاتنا أكثر. جثث الليل تمرّ ولا نراها!**

دخلنا جو المقهى الحار. أدرت المروحة الأرضية باتجاهنا. كان الصياد يعلق الهويات الجديدة وأوراقاً مبللة مختلفة ما يزال حبرها يلطخها..

ذهب الصياد ونطّ جرجيس هامساً بأذني أن هناك رجالاً ثلاثة. قلت لجرجيس. لا تكن مذعوراً من لا شيء. دعهم يتفرجون على ما تبقى من أبنائهم.

التقطت لورا الصور المتتالية للرجال الثلاثة في بحثهم المستحيل، واختفى جرجيس بلمح البصر. كانت عيون الرجال تلتصق بالحائط وتبحث في الأسماء والصور الغريقة. وجد اثنان منهم صور أبنائهم،

وأجهشا بالبكاء وبقيت عينا الثالث تفحصان الصور وتتمعنان فيها بدقة متناهية.

أخذتُ لورا تحت ظلال السوق المسقف. قالت وهي تنظر إلى السقائف الصفيحية العشوائية التي صفّها أصحاب الدكاكين اتقاء للشمس والحر: يمكن تطوير القرية إلى شكل آخر. هذه الصفائح تزيد من حرارتها.

صادفتنا مريم بوجهها الطفولي المثير. صافحتْ لورا بابتسامة جميلة. وانضمّت إلينا في دوران قصير بين ارجاء السوق، حتى خرجنا من عنقه الآخر، إلى فضاء مفتوح يمتد إلى النهر. وثمة جسر غير بعيد بقي وحده معلقاً، ليكشف صمت كرخ المدينة عن رصافتها بعزلتهما المريبة بين الضفتين.

قالت لورا:

- لليوم الثاني تواصل الصحف الأجنبية تغطيتها لمسرحية القرية.

جلسنا على مصطبة متروكة وكان دجلة أمامنا.

- سحبت من النت بعض التغطيات الصحفية على ورق.. يمكن أن تعملوا ارشيفاً للقرية ما زالت قد خرجت من عزلتها.

قرأت بعض التعليقات والمقدمات والعناوين، فيما كانت لورا تواصل:

- سيزوركم الكثيرون من المراسلين والصحفيين والقنوات الفضائية، فما حدث لم يكن عادياً في دولة تتصارع فيما بينها ومن دون أسباب أحياناً سوى صراعها على السلطة.

قالت مريم:

- كثير من المعلمات يستفسرن عن سر القرية. قلت للأستاذ هذا الصباح أن شكوكاً غير مفهومة بدأت تدور بين الناس حول مرجعية القرية!

قلت بقلق:

- عرفت أنها ستكون في المرصاد ذات يوم ولا يريدون أن يقتنعوا أن مرجعيتها عفوية. الظلم قاد الناس إلى هذا المكان بعيداً عن الرصاص والمفخخات واللحى الوسخة.

تساءلت لورا:

- والناس كيف تتصرف بعد العرض!

أجابتها مريم:

- الناس بدأت تقلق منذ يومين خاصة بعد العرض المسرحي الذي بثته قنوات فضائية وتناولته الصحف بشكل محرِّض، وقيل أن ندوة عرضت في القناة الرسمية تسفّه الأستاذ وأفكاره من خلال رجال دين وآخرين متملقين لهم.

كانت الشمس ترتفع. نهضنا ودخلنا من عنق السوق وتوقفنا في المقهى. كان رجال ونساء كثيرون يتحنطون أمام حائط الهويات وجرجيس يقضم أظفاره. بينهم المرأة التي تبحث عن ابنها قبل ساعة. يبدو أنها رجعت. تتكور على نفسها بذل وانكسار. رأتني بعينيها الغارقتين بكل حزن البشرية:

- قلبي يحدثني أنكم ستجدون ابني. ما أقدر أغادر المكان.

أدخلتها إلى المقهى وقدمت لها قدح ماء. ساعدتها مريم بغسل وجهها، وانشغلت لورا بتصويرها.

قال لي رجل الشاي:

- بعضهم وجد هويات أبنائه فأخذها وانصرف.

قدم لي استكانة شاي ولمريم ولورا قدحي ماء:

- الناس ستأتي بعد إن تتعرف على المكان.

- يا عم كل من يأتي ويجد هوية تعود له ليأخذها.

صرخت واحدة من نساء الهويات وخمشت هوية معلقة وهي تنظر إليها بعينين مرتعبتين وشفتين ترتجفان. صرختْ ولطمتْ فيما كان رجل أصفر الوجه يسحب الهوية منها وينظر هو أيضاً إلى الصورة ويطابق الاسم.

لورا كيف تتجرأين على هذه الرؤى؟[1].

لدي صور عديدة لنساء يبكين ويمزق ملابسهنَ، ومن النادر أن يبكي الرجال كهذا الرجل، لهذا فإن بكاءهم ثمين كحبات الكافيار ولحظة تصوير بكائهم تعادل أرشيفاً من نساء باكيات.

عندما يبكي الرجل أَرتعب. أشعر أن هناك خطأ ما في الحياة. يرد الأستاذ ونحن على سطحه الصفيحي ودجلة أمامنا مظلم ككل يوم: البكاء عشق أيها الشاب ولكنه عشق قهري مستلِب، وهو كجريان الروح في غير وعائها. الرجل الذي يبكي بحرقة لفقدان ولده يؤكد بقاءه الاجتماعي في تلك اللحظة، ومن يؤكد مثل هذا البقاء والاتصال مع مجموعته بطريقة البكاء القهري، يعني أنه يعترف بقسوة الحالة عليه، فالإنسان في لحظة ضعفه يكشف ظلم السلطة والمجتمع له، فلا يريد أن يعترف بأن المجتمع فاسد وهو من أنتج تلك السلطة، إنما ينتفض ويقول أن السلطة فاسدة، والحقيقة أن السلطة والمجتمع هما بؤرتا الفساد والإفساد.. وهما من أوصلا ابنه إلى يد الصياد.

بطريقة مفاجئة حمل الصياد فريقاً يابانياً قبل المساء، مراسل ومصور وكاميرا متوسطة ذاتية الإضاءة ولكن بلا مترجم. أطل الرجلان باسمَين. استهوتهما لعبة القرية. المراسل يقول شيئاً ما بإنكليزية مفهومة

(1) واحدة من أجمل الصور وأكثرها تعبيراً وقوة تلك التي التقطتها لورا.. هي لحظة هذا الرجل وهو يصفق بيده جبهته ثلاث مرات بقوة ويأس ويصرخ صراخ طفل صعدت النار بين ثيابه. كانت صورة مؤثرة لرجل فقد حواسه واتزانه يا بوحمد ليكشف حقيقة الضعف البشري في أقسى حالاته..

إلى حد جيد، لكن الأستاذ فهم بعد جهد أن الرجل روائي ولديه روايات مطبوعة وهو معروف في بلده ويطمح بمعايشة مباشرة للقرية، كي يمكنه من استنتاج ريبورتاج صحفي طويل بأقل تقدير.

مريم ذهبت قبل قليل فالليل يمتلئ بالفئران المتقافزة بين قدميها الصغيرتين، والمرأة التي ترى ابنها بيننا نامت بجوار مكتبة الأستاذ برغم الحر. نامت بجوار النهر الذي سيحكي لها قصة ابنها الغريق فيما بعد على ساحل جزيرة تستوطنها الكلاب المسعورة.

لورا تتمدد إلى جواري وهي تحصي النجوم بعد أن بعثت تقريرها المصور من حاسبتها الصغيرة عبر هاتف الثريا عن الهويات المقتولة التي وجدها أهلها، تتقدمها صورةُ الرجل الذي يَصفِق جبهته بيده ثلاث مرات. تحدثت كثيراً مع الرجلين بصعوبة قبل أن تذبل عيناها.

اضطجع اليابانيان على سطح الصفيح، فوصولهما المتأخر جعل من القرية بيتاً مظلماً. يراقبان السماء المغمورة بالنجوم وصوت دجلة يُسمع كلما مر عليهما الليل. فصوراه نهراً مظلماً يجري غامضاً ومتلكئاً بكل شيء. سرياً وعميقاً.

أقلقني بقاء المرأة في بيت الأستاذ. حسبتُ النجوم الكثيرة في السماء البعيدة. أمضيت معها الوقت المظلم في متوالية ذهنية شطرت رأسي حتى توقف في غيبوبة لم أفق معها إلا على صوت لورا وهي تتحدث في هاتفها مع المنطقة الخضراء كما أعلمتني.

الشمس مبكرة هي أيضاً. وفراش الأستاذ فارغ. لم يغيّر طقسه بالقراءة وعمل الشاي والقهوة. ذهبت لورا مع الصياد إلى الضفة الأخرى، وصاحب المقهى يخبرني أن عدداً من النساء والرجال يتراصفون على الجدار في زحام يكتم الأنفاس وقد تناقص عدد الهويات وامرأة البارحة تتواجد مع الحشد وتبكي بين لحظة وأخرى.

ارتديت بنطالي ودعوت اليابانيين للإفطار وشرب الشاي مع

الأستاذ:

- **وصلنا إلى مفترق طرق.**

أكمل الأستاذ وهو يمضغ لقمة:

- **الناس تريد فضح الحكومة بأية طريقة، هذا حق. لم يحصل أن هناك موتى بلا جثث ولا قبور. لم يحصل أن هناك موتى يُدفنون في الأنهار..!**

احتسي الشاي بذهن مشوش:

- **الحكومة الطائفية أنتجت صراعاً طائفياً. الجريمة أن تُقتل في المكان س لأنك في تلك اللحظة لم تكن في المكان ص.. هذا هو الموت بالمصادفة والوطن كله يعيش بالمصادفة الآن!**

ترجم الأستاذ للرجلين ما قاله قبل قليل بطريقة مبسطة فضحكا مجاملة. خرجنا إلى المقهى وصدى ضحكة الأستاذ تطرق الفضاء الملتبس. حشود كبيرة تغطي مدخل القرية وغرباء يستطلعون السوق. يبحثون بين صفائحه وخشبه عن لمسة ما في هذا المكان الطالع من خراب الأرض وعصور التنك؛ لكنهم يتوزعون هنا وهناك. لم يكن ثمة مكان للجلوس في المقهى. جَذبنا السوق إلى داخله وأرجَعَنا بين ممراته. والرجلان يفترقان عنّا لتصوير القرية من زوايا يختارانها.

كانت فتاة الرماد قد استعادت شيئا من صحتها. قال الرجل الأزرق الذي دار معنا في السوق. ثم:

- **القرية تشكو من الغرباء من يومين.**

رد الأستاذ:

- **الهويات..**

وأوضح:

- **ينكشف حجم المأساة كلما وجد الناس هويات أبنائهم.**

وأضاف:

- حتى لو فرغ الحائط منها فالناس ستأتي كل يوم تنتظر يد الصياد الكريمة. هذا هو الهول الذي علينا أن نستوعبه. الفكرة هي مثل كلمات متقاطعة. حرف يتصل بحرف لتكوين جملة مفيدة.

يتعالى صراخٌ جديد من حائط الموتى، تهتز القارورة بيد الرجل. يتحرك الرماد داخلها بإلحاح. يحملها الأب إلى حضنه ويربت على زجاجها قائلاً:

- تتطير من صراخ النساء.

تمعن بها الأستاذ كمن يراها لأول مرة:

- رماد.. كل شيء سيصبح رماداً..

قال قائل بين الحشود:

- لم تبق إلا هويتان.. الناس تنتظر هويات أبنائها الغرقى..

نهض الأستاذ تحت هاجس مفاجئ وهو يصيح:

- الصورة بدأت تتضح أيها الناس.. نجحنا نحن.. وهم فشلوا.. عليكم بمواجهة الحقيقة التي لن يقبلوا بها.. لا ترددوا في فضحهم.. نجحنا أيها الفقراء الحقراء. كشفناهم..

كانت الحشود تقبل إلى مستودع الصيحة والغرباء يتشممونه في صباح القرية، ويتبحرون في عيني هذا الجسد الناحل ذي الشعر الأبيض وهو يشرع كفه اليمنى ذات الإصبع الزائد. بدا كعملاق قذفه الصباح من مكان ما إلى هنا، وكأنه يخفي حلماً طرق أجفانه وذاكرته، ويشير إلى غرباء القرية المتعاقبين منذ فضيحة الصحف البغدادية في مسرحية القرية المفتوحة حتى هذه اللحظة.

رأيتُ في وجهه اصفراراً وأنا أديم النظر بوجهه العجوز، الممصوص، المحتقن، المنفعل والمنتصر.

سألني أحد الغرباء: **هل هناك موعد لجلب الهويات؟**

كان وجهه مسترخياً وعيناه تتحركان إلى كل اتجاه كعيني ذبابة فأجبته ببرود:

- **تعال بأي وقت تجد موتَ من تريد..!**

انصرف ودسّ نفسه بين الحشود وغاب الأستاذ في تلافيف القرية، في السوق أو غيره، كما يحدث عادة حينما يريد، وانحشر الفريق الياباني بين الجموع المتجولة بين السوق وحائط الهويات، في حين كانت المقهى تعج بالطارئين والغرباء وأهل القرية على حد سواء في ثرثرة متصلة لا تنتهي.

يد الصياد..

الذي يعيش في خوف لن يكون حراً أبداً.

هوراس

أخبرت الأستاذ أن الصياد لا يستطيع الوصول إلى جرف النهر بسبب تهافت الناس عليه وخوفه من الملاحقة العشوائية التي لا تخلو من العنف بسبب الحالات النفسية غير المسيطَر عليها؛ وفي رأسه تكاثرت هواجس وظنون. تركوا الحائط وعرفوا مصدر كشف الرعب في النهر. رعب الفضيحة الجماعية التي قادها صياد مجهول بشهامة طيلة أيام وليالٍ ومنحنا حرية التجول في عالم الغرقى، المقتولين في شين المكان وسينه معاً، وهم يطفون في نهر حائر بعد أن تفطس أجسادهم وتشبع نزفاً وغرقاً، ويد صياد لا تتعب. تجاوزت الخوف الفطري من جثث عابرة تذهب إلى جزر القصب ومستعمرات الكلاب. وتجاوزت الارتزاق الاضطراري إلى التماهي الحر مع الآخرين.

اتصل الأستاذ بالصياد: **قف في منتصف النهر ولا تأتِ إلى الجرف.. أنا سآتي إليك. كن مطمئناً. سنفضحهم ونفضح أرقامهم وبلاغاتهم.**

يقول الأستاذ بحس غريب متقطع: **لا بد من نهاية. نهاية للخوف ونهاية للشجاعة. التأمل صلاة في محراب النفس. القرية تؤسس نفسها بطريقة تلقائية لكني أخاف عليها..!**

يتردد الصياد وهو يرى الوجوه الغريبة تتزاحم. يتكالبون على النهر حينما يجدون حائط الهويات فارغاً، تتصل طوابيرها ببعضها

حتى الجرف. يقف في الربع الأخير العميق من النهر مرتجفاً، فيخوض الأستاذ حتى صدره في الماء ويتسلم قبضة من الهويات الجديدة. ويعود رافعاً إحدى يديه بأصابعها الست بحفنة جديدة منها وعشرات الأكف والوجوه تشكل خطاً طويلاً من الأجساد المتراصفة تنتظر ولادة الموت الجديد بين يدي الأستاذ الصاعد إليهم بملابس مبللة ووجهه السعيد ينشر أمل العثور على موت لم يجف دم الجريمة عليه بعد.

- **كونوا بأمل دائماً..!**

وهو يقترب ويصعد جسده النحيل المبلل إلى الحشد المتكاثر:

- **للأسف لسنا آلهة كي نمنحكم حياتهم!**

الأصابع المفتوحة والأكف المتراصفة والعيون الغاضبة وصراخ النسوة مشهد لا يستطيع الأستاذ مواجهته بثبات دائماً:

- **كونوا عند حائط الهويات.. هناك يمكنكم اللطم والبكاء وشق الأزياق.**

أُنظّم الطابور بصعوبة. آباء وأبناء وأمهات يرتجفون في موعد الساعة التي ينفخ فيها الأستاذ حين ينتهي من رصف الهويات الجديدة. أساعدهم بقراءة الأسماء. والفريق الياباني لا يكف عن تصوير المشاهد المتوالية لطابور لا ينتظم، ووجوه أمضّها القلق والانتظار والخوف من لحظة الحقيقة الماثلة أمامهم على جدار صغير أخذ يستوعب بصعوبة عشرات الهويات والمستندات الشخصية، ويفرش شطراً واسعاً من الحياة البغدادية المندحرة عبر النهر في قصة القتل المريب.

ترابط المرأة المنكسرة بعينيها الغارقتين بالألم تحت الجدار. يساعدها الشاب المسرحي بنقلها إلى زاوية لا تصلها الأقدام. تحسست هويتي في جيبي، وهي عادة لازمتني هذه الأيام. تنفد الهويات في مآتم متجولة ويبقى الحائط فارغاً. تنصرف الوجوه ويخف التزاحم، فتأتي وجوهٌ غيرها مستعطِفة. مُذَلّة. مُهانة.. تنتظر النهر وصياداً يغيب بضعة

أيـام. بعضهـا يغادر مسـاء وبعضها الآخر يتمادى فـي البقاء أياماً متصلة بانتظار الصيد والصياد.

هـذا الانتظـار تـرك أسـئلة وأهـل القريـة يراقبـون الغربـاء من كل زاويـة. الأرض للنـاس والحكومة منشـغلة بالحرب الطائفية. فانشـغلت بين نهارٍ ونهارٍ المساحات التالية ببناء صفيحي وخشبي جديد. ثمة من بنـى حجرات من البلوك الأسـمنتي والثرمسـتون الأبيـض. تتمدد القرية مـع ضفـة النهر بوجوه مفقودة السـحنات والملامـح، بالمهاجرين الذين دلتهم الفضائيات على قريتنا، وحشدت أرواحَهم ندوات وبرامج ناقشت عشوائيات الحواسم وقريتنا التي أخذت نصيبها من إلفات الأنظار..

يصيح الأستاذ:

- يا أهالي القتلى. يا مظلومين.. من كان يسكن الرصافة فليذهب إلى شاطئ الكرخ ومن يسكن الكرخ فليذهب إلى شاطئ الرصافة. النهر واحد والقتلى في المكانين..

يصغي الناس بقلوب متشنجة:

- صيـادو الجثـث كثيـرون فـلا تتأخـروا بإنقـاذ موتاكم. اسـتبدلوا الأمكنـة، فالـكلاب اسـتوطنت دجلـة وبنـت لها جزراً تعتـرض قتلاكم. الانتظار غير المجدي يُفسد أفراحكم بالعثور على أبنائكم.

اختلطت ألوان القمصان وبناطيل الرجال في زحام على الشـاطئ والمقهـى. كان حائـط الهويـات فارغـاً يعكس السـرعة التـي أُخذت بها الهويات. رجل المقهى يهمس.. **أكثر من رجل أخذ أكثر من هوية ولم يرحـل عـن القريـة.** لكنـه يجفل فجأة بصوت رشـقة رصاص تنطلق من النهر. ركض الأستاذ إلى السطح. كنت أرى المصور الياباني هناك يمد كاميرته إلى النهر.

يقول أفندي لا أعرفه:

- صياد واحد كشف شيئاً من الحقيقة فكيف إذا تكاتف الصيادون

في طول دجلة وعرضه!

قلت للمرأة: **يا أمي العزيزة قد يفتقدونك وأنت هنا منذ أيام. أعدك أني سأجلب هوية ابنك.. الغرباء يملأون القرية.. والهويات تسرق الآن..!**

تنظر لي المرأة بعينين اختلطت فيهما ألوان البكاء وتهمس بانكسار "**ابني**"!

تمسك بي مريم: **دعها بيننا..**

تحسست هويتي كما في كل مرة. كان صوت إطلاقات قريبة تأتي من جهة النهر. يمكن استشفاف الذعر الأول الذي انتاب الناس. المصور الياباني نزل من السطح على عجالة ودلف إلى السوق راكضاً يلحقه رفيقه المراسل كأنما عثرا على شيء. كان جرجيس يحجل في السوق على غير هدى قبل أن يسقط. رصاص كثير يمرق عبر سماء القرية. لم يكن ارتباك الناس إلا نذيراً من نذر الاستغاثة الأولى لخطر يأتي من النهر.

فرغت الضفة من كائنات الهويات التي كانت مزدحمة. الغرباء تركوا القرية وعبروا الشارع العام. سيارات كانت مختبئة خلف أكوام نفايات بدأت تشتغل وتنسحب. ثمة رؤوس الأهالي التي فضلت أن ترى مصدر الرصاص من على السطوح. غير أنها سرعان ما تنسحب بسبب رشقات أخذت تمر من بين بيوت الصفيح وتخترقها.

كنتُ حريصاً على أن أرى مريم. كانت تحتمي بالمرأة الوحيدة تحت حائط الهويات عندما صعدت بحذر إلى سطح بيت الأستاذ. كان النهار ساطعاً وكان النهر يمشي متعثراً. وهناك زوارق تقترب مشكلة خطاً مستقيماً منحدراً صوب القرية.

هرعت إلى مريم تحت زخ رصاص أمطر القرية الصغيرة وأدخلتها إلى السوق مع المرأة.

كان جسد الأستاذ المشرع فوق السطوح كراية من رايات القرية العالية بين رصاص متكاثر بطريقة مجنونة. تتطاول عليه الرمانات اليدوية لكنه يختفي بين الأصوات وفتائل الدخان الأسود وألسنة النيران.

انفجارات محكمة تقتنص بيوت الصفيح فتشب النيران المهولة بعد لحظات. ورعب يملأ القرية والناس المحاصرة في البيوت والسوق الوحيدة التي بدأت النيران تلتهم أجزاء منها.

يوصيني الأستاذ بصوت مجروح: **خذ حكمتي ولا تتراجع..** ويمرق كشبح لا ظل له. يتلاشى بين رصاص عنيد ينطلق من النهر. ويذوب في نيران حكمته التي اختارها.

أين أنت يا أستاذ!.. أصيح وراءه..

فيرد علي صوته من مسافاتٍ بعيدة:

لا تترك المرأة وحدها

ثم يأتي الصدى:

تشبث بها وأعطها ما فقدَته..

أصيح بصوت جمعت فيه كل خوفي:

وماذا حصل يا أستاذ؟؟!!

يأتيني صوت الأستاذ من كل ركن يشتعل الآن بالنيران وتعصف الانفجارات به بلا رحمة:

لقد قتلوا الصياد!

قتلوا

الصيااااااااااااااااااااااااد...

آب - تشرين الثاني ٢٠١١

بغداد

الإصدارات الأدبية:

1 - ذلك البكاء الجميل (قصص) 1983 - بغداد - دار الشؤون الثقافية.
2 - أصابع الصفصاف (قصص) 1987 - بغداد - دار الشؤون الثقافية.
3 - جذوع في العراء (قصص) 1988 - بغداد - دار الشؤون الثقافية.
4 - بيتنا (قصص) 1990 - بغداد - دار الشؤون الثقافية.
5 - انفجار دمعة (يوميات حرب) 1994، ط1، بغداد - دار الشؤون الثقافية - 1998 - القاهرة، ط2، دار عشتار.
6 - المعْدان (قصص) 1995 - بغداد - دار الشؤون الثقافية.
7 - انفجار قلب (رسائل حب) 2000 - بغداد - دار مدى.
8 - جنة العميان (نصوص) 2000 - بغداد - دار مدى.
9 - فصول الحصار (قصيدة) 2000 - بغداد - دار مدى.
10 - عكس المقص (قصص) 2000 - دمشق - اتحاد الكتاب العرب.
11 - طيور الغاق (رواية) 2001 - بغداد - دار الشؤون الثقافية.
12 - مولد غْراب (رواية)، ط1، ط2، ط3، بغداد 2001، ط4، 2004، القاهرة، دار الحضارة العربية.
13 - شبيه الخنزير (رواية)، ط1، 2004، القاهرة، دار الحضارة العربية، ط2، دار فضاءات، الأردن 2009.
14 - الهندوس يطرقون باب السماء - أبو ظبي (أدب رحلات)، 2011، ط1، والمؤسسة العربية للنشر، بيروت، ط2011، حاز على جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلات.
15 - آخر حروب الرئيس (يوميات بغداد 2003) نشر كاملاً في مواقع وصحف عراقية مختلفة ولم يطبع ككتاب.

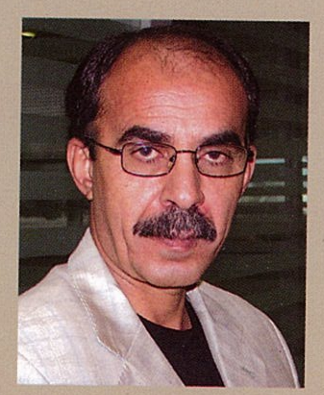
waridbader@gmail.com
هاتف: 71810130449

عجائب بغداد

رواية

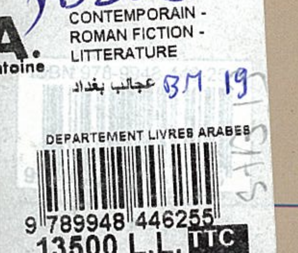
وارد بدر السالم

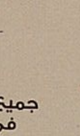
• روائي من العراق



تحولت الغرف إلى ملاذات جماعية لا سبيل إلى تركها. كانت بارات صغيرة ومقاهيَ تصلح للتزاور والتعارف بين جموع المراسلين الأجانب وخلطائهم العرب. تصلح للقصص والحكايات والأخبار واجترار ما حدث بأكثر من عين ولسان. قليل العاصمة مظلم لا يُحتمل والخديعة متربصة والغدر يتحول إلى قصص في بلد فقد هواءه النقي وظل يستنشق الغبار طيلة فصوله.

همرات ومارينز وصحفيون ومراسلون ووجوه عراقية متلبسة بالغموض والبلادة والحزن وأطياف من الأسئلة. هذه أول مرة أرى وجوهاً عراقية بهذا التكرار؛ نساء متشحات بعباءات سود، شاردات الأنظار، محجبات. وجوه قلقة. ورجال محاصرون يفترسهم الهم والغد المقبل بالوعود، يحملون فايلات ملونة ويلوحون بها كأنهم سيدخلون الجنة من بوابة الشيراتون بحماية جنود المارينز!








THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.